الزنـابق تُزهِرُ فوق المستنقعات

الزنابق تزهر فوق المستنقعات

فارس التميمي

رواية

الكتاب: الزنابق تزهر فوق المستنقعات

المؤلف: فارس التميمي

رقم الكتاب في الآرشيف الكندي: ISBN: 978-0-9738853-8-5

Al Zanabiq Tuzhir Fawq Al Mustanqa’at

الناشر: الفرات للنشر والتوزيع

سنة النشر: 2018

الطبعة الأولى: 2018

حقوق الطبع: جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.

تصميم الغلاف: علي حمدان

لوحة الغلاف: لوحة زيتية للمؤلف عنوانها: "الرحيل"

إهـــــــداء

إلى كل من عانوا من حكم الطغاة لبلدانهم،
إلى كل من أجبرهم الطغاة على أن يهجروا أوطانهم،
إلى كل من عانوا في مهجرهم....،
ولم يُحَمِّلوا المعاناة لغير أنفسهم....،

صبــاحٌ جــديـد

يستيقظ "فرانك" صباحاً كالمعتاد، وينزل من الدور العلوي لمنزله ليجلس عند طاولة المطبخ الصغيرة، بانتظار أن تنتهي إبنته من تجهيز نفسها لكي يأخذها إلى المدرسة.

إبنته "كارول" عمرها تسع سنوات، ولأن بيتهم لا يقع ضمن منطقة خدمات سيارة المدرسة التي تأخذ الطلاب من بيوتهم صباحاً.. ثم تعود بهم بعد إنتهاء الدوام، فقد كان عليه هو أن يأخذها للمدرسة في الصباح ثم يعود بها للبيت بعد الظهر، بعد إنتهاء ساعات دوام المدرسة.

لقد أصرت "بريجيت" زوجة فرانك، والدة كارول، على أن تسجل إبنتها في هذه المدرسة، التي يقال عنها أنها من أفضل المدارس الحكومية في المدينة...، ولكي تستطيع أن تفعل ذلك، فقد إختارت في بداية مجيئهم لهذه المدينة، أن يسكنوا لفترة قصيرة في منزل إستأجروه قرب المدرسة، لكي يتم قبول كارول فيها حسب نظام تبعية بيتهم لهذه المدرسة.

وبعد مرور سنتين، وهذا هو ما كانوا قد خططوا له... أو في الحقيقة ما قد خططت له بريجيت بنفسها ولوحدها، قرروا أن يشتروا منزلاً في منطقة أخرى كانت تعجبهم وإنتقلوا إليه، وكان ذلك طبعاً بعد أن

تحسنت أوضاعهم المالية، وأصبح لديهم دخل شبه ثابت ومضمون، يسمح لهم بتسديد قرض البنك الذي كان ضرورياً لكي يستطيعوا شراء البيت.
وقد كانت فترة صعبة مرّوا بها، قبل أن يستطيعوا إقناع إدارة المدرسة باستمرار كارول في الدراسة فيها، رغم أن عنوان سكنها قد تغير وأصبح خارج نطاق خدماتها.

لقد كان مستوى كارول وذكاؤها ونشاطها في المدرسة، عاملاً مهماً لكي يكون معلموها إلى جانبها ويطلبوا لها إستثناءً من إدارة المدرسة لكي تبقى معهم، وكان بعض المعلمات والمعلمين الذين يقومون على تعليم كارول، قد عاشوا هذه المسألة وكأنها تخصّهم أو تخصّ أبنائهم هم أنفسهم.
لقد بذل المعلمات والمعلمون من الجهد والمتابعة، ما لا يمكن لفرانك وبريجيت أن يصدّقوه، لأنهم لم يعتادوا على رؤية مثل هذا الإستعداد من قبل لمساعدة الآخرين... ولكنهما في نهاية الأمر قد إحتاجا نتيجة ذلك فقط إلى أن يتعهدا لإدارة المدرسة، بأن يتولّيان هما بنفسيهما نقل كارول للمدرسة يومياً ذهاباً وإياباً.

عند طاولة المطبخ، جلس فرانك ساكناً لا يعرف ماذا يفعل...،
فقد إستيقظ اليوم مبكراً وعلى غير عادته، كما أنه لا يعرف متى ستكون كارول جاهزة للذهاب للمدرسة، ذلك لأن أمها التي تكون في العادة نصف مستيقظة في الصباح الباكر، تقوم بتجهيزها وتجهيز الحاجيات التي ستأخذها معها للمدرسة، وهو لا يعرف فيما إذا كان الوقت كافياً لكي يعمل لنفسه كأساً من الشاي أو القهوة، كما أنه لا يستطيع أن يُدَخِّن سيجارته وهو في المطبخ، إذ لابد له أن يخرج

للهواء الطلق، قبل أن يُصبح مقبولاً أو مسموحاً له أن يُشعل سيجارته...،،

إنه لا يتذكر منذ متى وُضِع هذا القانون، أو ما قد دفع معظم الناس أن يجعلون منه ما يشبه القانون، وهو عدم التدخين داخل المنازل، والذي يبدو أن معظم الناس قد أصبحوا يلتزمون به...، حتى من دون أن يراقبهم أحد، أو يحاسبهم فيما لو خالفوه. لقد أصبح هذا الأمر بمثابة العرف السائد بين الناس، مثل الحال المتعارف عليه بينهم أن السرقة وقتل النفس البريئة، هما سلوكان يتفق الجميع في أنه لا يقوم بهما من يعتبر نفسه إنساناً سويّاً...!

تُرى مالذي جعل الناس في هذه المرّة وفي هذه القضية بالذات، يتّفقون جميعهم وبدون إعتراض من قبل بعضهم... في مواجهة البعض الآخر....؟

هل يمكن القول أن الجميع أصبحوا يُراعون الإرشادات والنصائح الصحية؟

أم أن هنالك سبب آخر ساعد في هذا الإتفاق بين الناس الذين تعوّدوا على الإختلاف في كل شيئ...؟

وهل يمكن في المستقبل أن يصبح الكثير من السلوك الحسن، الذي يحتاجه الناس فيما بينهم، بمثابة عُرفٍ عام يلتزمون به، ومن دون الحاجة لرقيب يحاسبهم على عدم الإلتزام به....؟

ثم تذكر فرانك في تلك اللحظة، أن بريجيت قد إشتركت منذ فترة مع واحدة من أهم الصحف التي توزع للبيوت، بعد أن جائهم عرض مغرٍ وزهيد التكلفة من الصحيفة، وقد كانت بريجيت راغبة في الإشتراك في الصحيفة، لأنها تعتقد أن عليها أن تقرأ الأخبار والأحداث المحلية، لكي تتحسن لغتها الإنكليزية التي تحتاج لها كثيراً في عملها، وفي حياتها اليومية، وأيضاً لكي تتابع الكثير من الأمور والأخبار والأحداث

من حولها، والتي لا تستطيع متابعتها بسهولة... لكونها تعمل في أوقات مختلفة من اليوم، ولا تستطيع متابعة ما يحدث من خلال مشاهدة التلفزيون أو الإستماع للراديو، لأنها ما تزال تلاقي صعوبة في إلتقاط الكلمات التي تسمعها، في حين أنها عندما تقرأ الصحيفة فإنها تكون في فترات راحتها، وتستطيع أن تستعين بالقاموس لمعرفة معنى الكلمات لتفهم ولو جزئياً المعنى المكتوب...، وبريجيت تعمل بوظيفة مساعدة ممرضة في المستشفى الكبير في المدينة، مما يتطلب أن يكون دوامها في أوقات مختلفة من اليوم، ومنها طبعاً الفترات الليلية التي تحتاج أن تكون فيها في أقسام مختلفة من المستشفى...،،

نهض فرانك متوجهاً إلى باب المنزل، لكي يُحضِر الصحيفة التي يوصلها الموزع لباب البيت، وأخذها ثم عاد للداخل إلى جلسته عند طاولة المطبخ، وبدأ ينظر إلى العناوين الكبيرة على الصفحة الأولى...، فلم يجد فيها ما يشعر بأن له علاقة به...،،
من العناوين التي قرأها، أن الحزب الحاكم قد قَرَّر إعادة النظر في تجهيزه لمشروع قانون الرعاية الإجتماعية، والذي كان من المنتظر أن يُطرَح للپرلمان للتصويت عليه خلال فترة قريبة، وقرأ عنواناً آخر يقول، أن خبيراً في العقارات يتوقع هبوطاً نسبياً في أسعار العقارات السكنية، نتيجة لإحتمالات رفع البنوك نسبة الفوائد التي تتقاضاها على القروض العقارية، والذي يؤدي غالباً إلى أن نسبة من الناس لن تستطيع دفع مستحقات الفوائد البنكية، مما يضطرهم لعرض بيوتهم للبيع...، وهذا هو ما يحدث كل فترة منذ عدة سنوات... فالناس في الكثير من الأحوال، تمتلك بيوتها على طريقة ما يمكن إعتباره مِلكيَّة حتى إشعار آخر..! كما أن الكثير من الناس قد يضطرون لبيع بيوتهم نتيجة حالات الإنفصال والطلاق الشائعة، أو إنتقال أعمالهم إلى مناطق

أو ولايات بعيدة، عندما يُصبح من الصعب أو المستحيل، الإحتفاظ بالبيت والعمل أو الحياة الزوجية معاً....،،

كم هي صعبة هذه الحياة...؟
هل هناك من طريقة للتخلص من بعض صعوباتها..؟
ربما....،، وقد يكون ثمن ذلك كبيراً....،،
لكن هل هو ممكن فعلاً...؟

وبالرغم من عدم إهتمام فرانك الواضح بالعناوين التي قرأها، والتي بَدَت غير مهمة له، إلّا أنه يُدرك أنها ذات علاقة به وتهمّه فعلاً مثلما تهمّ أي إنسان في هذا المجتمع، ولكنه لم يستطع متابعة قراءة المواضيع بالتفاصيل، لأنه ليس من السهل عليه فهم مُعظم محتواها، لما يوجد من عائق كبير أمامه، يمنعه من فهم لغة الخبر والصياغة الإعلامية التي تدخل في سرده، والتي ليست له القدرة على فهمها، ولذلك فقد إكتفى بالعنوان وفهم ما إستطاع من الخبر، ولعله سيسمع هنا أو هناك ما يزيد من معرفته بما يدور وما سيحدث بهذا الخصوص...، وهو ليس بعيداً عن القلق على مثل هذه الأمور، ولكنه على أقل تقدير لديه عمل مناسب يقوم به، ويساهم لدرجة كبيرة في توفير العيش له ولعائلته، بالإضافة لما تكسبه زوجته بريجيت من عملها في المستشفى الحكومية... كذلك فإن طبيعة العمل الذي يقوم به هو كسائق متفرغ للطلبات الشخصية، قد أعطاه الحرية لكي يستطيع أن يساهم في رعاية إبنته كارول، عندما تكون أمها في عملها الذي كثيراً ما يكون في الفترات المسائية... وهو وبريجيت يدركان أنه لولا طبيعة عمله هذا، فإنهم كانوا سيحتاجون لخدمات من يرعى أو يجلس مع كارول خلال فترات إنشغالهما، وهذا يعني أنهما كانا سيدفعان أجوراً كبيرة على تلك

الخدمة، مما يعني أنهما سيضحيان بقسط كبير من مدخولهما الشهري، فقط لرعاية إبنتهما خلال تلك الأوقات.
سمع فرانك صوت إبنته كارول وهي تهبط على درجات السلم، وجائته للمطبخ لتخبره بأنها جاهزة...،،
إنها طفلة في التاسعة من العمر، ممتلئة حيوية ونشاطاً، ويبدو واضحاً عليها الرغبة والإستمتاع في الذهاب للمدرسة... ثم ذهبت بعد أن أخبرته أنها جاهزة لغرفة المعيشة المجاورة للمطبخ، لكي تحمل حقيبة المدرسة، ثم تبعتها أمها بريجيت بالنزول من الطابق العلوي، لمتابعة ما تحتاجه كارول قبل خروجها مع أبيها للمدرسة، فقامت بريجيت بتحضير شطيرة صغيرة من الخبز والجبن، وكذلك كأساً من الحليب لكي تتناولهما كارول قبل خروجها، ثم بدأت تُعدّ شطيرة أخرى من الخبز ووضعت فيها قطعة من اللحم المحضّر البارد، والذي أخرجته من الثلاجة، وأضافت له بعض الإضافات من الجبن الطري، ثم وضعته في كيس من النايلون المحكم الغلق، وذهبت بنفسها لتضعه في حقيبة كارول..، وأخبرتها لتذكيرها بأنها يجب أن تغسل يديها، قبل أن تتناول الشطيرة في فترة الإستراحة الطويلة المخصصة للأكل...،،
كان فرانك يتابع ما يجري بين كارول ووالدتها..، والإبتسامة تعلو وجهه بين فترة وأخرى فرحاً بإبنته، التي يبدو عليها النشاط وحب الذهاب للمدرسة، وفرحاً أيضاً بزوجته بريجيت التي تحرص على متابعة إبنتها والإهتمام بها من كل النواحي....،،

*****

لمحــات من الوطن..... الأول

عاد فرانك بذاكرته لسنين إلى الوراء، ليتذكر كيف كان يذهب للمدرسة في القرية التي عاش فيها... وكيف كان حال المدرسة المتهالكة، وكيف كان يعاملهم المعلمون..، وتذكّر كم أنه كان يكره المدرسة، لكثرة ما كان يتعرض هو والأطفال الآخرين معه للضرب من قبل المعلمين...!

لم يكن ذلك فقط عندما كان طفلاً صغيراً، لا يعبأ بالضرب لأكثر من كونه مؤلماً، وقد ينساه وينسى ألمه بعد فترة وجيزة... ولكنه إستمر حتى عندما بلغ مرحلة المراهقة في الدراسة الثانوية، عندما أصبح الضرب يعني إنتهاكاً لكرامة الإنسان وإعتزازه بنفسه... وكان الكثير من المعلمين لا يمتنعون عن حمل العصي بأيديهم والتبختر بها... وضرب الطلاب بتلك العصي لسبب أو بدون سبب... وتذكر كيف أنهم كانوا لا يتوانون في أبسط الأحوال عن توجيه الكلمات النابية للطلاب!

لقد كان معظم المعلمين يعتمدون هذا الأسلوب في تلك المدارس في القرى والأرياف، وربّما أكثر منها بكثير في المدن الكبيرة...، فقد كان الكثير من هؤلاء يُرسَلون للعمل في هذه المدارس في المناطق النائية،

من قبل الوزارة في بداية حياتهم الوظيفية.. في بلده الأول، الذي مازال فرانك يَحِنّ له على الرغم من ذكريات الأحداث المؤلمة التي لا يستطيع نسيانها... رغم كثرة محاولاته...،،

لقد كان معظم أهل الأطفال الذين يذهبون للمدارس يتعاملون بطيبة وسذاجة مع المدرسة، حيث أنهم كانوا يعتبرونها فعلاً مركزاً أساسياً لتعليم أبنائهم كل ما هو حسن وجيد،، وهذا هو في الحقيقة ما يُفتَرض أن يكون، وهم لم يكونوا ينتظرون معجزة يقوم بها المعلمون في تعليم أبنائهم، ولكن المشكلة على ما يبدو هي في قدرة هذا الإنسان (المُعَلّم)، على التمييز بين واجبه الذي عليه القيام به في تعليم هؤلاء الطلاب، وبين مشكلته الشخصية مع عمله أو مع نفسه..!
ولذلك فإن أهالي الأولاد الذين يذهبون للمدرسة، لم يكونوا يفكرون مطلقاً بأن يعترضوا أو يشتكوا، على معاملة المعلمين القاسية لأبنائهم، وكانوا غالباً ما يعتبرون أن معاملة المعلمين هذه لأبنائهم، إنّما تصبّ في صالحهم، وأنها مهمّة لتعليمهم الإنضباط الضروري لمستقبلهم وحياتهم....!

لقد كانت الكثير من المدارس في المناطق الريفية وأكثر منها في المدن المزدحمة، تقوم على أساس أن الدراسة فيها تكون لمجموعتين من الطلاب، مجموعة صباحية ومجموعة أخرى بعد الظهر، يتبادلان توقيت الدوام بينهما.. وفي بعض الأحيان كانت بعض المدارس تتقبل ثلاث مجموعات، تكون المجموعة الثالثة المسائية لكبار السن المتأخرين في تعليمهم والذين يعملون في ساعات النهار...،،

عندما كانت السماء تمطر في الخريف والشتاء البارد، كانت تبدأ معاناة السير في الذهاب إلى المدرسة... في الطرق غير المعبدة والتي تصبح

أوحالاً، ولا يعود بمقدور الأطفال السير فيها بأمان ومعرفة كيفية عبورها، من دون أن تنغمر بالطين أحذيتهم البسيطة والمتهرئة أصلاً، ذلك الطين الذي يبدأ بالزحف تدريجياً نحو سيقانهم، حتى يبلغ الرُكَب وربما يتجاوزها، ولا يصل الأولاد إلى المدرسة قبل أن يكونوا قد تلطّخوا بالطين من كل الجهات، وعليهم حال وصولهم لها محاولة تنظيف أنفسهم وملابسهم، بما يستطيعون إستخدامه مما حولهم من عيدان الشجر..، هذا عدا عن المطر الذي يبلل ثيابهم، ولكي يزيد من معاناتهم مع البرد، وهم يجلسون على مقاعد الدراسة المتهشم معظمها، في تلك الصفوف الدراسية الرطبة، والتي تخلو معظم نوافذها من الزجاج، ولا يمكنها أن تمنع دخول ماء المطر... وتيارات الهواء البارد للصفوف...،،

يا إلهي.... كم كانت الحياة صعبة هناك...،،
رغم عدم جدواها...،،
وعدم وجود معنى من عيش المعاناة فيها...!

لم يستطع فرانك أن يفهم لحد الآن، لماذا كان الناس يُصِرّون على أن يبقوا أحياء وهم يعيشون معاناة دائمة...؟
ولم يكن لديهم أمل في أن يعيشوا يوماً هانئاً...؟
لقد كان معظمهم يعانون ربما أكثر بكثير من الحيوانات التي يربّونها لكي يقتلوها فيما بعد، عندما تبلغ العمر الذي يستطيعون أن يحققوا أقصى فائدة منها....، وتلك الحيوانات لم تكن تعرف ماذا كان يخبئ لها الإنسان في نفسه من نوايا، فهي تثق به في البداية لأنه يحرص على إطعامها والعناية بها قدر ما تحتاج منه...، ثم في يوم ما، وعندما تحين الساعة، يظهر الوجه الحقيقي للإنسان..، ولكنها لن تكون إلا دقائق قليلة بعد أن يدرك الحيوان ذلك...،

لكي يصبح بعدها في عداد الأموات...،،
وذلك الحيوان المسكين... لن يمكنه أن يُبَلِّغ أو يوصل معلومته وإكتشافه لحقيقة الإنسان إلى أبناء جلدته ونوعه..، لكي يحذرهم منه، بعد إكتشافه هو لها...!

إنها قضية أزلية تحدث وتتكرر بإستمرار...،
ومجرى أحداثها في الحقيقة يشبه بعض مشاهد أفلام الرعب...،
والتي تُصوّر القتلة الذين يَقتلون ضحاياهم لأسباب نفسية مَرَضيّة....!
أو عندما لا يعرف القاتل نفسه... لماذا يَقتُل...؟
ولن يعرف الضحية المقتول... لماذا تم قتله...؟

هنا وفي هذا الوقت، تَذكَّر فرانك ماذا كانت عمته تقول له، كلما طلبت منه أن يذبح لها ديكاً أو دجاجة من قطيع الدجاج الذي تمتلكه، فقد كانت تقول له أن يأخذ الديك أو الدجاجة بعيداً عن باقي الدجاج، لكي لا يرَون عملية الذبح (القتل)....، بأعينهم...!

لم يكن فرانك يفهم لماذا كانت عمته تطلب منه أن يفعل ذلك....؟
وكان في كل مرة يسألها لماذا، وهل أن الدجاج سوف يحتج، أو يهرب (يهاجر) من البيت... لو أنه شاهد عملية الذبح..؟
أم أنه سيصاب بمرض أو صدمة، ولن تكون منه فائدة بعد ذلك...؟
ولم تكن عمته بعقليتها الفطريّة تعرف كيف تجيبه جواباً مقنعاً..، بل كانت تقول له ببساطة وسذاجة...:

- يا ولدي...،، إنه حرام..!
- عمتي...، كيف أن هذا حرام...؟
  أنا لم أسمع بحرام من هذا الشكل...!

- إبني.. إنه ليس حَرام مثلما هو حَرام أكل لحم الخنزير ولحم الميت، لكنه أيضاً حرام..، والنبي كان يقول: إذا أردت أن تذبح حيواناً، يجب أن تكون سكينتك حادّة، حتى تذبح الحيوان وهو مرتاح، ولكي لا يعاني ولا يتألم كثيراً.....!

هنا إنتبه فرانك إلى إبنته كارول، وهي تضع يدها على كتفه وتميل برأسها بنعومة الأطفال نحو صدره قائلة له:

- بابا... لازم نروح للمدرسة لكي لا نتأخر..،
- نعم.. نعم حبيبتي.. أنا جاهز...،

ثم نهض وأمسك بيدها، وهو يشعر وكأنه يمتلك العالم كله بوجود إبنته معه... التي يحبها ويحرص عليها أشدّ الحرص، وعلى زوجته التي ساعدته على تخطّي المصاعب في تنشئة حياته الجديدة في بلد الهجرة، هذا البلد الذي أصبح في النهاية بلده الوحيد...!

إنه البلد الذي عرف فيه الشعور والإحساس بقيمة الحياة... ليس من خلال اليوم الذي يعيشه هو وعائلته فحسب... بل حتى من خلال أهمية وقيمة حياته للبلد الجديد وللحكومة القائمة فيه...، أي حكومة...،، وبالرغم من أنه قد تربّى في بلد يختلف كلية عن بلده الجديد... إلا أنه يدرك تماماً أن حياته ذات قيمة لدى الدولة التي إحتضنته.. وأن حقوقه القانونية لا يستطيع أحد التجاوز عليها... فكيف لا يشعر بقيمة حياته هنا... بعد أن شهد ما لم يمكنه تحمله من مشاق الحياة في بلده الأول، حتى وصل لدرجة إستعداده لخوض تجربة الهجرة واللجوء.. والتي كان الكثير من الناس في تلك الفترة يخشونها.. خوفاً من عواقبها عليهم إذا لم ينجحوا فيها...،

ومازال هو لحد هذا اليوم لا يعرف كيف يعيش الناس في بلده الأول... وماذا تعني الحياة بالنسبة لهم... وقد أصبح الآن يدرك أن هنالك الكثير من أشكال ومتع هذه الحياة... ربما هو الآن فقط يقف على أول درجة من السلم الذي يصل لها... والذي يبدوا أنه طويل...، طويل جداً....،، مساكين أهل بلدي... هنالك الكثير... الكثير مما تفتقرون له....!

*****

في الطريق إلى المدرسة

خرج فرانك في صباح ذلك اليوم من منتصف تشرين الثاني من أواخر الخريف وقرب بداية الشتاء، وكان يوماً صحواً، تتخلل السماء الصافية بعض الغيوم التي لا يبدو أنها تهدد بمطر محتمل هذا اليوم، بعد أن كانت السماء قد أمطرت قبل يومين مطراً غزيراً جداً، لكنه لم يؤثر على مسيرة الحياة العامة خلال فترة المطر منذ بدايته حتى نهايته....،،
ولم تحدث حالات طارئة بين الناس تستدعي التدخل للمساعدة بسبب المطر...، ولم يسمع عن بيوت قد تسرب ماء المطر على ساكنيها من السقوف وبشكل تصعب الحياة معه، أو يحتاج الناس نتيجة المطر أن يتركوا منازلهم...،،
ولم يسمع عن إنهيار سقوف المنازل على رؤوس أهلها...!
ولم يشاهد أو يسمع عن أناس، قضوا ليلهم يحاولون التخلص من مياه الأمطار التي تسربت من الشارع لبيوتهم...،
لم يحدث مثل هذا الشيئ...،، رغم أنه من المؤكد أن شيئاً منه ربما قد حدث في بعض البيوت القديمة، ولكنه لم يكن من الأمور التي توقف حياة الناس أو تعطلها....،،
لم يكن هذا أول خريف أو شتاء يشهده فرانك في هذا البلد..،

فهو يعيش هنا منذ ما يقرب من ثلاثة عشر سنة، منذ أن ترك بلده هارباً قبل حوالي خمسة عشر سنة، ثم قضى ما يقرب من سنتين في بلد العبور، الذي يتوقف فيه اللاجئون قبل أن يتم ترحيلهم لأوطانهم الجديدة، حتى إستطاع الحصول على موافقة بالهجرة أو اللجوء لهذا البلد، وبعد أن قدَّمت له الكنيسة المساعدة التي تستطيعها لتقديم أوراقه وتزكيته لدى دول اللجوء....،،

تذكر فرانك كل هذا بعد أن مرَّت في فكره ذكرياته عن المدرسة، وعن المعلمين وقساوتهم، والعنف الذي كانوا يعتمدونه في تعاملهم مع الأطفال والكبار في المدارس على حد سواء...،

كذلك حَضَرت في ذهنه ذكرياته عن ذبحه الدجاج لعمته...،

كل تلك الذكريات من وطنه الأول...،،

والتي يبذل ما يستطيع لكي يمحيها من ذاكرته، بعد أن وصل لوطنه الجديد.....،، لكنه لم يستطع أن ينجح في ذلك...،،

ولقد كان معظم الناس في بلده الأول الذي تركه..، يستبشرون بالمطر ويعتبرونه دلائل الخير ورضا الخالق عنهم...،،

حتى أنهم كثيراً ما كانوا يُصَلّون طلباً للمطر عندما يتأخر عن موسمه، ولكن عندما يأتيهم المطر، وذلك ليس بالضرورة بعد صَلاتهم ولا نتيجة لها..،، فإنه كان يُدمّر في معظم الأحوال مساكن الفقراء ويتلف المزروعات....!

وتتوقف معظم مصالح الناس وتبدأ أزمة نقل وتجارة...، ومعاناة للناس الفقراء...،، بل أنه كان يخلق أزمة للمجتمع كله..!

أما في بلده الجديد، فإن معظم الناس لا يرغبون في المطر..،،

ربما فقط بعض المزارعين الذين يُبدون تحفظاً في موقفهم منه..، ذلك لأنهم في معظم الأحوال يرغبون به، ولكنهم يترددون في إعلان رغبتهم وتفضيلها وتقديمها على ما يراه الناس.. من عموم المجتمع وموقفهم من المطر ومساوئه..،،

لم يسمع فرانك عن أحدٍ يُصَلّي لكي تمطر السماء..!
بل إنه سمع في الكثير من الأحيان، الناس الذين يشتكون من الجو الممطر وحتى الغائم، لأنه يمنعهم من الإستمتاع بالجو الصحو الجميل والشمس المشرقة...،،
حتى أن مذيع نشرة الأنواء الجوية وأخبار الطقس، يتحرج غالباً عندما يقرأ النشرة أو يذيعها في الأيام الغائمة والممطرة!
وكأنما هو المسؤول عن حالة الجو وتقلباته ومساوئه..،،

كيف يمكن لمثل هذه المقاييس والإعتبارات أن تختلف من منطقة لمنطقة أخرى، في نفس هذا العالم.....؟
هل أن الناس هم نفس الناس، في أنحاء العالم..؟
إنهم بالتأكيد وليدي التجارب التي يعيشونها ويمرّون بها،، ولا يوجد مقياس ثابت بين كل هذه المقاييس...!
بل.. ربما لا يوجد شيئ ثابت في هذا العالم...!

ومن ذلك وغيره من أمور أخرى، فقد كان يبدو لفرانك واضحاً أن الناس في بلده الأول، كانوا مقموعين من قِبَل كلّ ما حولهم...؟
حتى هطول المطر أو عدم هطوله...!
وكأنما كانت أفواههم مُكمَّمة في كلّ شيئ، لدرجة أنهم لا يستطيعون حتى أن يُبدوا رأيهم الحقيقي في المطر، لكيلا يفهم البعض ممن يسمعونهم، أن هذا الموقف هو إعتراض على مشيئة القوة التي تقف وراء هطول المطر...!

أيّ بؤس هذا الذي يعيشونه هؤلاء المساكين...؟
ومن هو المسؤول الأول الذي أوصل الناس لمثل هذه الحالة من البؤس واليأس....؟

شعر فرانك فجأة وهو يقود السيارة، بيد إبنته كارول تُرَبِّت على ذراعه لتنبهه وهي تجلس في مقعد السيارة الخلفي، ولكي تخبره بأنه قد تجاوز الشارع الفرعي المؤدي للمدرسة..،،
وكانت مرتبكة لما رأته من أن أبيها لم ينتبه للطريق الصحيح هذا اليوم...، إنتبه فرانك لما قالته له كارول، وطمأنها أنه سيعود بعد أن يصل لنهاية الشارع لكي يستدير ويعود مرة أخرى لشارع المدرسة...، وبالفعل، فإنه فعل ما قاله لها...،،
ورأى أنه يجب أن يبعد ذكريات الماضي عن فكره وهو يقود السيارة، لكي لا يترتب على ملاحقة تلك الذكريات له، أثر لن ينفع معه الندم، فيما لو تسبب ذلك له بحادث مؤذٍ..،،
فقد أصابته أيام الماضي بما يكفي من الأذى...!

بعد أن وصل، ونزلت كارول من السيارة لتدخل للمدرسة... كان وهو يرقبها، يشعر بإرتياح كبير....،،
فقد أوصلها إلى ما يعتقد أنه مكان آمن لها... مكان هي تحبه فعلاً...،
لم يرغب فرانك بالعودة للمنزل بعد أن أوصل كارول للمدرسة، لأنه يعرف أن زوجته بريجيت ستكون نائمة، لأنها كانت ليلة البارحة تعمل في المستشفى لحدود الساعة السادسة من صباح اليوم، ولا يتوقع منها أن تستيقظ قبل الظهيرة....،،
ورأى أن يبقى في موقف سيارات المدرسة لدقائق، لكي يُشعِل سيجارة ولكي يُبقي نوافذ السيارة مفتوحة وهو يدخنها...،،
وكذلك لكي يفكر في مكان يذهب إليه ليتناول إفطاره البسيط، والذي سيكون عبارة عن قطعة من الكيك الصغير الحجم (المَفِن)، وكوب من القهوة أو الشاي... والتي ستكون كافية له لحدود فترة الظهيرة...،،
وسيبقى بإستمرار متوقعاً أن يأتيه طلب لتأجير سيارته، من مكتب تأجير السيارات الذي يتعامل معه، والذي يُحيل له الزبائن الذين

يحتاجون لخدمة تأجير سيارته... لكنه لا يتوقع أن يكون هنالك طلب في مثل هذا الوقت من الصباح، إلا إذا كان طلب سيارة أجرة للمطار، والتي هي في الغالب أكثر ما يحدث في مثل هذا الوقت من اليوم، والمطار يبعد عن مدينته مسافة لا تزيد عن ثلاثين كيلومتراً، وهذا هو ما كان يأمله، إذا ما كان محظوظاً وجاءه طلب لهذه الجهة حيث أنها سهلة ومجزية الأجر...، وهي في الغالب لا مشاكل فيها، حيث أنها ليست مثلما هو الحال مع الكثير من حالات الأجرة الأخرى، عندما يكون المطلوب عنواناً في شوارع فرعية... بين البيوت الصغيرة في المدينة المزدحمة، وعلى الأخص عندما يكون الزبائن من أصحاب الصفات والأخلاق المزعجة.....،،

*****

زيارة لصديق

خطر في بال فرانك أن يذهب إلى مقهى بالقرب من محل بقالة صديقه "حسين"... حيث يستطيع أن يأخذ منه قطعة (المَفِن) وكوب القهوة أو الشاي، ومن ثم يذهب إلى بقالة حسين، إذا كان موجوداً في هذا الوقت في المحل، وإذا لم تكن زوجته أو إبنه "علي" يقف في مكانه... لقد مرّت فترة أسبوعين منذ أن إلتقى به آخر مرة...،، وسيكون هنالك الكثير للتحدث عنه إذا ما وجده في البقالة...،،

حسين، هو من أقرب الأصدقاء لفرانك في هذه المدينة...، وهو أكبر منه سناً.. ربما بما يزيد عن خمس وعشرين سنة، ولكنه يتشارك معه في هموم كثيرة من الماضي والحاضر... هموم الوطن السابق.. وهموم العيش في الوطن الحالي الجديد... ومحاولات التكيّف للحياة في هذا الوطن...،،
هذا الوطن الذي يفتح أبوابه لكل من يريد أن يعيش فيه.. بسلام..،،

حسين...، رجل يعرف الكثير... عن أبناء الجاليات العربية المهاجرة واللاجئة لهذا البلد على حد سواء..، يعرف عنهم الكثير بصورة عامة،

ويعرف أبناء الجالية العراقية بشكل خاص، وذلك من خلال عمله لسنوات تزيد عن عشرين سنة في محل بقالته هذا، ومرور أبناء الجالية على محله لتسوق بعض الأشياء البسيطة منها، وكان الكثيرون منهم يأتون لمحله بحجة التسوق، ولكنهم في الحقيقة لا يتسوقون فعلاً بقدر ما يتوقعون أن يسمعوا أخباراً عن الآخرين، أو ربما اللقاء بهم أثناء وجودهم هناك بالصدفة، خصوصاً عندما لا تكون بينهم علاقة حميمة قوية، ولا يتزاورون فيما بينهم...، بل ربما لا يطيق أحدهم الآخر..، ولكن يبدو أن كلاً منهم يحتاج الآخر فقط لسماع أخبار الآخرين من أبناء جاليتهم...! أو للتَشَفّي في بعضهم البعض... عندما تنزل بهم مشكلات ونوائب من أنواع مختلفة...!

إنه واحد من أساليب السلوك المخابراتي والتحرّياتي، الذي تعوَّدوا عليه في بلدهم السابق...،
البلد الذي كان رائداً على مستوى التخابر والتحرّي المعلوماتي عن أبنائه...!
ولا يبدو أنهم سيستطيعون التخلص من موروث عاشوه وعانوا منه لسنين طويلة....،
بل إنهم إعتادوا عليه وأصبحوا غير قادرين على العيش من دونه.... من يدري...؟

أما فرانك فإنه وصل لهذا البلد لاجئاً، حيث كان حسين قد سبقه للوصول لاجئاً أيضاً بما يزيد عن عشر سنوات، ومنذ وصوله وتعرّفه عليه فإن فرانك كثيراً ما إحتاج لنصيحة حسين، في كيفية التصرف في كثير من المجالات مع التعليمات الحكومية ومع الناس، كل الناس...،، حتى مع أبناء الجالية المهاجرين واللاجئين القادمين من نفس بلده، فقد أدرك فرانك بعد فترة وجيزة من وصوله لهذا البلد، أن أبناء الجالية

الذي جاؤوا من بلده، هم هنا غير ما هم عليه عندما كانوا يعيشون في بلدهم الأول، وأن تصرّفهم وسلوكهم هنا مع التعليمات والضوابط الحكومية بشكل خاص، ومع الآخرين من أبناء جاليتهم، ليس من السهل فهمه...، ويحتاج لمدة طويلة لكي يتضح للفرد.. مع مَن يمكنه أن يتعامل بانفتاح وتلقائية... وصدق!

ليس هذا بتعميم مقصود منه أنه ينطبق على الجميع، ولكنه بالتأكيد يَظهَر بوضوح، ويؤثر في الغالب على سلوك أولئك الذين عاشوا فترات طويلة في ظلّ نظام قمعي، فرض على الناس أن يعيشوا حياةً تغلب عليها السريَّة والتخفّي وعدم الحديث بشكل صريح منفتح، فالصراحة والإنفتاح، حتى بعد أن فارقوا بلد القمع الأول، ماتزالان على ما يبدو.. من غير الممكن تطبيقهما في حياة الكثيرين منهم، وليس في يدهم ما بإمكانهم تغييره... وهذا الأمر نفسه ربّما هنالك من يعتبره أمراً سلبياً.. وهناك من يعتبره إيجابياً، والكراهية التي يضمرها معظم هؤلاء للحكومة، هي أمر واضح على سلوكهم وليس من السهولة نكرانه، وربَّما لايمكن أن يُلاموا على كراهيتهم هذه للحكومات، خصوصاً في حالات البعض من أؤلئك الذين لايتمتعون حتى بمستوى تحصيل دراسي بسيط، فمثل أؤلئك يميلون دائماً لأن يكيلوا اللوم والإتهامات للحكومة، أيّ حكومة، مثل ما كانت حكومات بلدانهم مسؤولة عن أغلب السوء الذي يلحق بهم في حياتهم...،،

المهم أن الإختلاف في وجهات النظر موجود.. حتى في تحديد مسألة مثل هذه مما يتعلق بصفات الإنسان، إنه موجود في تحديد هذا الأمر،، ولا يجب أن ننسى أو ننكر أن هؤلاء الناس.. قد ورثوا كراهيّة الحكومات التي تعاقبت على حكمهم منذ عقود طويلة...،،

كما أنها ليست مبالغة عندما نقول أنهم كانوا يشعرون بها منذ قرون عديدة مرَّت عليهم عبر تأريخهم الطويل مع المعاناة، مع ما كان في

تلك القرون من أذىً وقمع، من سلاطين وحكّام تسلطوا على رقاب الناس، ولم يُبقوا لأنفسهم ذكراً حسناً...،،
وقد ورثت هذه الأجيال من أجدادها نبرات الحزن والكآبة والألم... التي تشعّ من الكلمات التي يستخدمونها، بل إنهم يعشقون إستخدامها..، في أشعارهم وغنائهم...، وحتى في أفراحهم....،،
والكثير مما يعبرون به عما بأنفسهم...،،
وليس من المبالغ القول بأن أجيالاً قد عاشت عمرها... ربما تخشى الفرح... وقد تعتبره مما تدفع الشياطين بني الإنسان للشعور به...!

وصل فرانك لموقع (البلازا) التي تقع فيها بقالة حسين، وبعد أن أوقف سيارته في موقف السيارات، نزل وتوجه إلى البقالة لكي يرى فيما إذا كان حسين موجوداً أم غير موجود، فرآه من خلال زجاج واجهة البقالة، وكان واقفاً عند ماكينة دفع الحساب وهو يحاسب البعض من الزبائن، وفتح فرانك باب البقالة ورآه حسين، وما كان من فرانك إلّا أن حياه بيده وبابتسامة، قائلاً:

- دقائق وسأكون معك، أنا ذاهب للمقهى لكي أشتري فطوراً، وسأعود،،

ردّ عليه حسين بإشارة من يده لتحيته،، مع كلمة OK....!

عاد فرانك بعد دقائق وهو يحمل قدحاً من الشاي مع قطعة من (المَفِن)، ودخل بقالة حسين، فبادره حسين بقوله بطريقة مزاح عراقية:

- إشجابَك علينا... إشرجَّعَك...، لا يكون ضيَّعِت دَربَك...،

ردّ عليه فرانك بما يشابه طريقة حسين بقوله:

- لقد عرفت أنك خالياً من العمل...،

فجئت لكي أشغلك بعض الشيئ لكي لا تشعر بالملل..!

أين يمكنك أن تذهب بعيداً عنا، نحن أبناء عمّك، وسنظلّ ورائك دوماً.....!

- صحيح.... لكنني لن أشعر بملل مادام أبناء عمومتك يشغلون العالم كله من حولهم... بضوضائهم ومشكلاتهم...!
- أكيد... وأنا أتوقع ذلك... وهل تعتقد أن الله قد خلقنا لغير المشاكل..؟!

أنا شخصياً متأكد أنه لو توقف جماعتنا عن التسبب بالمشاكل، سيكون ذلك يوماً يُذكر في التأريخ....،

ألا ترى ذلك صحيحاً..؟

- لا... لن يكون يوماً يذكره التأريخ.... فالأصح هو أنه لن يكون هنالك تأريخ بعده...! هل تعرف لماذا..؟
- لا... أنا طبعاً عند مجيئي إلى هنا... يكون ما أنويه دائماً هو أن أسمع منك يا (عمي) حسين... فقط....،،

أنا في السنوات التي مرَّت عليّ هنا كلها، مَدين لك في كل ما تعلمته فيها.. مدين لك ولما علّمتني إياه أنت وليس أحد غيرك، وهذه المعلومة التي ستقولها لي الآن... لابد أنها جديدة وستتفضل أيضاً بها عليّ..،،

أنت أستاذي في علم الحياة.. هنا، رغم كثرة أبناء عمومتي....، وأبناء وطني...،

وطني حبيبي، الوطن الأكبر..!

- نعم ستكون لك معلومة.... لن تحتاج لعلم بعدها....!
- ماهي هذه المعلومة لو تكرمت بها عليّ.. يا عزيزي يا أبا علي (الورد)...؟ لكي أعرفها وبعدها نستطيع أن نتحول لأمر آخر، فقد يرنّ جرس هاتفي ويطلبونني لتأجير السيارة، ولن أستطيع بعدها أن أبقى طويلا معك..،

- .... نعم صحيح...، ولكن عند ذلك وإذا ما جائك طلب من المكتب للعمل، سوف أطردك أنا بنفسي من هنا لكي تذهب لعملك..، بدلا من أن تُضَيّع وقتك فيما لا ينفع....، فأنت إنسان من (طينة) غير (طينة) هؤلاء الناس..، ولن يفوتك شيئ إذا ما فاتتك أخبارهم، أترك أخبارهم لي أنا الذي أبتليت بهم بسبب هذا المحل... وليس بمقدوري أن أتخلص من رؤية أشكالهم...، هل يعجبك أن نتبادل مواقع العمل...؟ كم كان بودي لو أن لدي حريتك وأنت تعمل بسيارتك هذه، وتشاهد من يبعثهم الله لك رزقاً، بدلاً من أن أقضي يومي هنا ويبعث لي الله من يخلقون لي المشكلات، أنا لا دخل لي بها....،
- لكنك يا (أبا علي)، لا يمكن أن تعني فعلاً أنك مستعد لتبديل وضعك الجيد هنا، لأنني أعرف أنه كان بإمكانك أن تبيع البقالة بسهولة ومنذ سنوات، وأنا أعرف أن الكثيرين من جماعتنا وأبناء عمومتنا، من يرغبون... بل يتمنون أن تتاح لهم فرصة شراء المحل، وأعرف أنهم يرصدون البقالة هذه بعيونهم دوماً...، من جميع النواحي...!
- ها أنت أراك اليوم تعرف أخباراً، ولست ممن هم:
"نائمون وأرجلهم بالشمس"....!
- .... ماهذا القول الغريب.. نائمون وأرجلهم بالشمس، هذه أول مرة أسمع بمثل هذا القول، من هم هؤلاء النائمون وأرجلهم بالشمس... بالله عليك.. عمي أبو علي.. ماذا يعني هذا القول، أنا أتوقع أنه من الأمثال العراقية القديمة..،
لكن بالله عليك... أبو علي... قل لي ماذا يعني؟
- فرانك..، يا فرانك.... يا (أبا كارول) ويا (زوج بريجيت)... أنت الآن وبسؤالك هذا لا يبدو عليك أنك من أرض وادي الرافدين، وأعتقد أنك فعلاً بدأت تستحق هذا الإسم "فرانك"...

"فرانك وبريجيت تزوجا وأنجبا كارول"، كيف يمكن للشخص القادم من أقدم حضارات الأرض، أن يتوقع من فرانك زوج بريجيت وأبو كارول الحلوة، أن يعرف مثلاً من الأمثال ربما يعود عمره لخمسة آلاف سنة... وربّما أكثر من ذلك...!

نعم يمكن أن يكون أكثر من ذلك، لأننا كلّ يوم نسمع عن خبر جديد ومعلومة جديدة وبحث جديد...، كلّ يوم يقولون لنا أن كلمات لهجتنا العراقية أصلها سومري، وأكدي، وبابلي، وأنها كلّها تعود لما يزيد على خمسة آلاف سنة وأكثر، ونحن لا نعرف الصدق من الكذب فيما تقوله هذه البحوث وهؤلاء الناس، فإذا كان هذا صادق وصحيح، يعني أننا نحن أغلبنا لنا عمق بالتأريخ يعود لأكثر من خمسة آلاف سنة، ولكن كل هذا ولم يقم أحد من هؤلاء الباحثين بإجراء بحث لمعرفة... لماذا نحن أبناء هذه الحضارة القديمة، من الصعب أن نجد بيننا من يحمل في داخل نفسه ذرة غيرة وحَمِيَّة، على بلد دمَّرَه أبناؤه بأيديهم ونهبوه قبل أن يُدمِّرَه أعداؤه...؟!

لماذا هذا البلد يكاد يكون خالياً إلّا من القليل النادر ممن يرأفون به وليس لديهم إستعداد لتخريبه....!

وأكل مال الناس المساكين فيه....؟

- عزيزي، (عيني)، (عمي أبو علي)... لقد أخذتني بعيداً، وأنا سألتك لحد الآن فقط عن هذا المثل الذي لازلت أرغب فعلاً بمعرفة معناه، وأمامي أسئلة عديدة كنت أنوي أن أسألها لك، ومازلت أتوقع أن التلفون سيرنّ قبل أن أعرف معنى هذا المثل....،،
- ..... أنا كنت على وشك أن أقول لك مَثَلٌ آخر قبل أن يأتي هذا المَثَلُ على لساني... وذلك المثل هو الذي له علاقة بما يحدث وسيحدث هنا، بسبب وصول أبناء عمومتنا وأقاربنا من أبناء

حضارات وادي الرافدين، وغيرهم من بلدان حضارات الشرق، التي يدّعي الإنتماء إليها اليوم الكثيرون ممن تقيأتهم الأرض من أبناء الشرق العريق، والمرتع الخصب للخرافات التي مازالت تسود بين أهله، هذه هي دول العالم القديم، دول عالم الخرافات والعقول المتحجرة، أؤلئك الذين يبدو أن الله قد خلقهم... وأعتقد أنه أعاد النظر فيهم بعد أن خلقهم...!

ولكن كان الوقت قد فات، ولهذا ترك الخلق وشؤونه بعد ذلك، ولم يعد له أيّ إهتمام بما يحدث في هذه الأرض...!

فأصبحت الأرض ملكاً مشاعاً للمجرمين والقتلة....،،

فهل تعرف لماذا....؟

- والله يا عزيزي (أبو علي) أنا جئت هنا لكي أسمع منك كل حكمة، أنا جئت هنا لكي أستمع فقط... ولن أكون مثل أبناء عمومتنا بمجرد أن يسمعوا شيئاً يبدأون بالجدل، ومن ثمّ يضعون ألف خطأ في كلّ ما يقال، وكأنهم هم فقط الذين يعلمون....،

أنا أمامك أسمع فقط ولن أفتح فمي معترضاً.....،

زدني من علومك.... يا (عماه)..!

- إسمع يا بُنَيّ العزيز فرانك،، إن المثل الذي كنت أريد أن أذكره لك في البداية وقبل أن أصل للمثل الذي يقول: "نائمون وأرجلهم بالشمس"، هو في الحقيقة ليس مثلاً من الأمثال التي يقولها الناس، وإنما هو قول إستوحيناه مما حولنا في أيام الشباب، أعني عندما كنت أصغر منك بسنوات، في تلك الأيام وفي بداية السبعينات في البلاد التي حكمها نبوخذنصر القرن العشرين...، كنا قد بدأنا نلاحظ الأحداث والمتغيرات من حولنا، ونتيجة لحالة الخوف والقمع التي كانت تحيط بنا، كنا نحن مجموعة من الشباب، ممن قد بدأوا يلاحظون التغيرات

التي بدأت تحدث في المجتمع، بين التوجهات السياسية والتي تتمثل بتوجه واحد ديكتاتوري أنت تعرفه، وبين توجه ديني بدأ يظهر لأول مرة في المجتمع، فشاعت بين الكثير من الناس وكالعادة إشاعات خرافية، كانت تقول: أنه بين ظهور هذه القوة الديكتاتورية الغاشمة التي تخيف الجميع، وبين أن يظهر هنا وهناك شباب متديّنون لا يخافون، على ما يبدو، من طغيان هذه القوة الديكتاتورية الغاشمة، رغم أنهم لا يمتلكون أي قوة تسندهم، فإن هذا كان يعني للبعض أنه من علامات ظهور "**صاحب الزمان**"...،، وبالمناسبة هل تعرف من هو صاحب الزمان...؟

- .. نعم عمي حسين، أعرفه، طبعاً أعرفه بالتأكيد، أنا لست جاهلاً جداً في هذا المجال، ولا تنسى أنني من أصول عريقة من مناطق أور سومر وبابل...!
- جيد...،، بل جيد جداً، ذلك لأنني كنت قد توقعت أنك عندما أصبحت فرانك..، فقد تكون نسيت نبوخذنصر الأصلي وحمورابي وأهلهم... الذين يجب أن تعرفهم أنت أكثر من غيرك... لأنك ربّما تعود في أصلك إلى سلالتهم...!

المهم، إن تسمية "صاحب الزمان" كانت رمزاً نستخدمه، كلّما نشاهد ظاهرة غريبة في المجتمع أو تصرف غريب من إنسان ما، أي إنسان، رجل كان أو إمرأة، كنا من شدّة ما بنا في داخلنا من قهر وألم، نحاول أن نخفف عن أنفسنا صدمة الظواهر المختلفة فيكون تعليقنا ممزوجاً بمسحة من المزحة، وهي أن هذه الظواهر الغريبة التي تحدث إنّما هي من علامات ظهور صاحب الزمان...!

نعم...، كنا نحاول أن نُخفّف من آلامنا بأسلوب المزاح الممزوج بالألم...، ونحن نرى سنوات عمرنا تأكلها السيول..،

سيول جارفة...،،
تلك السيول التي كانت تنحت فينا كما تنحت المياه في الصخر عبر السنين..، ومن هنا أعتقد أنه من الإنصاف القول بأن:
تلك السيول كان لها الفضل في صقل معادننا...،،
لا أعرف في الحقيقة...! لأن البعض يعتبر أن ذلك لم يكن صقلاً لمعادننا..، بل أنه كان سلخاً لجلودنا...، ومن هنا أصبحنا حسّاسين لأقل نسمة هواء تهب صوبنا..،،
ومنها كنا نقول أيضاً، أن صاحب الزمان يريد الظهور، ولذلك فإن هذه العلامات هي من علامات ظهوره...، وأنه إنما يُرسل هذه العلامات كإشارات تسبق ظهوره....!
ومنذ ذلك اليوم، وأنا كلما أشاهد شيئاً غريباً أقول عنه أنه.. من علامات ظهور صاحب الزمان، ومن يومها كانت لنا وعوداً أكثر من مئة مرّة مع ظهور صاحب الزمان، ولكن يبدو أن صاحب الزمان قد قرّر الإعتزال وعدم الظهور.. ولن يظهر، لا اليوم ولا بعد ألف عام...!
وهذه تشبه قرار الخالق من قبله، عندما قرّر أن يتخلى عن خلقه نتيجة لسوء أفعالهم... ومنها شاعت الفوضى بين الناس...!
لقد قرر أخيراً صاحب الزمان أن يمتنع عن الظهور، لأن أتباعه ومريديه لا يستحقون النجدة، ولذلك فقد أصبح من الضروري تغيير الخطّة والأسلوب في التعامل مع هؤلاء..!

هل عرفت الآن قصتي مع **صاحب الزمان**...؟
بقي لك يا عزيزي فرانك أن تعرف، أن المثل الذي يقول "نائمون وأرجلهم بالشمس"، إنما يعني شدّة الغفلة واللاوعي التي يعيشها الناس، فهم نائمون.. وسيبقون نائمين.. حتى لو

طلعت الشمس على أرجلهم...، فلن يكون ذلك كافياً لأن يصحوا من نومتهم وغفلتهم...،

ولكن من هم **النائمون وأرجلهم بالشمس**...؟

هذا ما سنعرفه ربّما كلنا بعد سنوات بسيطة.....!

- أنا كنت أتوقع أن أجدك بنفس مفتوحة.. عندما قرَّرت المرور عليك هنا للتحدث معك يا عزيزي يا أبا علي، لكنني أجدك لست على مايرام، ولا يمكن أن يخطر في بالي غير أن واحداً من أبناء عمومتنا أو أكثر من واحدٍ قد تسبّب لك بأزمة...،،
- نعم،، إن توقعَك صحيح تماماً، ألم أقل لك أن.. صاحب الزمان سيظهر..!

فكلنا بحاجة لظهوره..، ليس لكي ينقذنا من أعدائه وأعدائنا..، بل لكي ينقذنا من أتباعه..، فنحن نعرف أعدائه جيداً، ونعرف أنها معركة أزلية بينه وبينهم، وهو يستخدم ما لم نستطع لحد الآن فهمه من أسلوب، ما بين الظهور من خلال أحد أتباعه أو من يدّعي أنه من أتباعه مرّة، وبين أن يختفي تماماً لكي تنكشف عورَات من يدّعون أنهم أتباعه...،،

وفي هذا وذاك لا يوجد من يدفع الثمن غيرنا...،،

نحن أولاد الـ..... خائبة...،،!

إنه يحاول الظهور، لكن الأوضاع لا تعجبه، لأن من يتحدثون بإسمه قد جعلوا من ذكره سخريّة لدى العقلاء، حتى من يؤمنون به تخلّوا عنه عندما شاهدوا أمامهم هؤلاء الذين يدعون له، من سُرّاق ومنافقين وقَتَلة، من كل الأصناف...،،

لقد كنا في الماضي نحترم ذكر صاحب الزمان لأن من كانوا يتحدثون عنه لم تكن لدينا إعتراضات أخلاقية عليهم... أمّا اليوم.. فإن معظم من يتحدثون عنه إنما هم لصوص وقتلة... وأناس أبعد ما يكونون عن معرفة الأخلاق...!

وقد كنا في الماضي نخاف أن نتحدث عمّا بأنفسنا، أما اليوم فنحن هنا، وقد كسبنا الكثير في حياتنا، وأهم ما كسبناه هنا هو أننا نستطيع الآن التحدث بلا خوف...، هذا الخوف الذي قضينا أعمارنا نعاني منه...،،

هل تشعر بهذا الفرق يا فرانك.. أعني بين ما نحن هنا وعندما كنا هناك...؟

أنا متأكد أنك قد تخلّيت... أو يجب أن تتخلّى عن الخوف والرعب... الذي كنت تشعر به عندما جئت إلى هنا، لأنك إذا لم تتخلّ عنه...، فإنه ربّما سينتقل لاشعورياً لإبنتك، أنا أعرف أن زوجتك شجاعة وجريئة وستعيش هنا بكل مقدرة، المهم أنك أنت من يجب أن ينزع من نفسه الخوف وللأبد، وأن تتعود أن تقول ما بنفسك..، مثلما فعلت عندما غيَّرت إسمَك..، وكما كنت شجاعاً عندما غيَّرت أشياء أخرى أيضاً....،،

- نعم،، نعم بالتأكيد... لقد تخليت عن الكثير من الخوف..،،

الخوف الذي كان يعيش معي ويؤرقني ليلاً ونهاراً..،،

وأحاول قدر ما أستطيع أن أنسى ما قد مرّ عليّ من سنين هناك، في بلاد خليفة نبوخذنصر العظيم...!

أما مسألة شجاعتي في تغييري أشياءً أخرى، فأنا سأحتاج لوقت طويل لكي، أشرح حقيقة موقفي من كل الأشياء.....،،

- لن تستطيع أن تنسى شيئاً يا فلاح، حتى لو أنك تحولت فعلاً إلى فرانك..، إن الماضي يبقى معك... وستحتاجه مثلما تحتاج الحاضر لكي تحيا حياتك الجديدة..،

وبالمناسبة أنا أتذكر أنني قد سألتك مرّة، كيف ولماذا إخترت إسم فرانك، ولا أذكر أنك أجبتني على سؤالي...،،

هل أجبتني وربّما أنا قد نسيت جوابك...؟

- لا.. بل كنت على وشك أن أجيبك، ولا أذكر لماذا لم أكمل جوابي، كان ذلك يا أبا علي منذ سنوات، والقصة طويلة ولا أعرف إن كان لنا وقت لكي أحدثك بها، أنا أتمنى أن أعيد الحديث عنها، لأنها كانت بدايات شعوري بالإطمئنان، وأنا لحدّ هذا اليوم أشعر بالإستمتاع عند الحديث عنها...!

هنا يدخل للبقالة أربعة من المراهقين المتسكعين، الذين يبدو عليهم أنهم يريدون إضاعة الوقت وربّما يبحثون عن مشكلة...، وإنتشروا بين خطوط رفوف معروضات البقالة، وقد سكت حسين بمجرد دخولهم، كما أن فرانك نفسه توقف عن الحديث، وبدأ يحاول مراقبة ماذا ينوي هؤلاء الأربعة فعله...، كان حسين يتوقع منهم أن يسلبوا بعض المعروضات الصغيرة الحجم، مثل أكياس الحلويات الصغيرة، ولذلك فقد ظلّ يراقب تحركاتهم، ثم بعد قليل إقترب أحدهم نحو حسين وسأله، إن كان بإمكانه أن يشتري سيجارتين فقط... وكانت السجائر قد مُنع عرضها علناً في البقالات والمحلات الأخرى..، في حملة لمحاربة التدخين، وتَمّ إخفاءها داخل خزانة... غالباً ما تكون خلف المكان الذي يقف فيه الشخص الذي يقوم بمحاسبة الزبائن، وذلك من باب عدم إشاعة الإعلان عنها كما كانت الحال سابقاً، عندما كانت تعرض بشكل علني..،،

فأجابه حسين قائلاً له أنه: أولاً، لا يبيع السجائر أقلّ من علبة كاملة، وثانياً إنه يحتاج أن يكون عمره ثمانية عشر عاماً لكي يمكنه أن يشتري سجائر..، حاول المراهق أن يردَّ بجواب ولكن لم يسعفه عقله ولا لسانه، فإستدار وأشار لأصحابه بالخروج، وكان أحدهم قد سلب علبة من العلكة أو من الأقراص الحلوة ووضعها في جيبه، وهو في طريقه للخروج، فصاح به حسين أن يأتي ليدفع قيمتها، وهنا إستدار المراهق عائداً بإتجاه حسين، ليقول أنه آسف، لأنه نسي أن يدفع

قيمتها، وسأل كم سعرها، وعندما أخبره حسين بسعرها، عاد ليقول له أنه لم يكن يتصور أن سعرها مرتفع هكذا... وتركها عند ماكنة الدفع النقدي، ومشى بإتجاه الباب ملتحقاً بالثلاثة الآخرين الذين كانوا ينتظرونه خارج البقالة...،،

هنا إلتفت حسين صوب فرانك ليقول له:

- كنت أتمنى لأبناء عمومتنا الذين يحسدونني على عملي، أن يكونوا هنا هذه الساعة ليروا بأنفسهم، ماذا يدور خارج نطاق رؤيتهم..؟

هؤلاء المراهقون يخطون خطواتهم الأولى على بداية طريق الإنحراف والإجرام، ومن المؤسف أن الدولة هنا لا تتعامل معهم بما يستحقونه من إهتمام وصرامة، لكي لا تعطيهم فرصة أكبر أن يصبحوا مجرمين فيما بعد...!

- أبناء عمومتنا يبدوا أنهم قد نسوا الماضي، ولم يستطيعوا أن يعيشوا الحاضر، لقد أصبحوا مثل الغراب الذي...- أسعفني يا أبا علي-... ماذا يقول المثل في حالة مثل هذه...؟
- مثل الغراب.... ضَيَّع المِشيَتَين.....!

لنرجع لموضوعنا الذي قطعه أولائك المراهقون...،،

ماذا كنا نقول...؟

- تقصد لماذا أنني إخترت إسم فرانك... بدلاً من فلاح..؟

أنا مازلت رسمياً فلاح.. وفرانك ليس أكثر من محاولة للإلتصاق بهذا العالم الجديد الذي تَفضَّل علينا وتقبّلنا كبشر غرباء عنه لكي نعيش فيه بأمان....،

كنت أحاول من خلال هذا التغيير أن أتذكر دوماً أنني بحاجة إلى أن أنسلخ من ذلك العالم القديم...، عالم ديكتاتورية نبوخذنصر القرن العشرين...، ومن جاؤوا من بعده ممن يدّعون أنهم عقائديون من السُرّاق والقتلة على حد سواء..، في

التأريخ البعيد والحاضر أيضاً، كثيرون هم الذين أخذوا مواقع الديكتاتورية بالتوالي....،،

لكنني أيضاً يعجبني أن أتذكر كيف أنني كما ذكرت أنت قبل قليل، كنت شجاعاً عندما غيرت أشياء أخرى....!

أمّا لماذا إخترت إسم فرانك لنفسي، فأنا عندما علمت بأنني أستطيع أن أدّعي هنا بين الناس أن إسمي كذا،، أي إسم أختاره وأن أطلب من الناس أن يُسمّونني بهذا الإسم،، وأنني أستطيع حتى أن أبدّل إسمي رسمياً،، فقد وجدت أن في هذا الشيئ حرية لم نكن نحلم بها في بلدنا الأول،، عندما كان مثل هذا الشيئ يمكن أن يدخلك السجن، من باب أنك تدّعي شيئاً غير صحيح... فنحن كما تعلم نولد وتولد أشياء كثيرة معنا وأسماؤنا منها،، ولا حيلة لنا في تغيير هوية أي شيئ يولد معنا..!

ومرّة أخرى أنا أعرف أنك ستسأل لماذا فرانك بالذات....،

لقد كان إختياري لهذا الإسم... عندما سمعت من أحد الذين إلتقيت بهم في طريق خروجي من العراق،، أن إحدى النساء من بلدنا وممن يقيمون في إحدى دول اللجوء، كانت تتحدث مع أهلها في العراق تلفونياً...، وكان ذلك بعد أيام من وفاة مغني معروف كان إسمه فرانك....، ولا أعرف بقية إسمه،، وأن هذه المرأة أثناء حديثها مع والدتها قالت لها: هل سمعتي يا أمي عن فرانك.. المغني المعروف.. المسكين.. قد مات...،، عند ذلك وبعد أن سمعت منها أمها هذا الكلام، أغلقت سماعة التلفون بوجهها بعد أن شتمتها وشتمت المغني المسكين فعلاً،، رغم أنه لم يرتكب ذنباً يستحق عليه أن يُشتَم...، وقد أعجبتني تلك القصة التي لا أعرف إن كانت صحيحة أم أنها نكتة..، وعندما قررت أن أختار إسماً أجنبياً، كان هذا الإسم أمامي،

لأنني أعرف أنني سوف أتلقى الشتائم من أبناء عمومتنا حتى من دون ذنب....!

هل تعرف من هو هذا المغني يا أبا علي...؟

- نعم أعرفه... إنه فرانك سيناترا... واحد من أشهر المغنين في أميركا ربما منذ الأربعينات من القرن الماضي... إنه صاحب صوت رائع... وأنا الآن أعتقد أن إختيارك موفق جداً.. فأنت لم تختر إسماً لشخص عادي... بل إنه شخص سيظلّ معروفاً لأجيال قادمة...، وليس محدوداً بحدود جغرافية...، فنحن في العراق كان جيلنا الذي عاش في بغداد..، يعرف فرانك سيناترا عندما كنا نتمتع بحرية شخصية نسبية...، أو على الأقل في ما نحب أن نسمعه من أغاني وموسيقى... ولقد فقدنا ذلك سريعاً بعد أن توالت علينا كوابيس ووقائع لم تكن لنا بالحسبان...!

*****

علي إبن حسين.... وزواجه

وبينما يدور الحديث عن الماضي بين فرانك وحسين، تدخل للبقالة إمرأة يبدو عليها أنها قد تجاوزت منتصف الخمسين من العمر، وسارت بهمّة باتجاه حسين...،
كانت ترتدي ملابس إمرأة محجَّبة، وكان معها رجل بصحبتها ويسير معها عندما كانا خارج البقالة...، لكنه دخل إلى البقالة بعدها بقليل، وبتثاقل واضح، وليس كما دخلت هي بهمَّة ونشاط...،
ثم بادرت المرأة وبابتسامة عريضة بتحيّة حسين بقولها:

- السلام عليكم أخي أبو علي، كيف حالك وحال أم علي والأولاد والأحفاد، ماشاء الله أنتم الآن أصبح عددكم كبيراً، ويصعب أن نتذكر أسماء الصغار من الأحفاد....!

ثم تابع الرجل الذي دخل بعدها بتحيّة حسين عن بعد وبطريقة جافّة، وليس فيها شيئ من المجاملة، وفيها وضوح بالإكتفاء بسلام بسيط بقوله:

- السلام عليكم..، كيف حالك أبو علي، إن شاء الله بخير...،

فأجاب حسين كليهما بنفس الجواب... وبطريقة تبدو المجاملة الجافّة أيضاً واضحة عليها، قائلاً:

- أهلاً بكما.. نحن بخير إن شاء الله.. وأنتما كيف حالكما...؟

أجابته المرأة وكأنها قد تهيأت وحفظت الكلمات مسبقاً...،،

وقد بدا عليها واضحاً أن لديها الكثير الذي تريد أن تتكلم عنه...،،

لو إتسع لها الوقت.. فكان جوابها له:

- نحن بخير..، بخير..، وأنا حقيقة قرّرت أن نمرَّ من هنا لكي نسلّم عليك،، وليس فقط لكي أشتري الحليب الذي تعوَّدت أن أشتريه منك...، ولكن أيضاً لكي أهنئك على تزويجك إبنك علي... الله يحفظه...،
- زواج إبني علي....،، والله أنا ليس لدي علم أنه سيتزوج...، حتى أنه لم يدعني لحفلة زواجه..، صحيح أنه ولد غريب..!

أو من يدري... ربّما لن تكون هنالك حفلة زواج.....،

أنا لا أعلم....!

في هذه السنين الشباب يتصرفون بشكل غريب في معظم الأحيان..، وكثيرون منهم يتزوجون بدون أن يحتفلوا.....!

- كيف هذا...! الناس كلهم يتكلمون عن أنه...

علي سيتزوج..، علي سيتزوج،،

من أين جاؤوا إذاً بهذا الكلام....؟

صحيح أن ذلك غريب... فعلاً إن أمر الناس عجيب...!

- والله أنا لا أعلم..، ولم أعلم أن إبني علي قد أصبح مشهوراً مثل الذين يغنون أغاني (الراپ)..،، وأنا لم يسبق لي أن رأيته أبداً يغني أو يرقص في يوم من الأيام....،،

فهو كئيب معظم الوقت....، وقد ورث الكآبة من أبيه..!

- لا.. لا، أخي أبو علي... الله يحفظ علي لك ولأمّه..، الكل هنا يمدح علي وأخلاقه..، وأنا عندما سمعت عن خبر زواجه،

قلت في نفسي والله يجب أن أعرف من هي سعيدة الحظ التي ستتزوج علي..؟
لكن أخيراً يظهر أن الخبر غير صحيح..، وعلى كل حال إذا كنت تريد تزويجه، فأنا أعرف بنات كثيرات من عوائل محترمة..!

- هل أنت متأكدة من أن زواجه هو خبر سمعتيه من الناس..؟
أو ربما أنه..، قد يكون..، أعني أنه أمنية تتمنينها لإبني علي..، وأنا أشكرك على هذه الأمنية.. ولكنني فقط أريد أن أقول لك، أنه عندما يرغب علي في الزواج من أي بنت، لن يكون لي دور أو حق في منعه من الزواج منها، كما أنني لن أعرض عليه بنت للزواج، حتى لو كانت إبنة أخي أو أعز الناس لدي....،،

كان فرانك يراقب ويستمع للحديث الدائر بين حسين وبين هذه المرأة، أما زوجها فقد أشغل نفسه بالتمشي في أرجاء البقالة، مُبعداً نفسه عمّا يدور من حديث، ويبدو عليه أنه لم يكن مقتنعاً من الأساس بالمجيئ مع زوجته لبقالة حسين، ولكن زوجته تبدو من النوع المتسلط، واللواتي يحاول الأزواج تجنب المشكلة معهن، عن طريق السكوت أو التجاوب مع رغباتهن وفضولهن وتدخلهن في حياة الآخرين..!

وتَدخّل فرانك للتحدث مع حسين، محاولاً أن يقلّل من تضايقه الواضح من الحديث مع هذه المرأة، التي جائته بموضوع لم يكن يخطر في باله، فقال موجّهاً كلامه إلى حسين:

- صحيح... لقد تذكرت أني كنت أنوي أن أسألك عن علي، لأعرف كيف كانت زيارته للعراق...؟

وبمجرد أن إنتهى فرانك من جملته الأخيرة، تدخلت المرأة مرّة أخرى وبسرعة لتقول:

- ماشاء الله، علي كان في العراق، كم بقي هناك...؟

أجاب حسين جواباً مقتضباً وبتثاقل وضجر، موجهاً كلامه إلى فرانك:

- نعم كان هناك...، ولم أفهم الكثير مما شاهده هناك... فقد عاد وهو في حال كأنه كان في رحلة لعالم آخر.. لا أعرف شكله..،

عادت المرأة لتغيّر الموضوع، باحثة عن محاولة جديدة لفتح موضوع جديد، بعد أن لاحظت أن حسين لم يكن مستعداً لمبادلتها حديثاً فارغاً من أي محتوى مفيد، فقالت هذه المرّة موجهة كلامها لفرانك:

- يا أخي..،، أنا قد رأيتك من قبل..،،
لكنني لا أتذكر الآن أين رأيتك، وأعرف أنك عراقي....،

فأجابها فرانك بسرعة:

- نعم أنا عراقي....، إن شكلي يقول هكذا بوضوح.....،،
- وما إسمك الكريم...، أنا إسمي أم محمد.... وزوجي أبو محمد...!

وإلتفتت لكي تشير بيدها لزوجها الذي كان على بعد خطوات منهم، ولكنه يسمع كل شيئ، وقد رفع يده من دون تحمّس لتحيتهم مرة أخرى...

حاول فرانك أن يتفادى إجابتها عن إسمه، لأنه شعر بأنها ستدخله في إستجواب جديد بعد أن تعرف غرابة إسمه، فرانك..، لكنه تذكّر نصيحة صديقه حسين قبل دقائق... بأن يكون شجاعاً أمام الجميع في خياراته، لذلك أجابها بقوله:

- أنا فرانك، إسمي فرانك...، وأنا من جنوب العراق، إسم غريب...، أليس كذلك؟

خصوصاً عندما يكون من جنوب العراق...،،

- لا.. ((عيني))... لا.. لماذا إسم غريب؟ نحن هنا تعوَّدنا أن نرى كل الأشياء، لم نعد نعتبر أي شيئ غريب، والشيئ الآخر هو أنني أعرفك..، عرفتك الآن من إسمك..، ألست أنت زوج (بَرجِت)...؟ (بَرجِت) التي تشتغل ممرضة في المستشفى....،،

سارع فرانك بالرد بقوة ممزوجة بضحكة إستخفاف...، محاولاً أن يصحّح لها إسم زوجته فقال لها:

- إسمها "بريجيت" يا أم محمد، زوجتي إسمها بريجيت، وهي مساعدة ممرضة وليست ممرضة.....،،

ثم إلتفت باتجاه حسين ليكمل كلامه ويقول له:

- ألا ترى يا عزيزي كم هو مهم الإسم المُمَيَّز...، إنه يجعلك معروفاً بين الملايين.....،،

فأجابه حسين بإيماءة من رأسه مؤيداً له، ومبدياً ضيقه الواضح من كلّ ما تتحدث به هذه المرأة.. أم محمد..!

أما هي فقد سارعت لتجيب فرانك على خطأها في نطق إسم زوجته، فقالت له بسرعة وكأنها تتسابق مع الكلمات:

- نعم.. نعم صحيح، أنا كما تعلم لغتي الإنكليزية على قدر إمكانيتي، أولادي دائماً ينبّهونني لهذا الأمر، أعتقد أنني سأحتاج أن أسجل في مدرسة لتعلم اللغة، أنا (والحاج) أبو محمد....!

ونظرت لزوجها الذي كان يبدو عليه عدم الإرتياح، وقد تأكد أن زوجته أصبحت ثقيلة جداً على المكان، فأشار لها بدون أن يتكلم بأن عليها إنهاء الكلام للخروج... فأجابته:

- نعم.. نعم، لكنني يجب أن أشتري ما قد جئت من أجل أن أشتريه...، والله لقد نسيت ما كان في فكري...،،

ردّ عليها حسين بسرعة... قائلاً:

- يا أم محمد، أنت جئت هنا أصلاً لكي تُسلّمي علي وتهنئيني لمناسبة زواج علي..، وبعدها تأخذين الحليب، الذي يعجبك أن تشتريه من بقالتنا..، لكنني لا أعرف.. هل من المعقول أن يكفيكم لتر واحد من الحليب لأكثر من أسبوعين، لأنني لم أشاهدك هنا منذ أكثر من ثلاثة أسابيع...!

فأجابته مع ضحكة تدلّ على أنها شعرت بأنه يسخر من كلامها، ويُكذّبها لادّعائها بأنها جاءت لكي تشتري الحليب، فقالت:

- ماشاء الله عليك، أبو علي، حاسب كل شيئ...، بالأيام والأسابيع، أنا حقيقة في بعض الأحيان أتكاسل وأشتري الحليب من محلات أخرى، لأن بقالتك بعيدة عن بيتنا، وأنت تعرف ذلك....،،
- والله يا أم محمد...، أنا لا أعرف أين يقع بيتكم...؟
ولا أعرف إذا كنتم قريبين من هنا أم بعيدين...؟

هنا سمع فرانك رنين تلفونه، فأخرج التلفون من جيبه، وكان على الخط مكتب التأجير الذي يحيل له طلبات التأجير لسيارته، فمشى خطوات داخل البقالة، وتكلم قليلاً ثم أغلق التلفون، وقال موجهاً كلامه إلى حسين وإلتفت أيضاً من باب المجاملة نحو أم محمد قائلاً:

- أبو علي...، مرة أخرى لم نكمل كلّ كلامنا، لكنني سأرجع لك على الأغلب اليوم بالليل، إذا ما سنحت لي الفرصة، أو ربما غداً....، الآن علي أن أذهب لعنوان يطلب سيارة للمطار،

فأجابه حسين بقوله:

- لا تهتم للكلام، هنالك وقت طويل للكلام، أما الآن فاذهب لتحصيل رزقك، وإتصل بي قبل أن تأتي لتعرف إذا كنت موجوداً هنا، إذهب الآن...،، والله يحفظك...،،

ظلّت المرأة، أم محمد، خلال حديث حسين مع فرانك، تنصت باهتمام وكأنها تحاول إلتقاط كل أحرف الكلمات، وكانت تبتسم إبتسامة خفيفة مشوبة بالخبث والتملق والنفاق الواضح، لقد كانت مثالاً للخبث وللفضول الزائد عن حدود التصور...!

وأخيراً خرجت المرأة مع زوجها، بعد أن إضطّرت أن تشتري قنينة من الحليب، والتي كان بإمكانها أن تشتريها من أي بقالة أو محل كبير، وبقي حسين لوحده في البقالة، يُراجع ما قد دار أمامه من سلوك هذه المرأة، التي بالرغم من أنها تتردد على بقالته بين الفترة والأخرى، إلّا أنه لا يعرف عنها غير إسمها غير الحقيقي، ولا يعرف عن زوجها أيضاً إلّا ما قد سمعه يتردد بين أبناء الجالية... وهو قليل ولا يعني له شيئاً كثيراً...،، لكن الصبغة العامة التي تشيع عنهما أنهما من المئات وربما الآلاف، ممن ينتهزون الفرص للإستفادة المادية من هذا البلد الذي آواهم... ربما نتيجة الطرق الخاطئة في حسابات الدول... والتي تحدّد مَن يستحق أن يُمنح صفة لاجئ ومن لا يستحق... وبين الإثنين فرق كبير... فمنح هذه الصفة لمن لا يستحقها... تعني إستمرار مسيرة الحياة بالإتجاه الخطأ.. وإنعدام الإنصاف للحقوق.. أما حجبها عمن يستحقّها، فذلك يعني الدفع باتجاه إنهاء آمال إنسان قد يكون في مساعدته عون كبير للحقوق وللإنسانية...،،

*****

حسين وحديث مع النفس

لقد إعتاد حسين على الكثير من المواقف التي تشبه ما حدث معه اليوم في بقالته... التي عمل فيها لمدة تزيد عن عشرين عاماً...،، لكن ثمة شيئ يميز ما حدث اليوم عن باقي الأيام السابقة...، شيئ لا يعرفه ولم يسبق له أن شعر به...، شيئ يوحي له بأن الأيام القادمة لن تكون مثل الأيام التي مرّت عليه منذ أن وصل لهذا البلد...، ومنذ أن شعر في أيامه الأولى بأنه قد بلغ الموقع، الذي يستطيع فيه أن يأمن على أبنائه وزوجته من كل عوادي الزمن والإنسان، إلّا نفسه التي لم يستطع أن يشعر يوماً بأنه سيأمن على نفسه من الزمن، ومن الإنسان...،، بل إنه لم يشعر يوماً أنه سيمكنه أن يأمن على نفسه... حتى من نفسه...!

ثم عاد ليسترجع ما حدث معه اليوم، مع هذه المرأة المزعجة الصفات والسلوك...، وذهب في حديث مع نفسه....،،

كيف يمكن لإنسان أن يحاول إستغفال الآخرين، بهذه الطريقة البليدة وثقل الدم هذا....؟ مثل ما فعلته هذه المرأة..!
أمّا أمرُ زوجها، فقد كان أغرب من نواحي أخرى...،

فزوجها لا يعجبه اللقاء والتعامل مع حسين كما يبدو واضحاً...،
وحسين يعرف ذلك مسبقاً، ذلك لأن حسين رجل صاحب مواقف واضحة وصريحة من كل الأمور، وهو بهذه الصفات لم يُعجِب هذا الرجل... الذي هو واحد من كثيرين غيره ممن لا يستطيعون العيش في محيط واضح المعالم..، محيط يكشف الضوء تفاصيله، حتى فيما يتعلق بإسمه وإسم زوجته، هذه المرأة التي سمَّت نفسها (أم محمد) وسمَّت زوجها (أبو محمد)، وكأنهما مسجَّلان في الوثائق الحكومية الرسمية بهذين الإسمين، فهذه هي الصيغة التي إعتاد الناس من أمثال هؤلاء إستخدامها، لكي يسبغوا على أنفسهم مسحة من الإحترام المزيف في معظم الحالات..، وهما لايزالان يعيشان هذه الحالة التي كانا عليها في وطنهما الأول، ولم يتغيرا عن ذلك، غير أنهما أصبحا الآن يتمتعان بحرية في الحركة والكلام..، والتنقل بين الناس، ولم يعد هنالك ما يجعلهما يشعران بالضجر أو الخوف، فالحركة بين الناس والتحدث عن شؤونهم الخاصة، ونقل الكلام من هنا إلى هناك، كلّ هذه أمور فيها الكثير من المتعة لأمثال هؤلاء الناس...!

لقد كان أبو محمد هذا في بداية وصوله إلى بلد اللجوء هو وزوجته وأبناؤه، لا يعرفون شيئاً إطلاقاً عن العالم الغربي، ولم تكن لديهم أبسط قدرة على تمشية أمورهم لوحدهم وبدون مساعدة الآخرين، ولم يكن بإمكانهم التعاطي مع مجتمع غربي بقِيَمه وأخلاقياته الغريبة بأكملها عنهم، وكانوا بحاجة لبذل الكثير من الجهد لمعرفة مواصفات المجتمع الجديد، والأكثر من هذا مواصفات النظام الإداري للحكومة، وما يمكنهما معرفته من نقاط إعتبراها من نقاط الضعف التي يمكن إستغلالها لصالحهما....،،
ولِمَ لا يستغلان هذه النقاط لصالحهما...؟

أليس هذا البلد الذي يأويهما وعائلتهما الآن، وحسب رأيهما وتقديرهما، كان مشتركاً بشكل أو بآخر في تدمير بلدهما الأول....؟
فلماذا لا يحق لهما أن يأخذا حقوقهما بأيديهما من هذا البلد....؟
فهما يؤمنان بأن لهما الحق في أن يأخذا ما يعتبرانه من حقوقهما الشرعية بأي شكل ممكن، حتى لو تطلب الأمر الإحتيال، والسرقة والكذب على السلطات...!
ألم يحتالا لغرض الحصول على حق اللجوء....!
إنهما يعتبران أي كذبة وبأي صورة وشكل، هي حق مشروع لهما...!
ألم يقوما بإبلاغ المسؤولين الإجتماعيين بأنهما منفصلان عن بعضهما، لكي يتم منحهما منزلين منفصلين، يسكن كلّ واحد منهما في منزل مع بعض أبنائه...، ويقوم في الوقت نفسه بتأجير الغرف الفارغة أو القبو السفلي للمنزل....!
والحق يجب أن يقال..، إن مسألة الإحتيال على الدولة المضيفة لهما، لم يبتدعها أبو محمد وأم محمد، بل قد أشار بها عليهما أناس آخرون...،،
أناس كانوا قد قاموا بها وأفلحوا بتطبيقها... وإستطاعوا الإستفادة منها مادياً قبلهم بسنين...! وأصبحت من الأمور التي إعتاد الناس السماع عنها..، وعدم إبداء الإستغراب أو الإمتعاض لسماعها..، إذ أنهم يعتبرونها شيئاً عادياً ويحدث دائماً....!

إن هذا الرجل يُصِرّ على أن يبدوا أمام أبناء جاليته، بأنه رجل ملتزم دينياً، ويقيم علاقاته مع الآخرين على أساس وشرط إيمانهم الديني بنفس ما يؤمن به، ومن هنا تأتي عدم رغبته في الإلتقاء مع حسين، ومع مَن لهم نفس صفات حسين ونفس مواقفه، هذا الرجل لا يتأخر لحظة في إستغلال أي فرصة تتيح له كسب ما يمكنه كسبه من أموال، ولن يهتم أن تكون هذه الأموال حلالاً أو حراماً، وبأي مقياس من المقاييس، فهو له مقاييسه التي يعتمد عليها ويعمل بها ووفقها....،،

وربما لديه حجته الشرعية في تطبيقه لها...،،
من يدري.....؟
فهنالك من يعتبرون هذه الأموال التي يسرقونها من الدولة هي حلال شرعي لهم حتى من وجهة النظر الدينية..، وأن الكثيرين من مرشديهم الدينيين من يفتون لهم بذلك..، إنهم يعتبرونها أموالاً لا يعرف أحد مَن هو الذي يمتلكها فعلياً ومَن له الحق بالتصرف فيها..؟ ومن هنا كانت سرقة أمثال أبو محمد وأم محمد لبلدهم، عندما بدأوا يعودون لزيارته لفترات وجيزة في مهمات لنهب ما يستطيعون مما فيه من أموال سائبة، ومن دون أن يعترض عليهم لا الوعّاض ولا مراجعهم الشرعيون...، فكانت حالة من النهب المكشوف الذي لم يخجل من القيام به هؤلاء الذين يدّعون حُسن الأخلاق والإلتزام الديني...!

لم يخجل هذا الرجل أن يدخل إلى بقالة حسين، وأن يقف لمدة طويلة منتظراً أن تنتهي زوجته من إشباع رغبتها بسماع أخبار الناس، والكذب كذباً مكشوفاً لكي تُبرّر تصرفاتها وحديثها، عن أمور لا تخصّها... لا من قريب ولا من بعيد...،

إن حسين يعرف جيداً أن أم محمد هذه، تتسوق من محلات (Costco) والتي تقدّم بضاعة جيدة بأسعار ليس من السهل منافستها، ولذا فهي لا تقول الحقيقة عندما تقول أنها تحب أن تشتري الحليب من بقالة حسين!
ولماذا بقالة حسين بالذات...؟
ولذلك كان جواب حسين على كلامها وبطريقة سخريته المعتادة والواضحة، عندما قال لها أنه يستغرب كيف يمكن أن تكفيهم قنينة واحدة من الحليب، لمدة تزيد على أسبوعين!

هذه واحدة من المشاهد التي يعيشها ويتعرض لها حسين ربّما يومياً، من قبل أفراد مختلفين من أبناء الجاليات المهاجرة، والذين في كثير من الأحيان... قد يشعر البعض منهم بأشبه ما يكون وكأنه يمتلك حصة في محل مثل بقالة حسين...، ولذا فإن البعض من أبناء الجاليات في بلدان المهجر، قد يتصورون أن صاحب البقالة، وفي هذه الحالة هو هذا المسكين حسين، عليه أن يراعيهم مراعاة خاصّة عندما يأتون إلى بقالته...، إنه شعور غريب ربما يصعب فهمه أو تفسيره..، حتى من قبل طبيب نفساني! فالكثير منهم لا يشتري من بقالته أكثر مما قيمته بضعة دولارات في الشهر، ولكنه يعتقد أنه لو لم يفعل ذلك، فإن حسين سوف يُعلن إفلاسه ويضطر إلى أن يغلق البقالة....!

ثم عاد حسين بتفكيره إلى ما في داخل نفسه وما حدث في ماضيه، وكيف جاء مهاجراً لاجئاً لهذا البلد الذي أحبه.. وشعر بأن له فضل كبير عليه، فقد شعر بالإطمئنان منذ أول يوم وصل إليه، رغم أنه كان شتاءً قارص البرد..، كان برداً لم يشهد مثله من قبل في حياته، كان يوماً من أيام كانون الثاني، أول أشهر السنة، عندما كانت درجة الحرارة حوالي 15 درجة تحت الصفر، وكان الموظفون في مكتب الهجرة في بلد العبور قد أخبروه عن حالة الجو التي سيراها، ونصحوه أن يلبس ملابس ثقيلة هو وزوجته وأبناءه....،،

كانت زوجته زينب وإبنتاه ليلى وسعاد وإبنه علي معه، كانت ليلى بعمر إثنتا عشر سنة، وسعاد بعمر تسع سنوات، أما علي فقد كان عمره خمس سنوات، وقد تعلم أبناؤه الثلاثة في مدارس بلدهم الجديد، وكان علي أكثر مَن إستفاد من تعليمه هنا، لأنه بدأه منذ المرحلة الأولى، وتعلم اللغة بأفضل صورة، وتمكن من أن يختلط بالمجتمع وينسجم تماماً ويحسن التعامل مع الناس، أما ليلى وسعاد، فقد

إستطاعتا أن تحصلا على تعليم جيد أيضاً، وهما الآن متزوجتان ولهما عائلتاهما ويعيشان حياتهما المستقلة عن أبيهما...،،

لطالما حاول حسين أن يتعرف على ما يمكن أن يصف به نفسه؟
هل كان من صنف المهاجر العارف والمُقرُّ بالجميل الذي منحه إياه بلد المهجر هذا، أم أنه كان من صنف المهاجر الناكر لهذا الجميل...؟
لكنه لا يمكن أن ينسى أن شعاره والمبدأ الذي سار عليه، وتأكد من أن عائلته تسير عليه أيضاً، هو نفس المبدأ المبني على المَثَل الذي كان يسمعه من أبيه وأعمامه وكبار أفراد عائلته، منذ أن كان صغيراً، ذلك المثل الحكيم الرائع الذي يقول:

"يا غريب... كن أديب ....."

لقد كان حسين ومايزال، يقضي فترات طويلة من يومه يستعيد ذكرياته في بلده الأول، وكيف كانت تلك الأيام التي عاشها هناك...،
تلك الأيام التي لم تكن مريحة أبداً، بل كانت مملوءة بالمعاناة والمكابدة والخوف والرعب....،،
وكان دائماً يتسائل بينه وبين نفسه، عن الكثير مما يحيط بعلاقته بتلك الأيام...،،
ماذا يحبه ويعجبه فيها عندما يتذكرها...؟
إنه إحساس غريب...،،
هل هذا هو ما يسمونه الرغبة في إيذاء النفس...؟
وهل هي فعلاً صفة ملازمة للناس الذين هم من بلدنا..؟
نعم من بلدنا،، وهم الذين لم يعرفوا عبر التأريخ الطويل معنى للحياة الآمنة وللعيش بسلام...،،
إنه لا يعلم لماذا وكيف كانوا يسمونها "دار السلام"....؟

لكن حسين يعرف من خلال إطلاعه وإهتمامه بالتأريخ، أن أجداده الذين يتوغلون لآلاف السنين في عمق تأريخ بلده الأول، أو هكذا كما يعتقد هو ويؤمن...!
أجداده أولئك قد هاجروا، ثم هاجروا، كثيراً وعلى مرّ العصور، وكانواعلى الدوام في ترحال لأسباب لم نعرف معظمها معرفة حقيقية، لم نعرفها لأن من أمروا بكتابة التأريخ، قد أرادوه أن يُكتب كما كان يحلو لهم..، وكما أملته عليهم رغباتهم ومصالحهم...، فأوعزوا لمن يستطيع ويجيد صنعة الكتابة بأن يقوم بها...، ومازال ذلك يحدث ليومنا هذا...، رغم التوثيق للواقع ولما يحصل، بواسطة ومن قبل الناس أنفسهم..، فقد أصبح الناس العاديون يشاركون في توثيق الواقع يومياً،، لكنه تبقى هنالك الكثير من الزوايا مما لا يستطيع الإنسان العادي الولوج إليها لمعرفتها...،،

ورغم أن التأريخ يقول دائماً أن بلاد الرافدين كانت من أغنى بلاد العالم، مما جعلها موطناً لحضارة ربما هي أقدم حضارات الإنسانية والتأريخ...،، ربما...،
إلا أن ذلك لم يمنع النبي إبراهيم من أن يهاجر منها، بإتجاه أرض أخرى بعيدة عن موطنه، هي أرض كنعان،، وإختلفت الروايات هنا أيضاً ودخلت فيها كثير من الأمور، التي مازلنا نعيش ظلم وآلام وبؤس نتائجها..،، إلى يومنا هذا...، ولا يبدو أن النتائج لهجرة النبي إبراهيم تلك ستنتهي ومعها آثارها السلبية.. إلّا مع نهاية إنسان هذه المنطقة...، أو حلول كارثة تحيل الجميع إلى ما يُنسيهم ما قد سبق من كوارث...!

لقد هاجر النبي إبراهيم من أرض بلاد الرافدين، وهذا ما تقوله الأخبار من عمق التأريخ، رغم أن هجرته لم تسجل في صفحات التأريخ من

قِبَل أي قوم من أقوام ذلك الزمن، ممن كانوا يسجلون الأحداث الكبيرة، ذلك لأنه كان رجلاً عادياً بسيطاً، والتأريخ المسجَّل لا يحفل إلّا بمن كان زعيماً متسلطاً... أو من كان له أثر على عقول الناس ومسيرتهم،، ومن ثم، يبدو أنه نتيجة للحاجة والفقر في موطنه الجديد، قد عاد ليهاجر من جديد هذه المرّة إلى بلاد فرعون..، والتأريخ يأخذنا بعيداً، ويضيع بنا...، ونضيع معه وبين صفحاته المظلمة....،،

ولكن... لماذا يهاجر إبراهيم من أرض كنعان التي قد هاجر إليها بنفسه وبرغبته..؟

فكما يقول لنا التأريخ، أنه كان سعيداً في البداية في موطن هجرته الأول..،، كان سعيداً بما كانت تدرّ عليه أرض كنعان من خيرات....،،

إلا أنه سرعان ما قرر الهجرة إلى بلاد فرعون...،،

بالرغم من أن الأخبار نفسها كانت تقول أن فرعون، أو ذلك الملك الذي كان يحكم مصر، كان ظالماً وقاسياً...،، وكانت كثير من الأخبار التي ترد عنه، ممّا لا تدع مجالاً لمن يحسب حساباً للطغاة ويتجنبهم.. أن يفكر بالهجرة لبلادهم..،،

لكن النبي إبراهيم أصرّ على الهجرة على ما يبدو..،،

ولم يخَف من الطغيان والجبروت.. ولا مما يمكن أن يُصيبه من سوء من فرعون هذا...!

وبالفعل لم يُصِب إبراهيمَ سوء... ولا أصاب السوء أياً من أتباعه....،،

بل على العكس إنهم عادوا من بلاد فرعون بخير كثير....!

فهل كان إبراهيم في قراره الهجرة، غير آبه ولا مهتم لما يمكن أن يحدث له... من أذىً على يد هذا الملك الظالم..، أم أنه كان يعرف النتيجة سلفاً...،

أم أن القصة فيها شيئ مفقود...؟

ثم يعود التأريخ مرة أخرى ليعيد نفسه...،،

فيهاجر الجيل الأول القريب من أحفاد النبي إبراهيم إلى بلاد فرعون مرة أخرى..،، ويبدو أنها هذه المرّة كانت بسبب قحط وجوع وجدب شديد...،، فأصابوا خيراً في بلاد فرعون مرة أخرى، ثم قرروا البقاء في بلاد فرعون، ونسوا موطن جدّهم إبراهيم، الذي هاجر إليه بعنوان أنها أرض قد وُعِدَ بها...!

تُرى، هل كان أحفاد إبراهيم ليبقوا في بلاد فرعون، لو أنهم لم يُصيبوا فيها خيراً ونعمة أنستهم سوء حالهم وبؤسهم.....؟
وهل كانت بلاد فرعون في ذلك الزمان.. مثل بلاد الغرب في عصرنا هذا...؟
بلاد فيها خير، وتتسع لكل من يأتي إليها حاملاً نواياه الحسنة....،،
هل كانت مثل أميريكا وكندا وبريطانيا والسويد وغيرها من بلاد المهجر الغنية اليوم..؟

ألَم تُحدّثنا قصة يوسف عندما إرتفعت مكانته في بلد المهجر، وبلغت به القدرة والسلطة مبلغاً...، كيف أنه كان يقوم بنفسه على توزيع الطعام على الناس، في فترة القحط والجوع والفقر الذي أصابهم...،،
ألم يكن ذلك الطعام مما كانت تنتجه بلاد فرعون.. بلاد وادي النيل اليوم.....؟
هل يعرف العالم اليوم.... كم كانت عظيمة بلاد وادي النيل...؟
ثم بعد ذلك بأجيال عديدة يترك أحفاد إبراهيم بلاد فرعون مرة أخرى،، ليعودوا للبحث عن أرض ميعادهم...!
وكانوا جميعهم في حالة من اليأس والقهر عظيمة، وكان كثيرون منهم في الغالب يلعنون فرعون...،،
كما كان منهم على ما يبدو من القصة نفسها.. مَنْ هو غير مُحبٍّ للهجرة من بلاد فرعون...!!

ربما لأسباب أخرى لا نعرفها...،،
لكن..... كم من الناس اليوم يدركون هذه الحقيقة...؟
ولكن... مع ذلك فإن الأخبار كلّها تقول... أن فرعون كان ظالماً لأهل بلده....،، رغم أنها لا تقول لنا كيف كان ذلك...؟
ويبدو أنها كانت بداية القصد والتعمّد، في إشاعة ونشر الخبر عن فرعون وعن ظلمه... صحيحاً كان أم كاذباً...،،
وهكذا إستمر العالم كله بعد ذلك اليوم، يذكر فرعون بأنه ظالم وجبّار ومعتدٍ وسيئ الخُلق....!

يا إلهي... لاشكّ أن الإعلام كان قوياً منذ زمن بعيد...،،
منذ ذلك الزمن..!
كما أن الناس كانوا يعتمدون الإشاعات وينشرونها منذ ذلك الوقت..،
حتى أصبحت تأريخاً...!
تأريخاً ندرسه،، ونصدّق به،، ونعمل وفق ما يقوله..!

ولكن... هل كتبت علينا الأقدار أن نبقى مهاجرين...؟
ثم... من هو الذي يجب أن يُلام على حال هجرة الأوائل منّا وهجرتنا نحن حديثاً...؟
هل أنهم أولئك الذين قاموا بتهجيرنا... الذين دفعونا لهذا السبب أو ذاك للهجرة...؟
وهم الذين كانت مصالحهم تقتضي هجرتنا...؟
أم إنها مشاعرنا ومبادؤنا... هي التي كانت السبب في هجرتنا..؟
أم إن من شجعونا على الهجرة هم الذين إستقبلونا في مواطنهم...؟
وأكرمونا...، ورأينا عندهم ما لم نرَهُ في ديارنا...،
ديارنا التي لطالما إعتبرناها.... دياراً للعزّة والإباء...!

لقد قيل لنا وتمّ تلقيننا، أنه عندما كان يهاجر أجدادنا، كانوا غالباً ما يهاجرون برغبتهم...،
بكامل عدّتهم وعتادهم...، ومبادئهم....!
ثم بعد ذلك، كانوا يفرضون أنفسهم، حقاً كان أو باطلاً، على الأرض التي يحلّون فيها، وعلى أهلها! وكانت تدفعهم للهجرة حاجاتهم المادية باختلاف أشكالها....؟
وقيل لنا أنهم كانوا لا يهابون شيئاً...، حتى لو إحتاجوا أن يقتحموا المواقع بالقوة...،
أما نحن....،، فنحن اليوم نهاجر لنلجأ للدول مُرغَمين...،،
مدفوعين من دون إرادتنا...،، أو هكذا يبدو...، خائفين ومرعوبين...،
نتوسّل من يقبلنا في موطن جديد...، أي موطن...،

ولكن.... يبقى لسان حال الكثيرين منا يقول:
لا... لا... ليس أي موطن كان... يستحق أن نستقرّ فيه...!
فهناك فرق كبير بين الأوطان...!
ونحن لن نقبل بأيّ كان من الأوطان...!

إن هوية الأوطان وطبيعتها تشكل فارقاً كبيراً في السبب الذي يدفع الكثيرين منا لكيّ يهاجروا... ويلجأوا...،،
وتشكل فارقاً كبيراً في الأسلوب الذي يتبعونه لكي يُصِرّوا على البقاء... في تلك الأوطان الجديدة...،،
إذ إنهم رساليّون...! ولابد أن يكون لهم دور في حياة الآخرين...،
حتى لو رفض أو كره الآخرون رغبتهم تلك...،
حتى لو لم يكن لهم دور في حياتهم هم أنفسهم من قبل....!
حتى لو أنهم كانوا مقموعين في بلدانهم....،،

إنهم جاؤوا ليتسيَّدوا على الآخرين الذين إستقبلوهم هنا في أوطانهم وأكرموهم...،،
كما أن هنالك أيضاً فارق كبير في النتائج....،،
نعم...،، إنهم رساليّون..،، أصحاب مبادئ...،،
ويجب أن يعلوا فوق رؤوس الآخرين...،،
إنهم يؤمنون بأنّ لهم شأن في هذا العالم وهذه الحياة..،،
شاء الآخرون أم أبوا...!
هكذا كان منطق هؤلاء في الهجرة للأوطان الأخرى..،، منذ البداية...!

أمّا عندما هاجر أجدادنا في القديم من الزمان، فقد كانوا يكشفون عما في نفوسهم منذ البداية...،،
ولا يخفون ما لديهم في نفوسهم من نوايا...، وهذا ربّما ما يمكن أن يُحسَب لهم..،،
وكانوا غالباً ولا يمكن القول أنهم دائماً...،
يحاولون أن يصلحوا الأرض..،
ليس بأيديهم هم أنفسهم...، إذ أنهم لم يحسنوا التعامل مع الأرض...،
ولكن بأيدي من يعرفون ويُحسنون إصلاح الأرض...،
ممن يحترمون الأرض.... من أهل الأرض نفسها...،،
ولكنهم على أقل تقدير... كانوا لا يسيئون لها..،
أو أنهم لم يكونوا يعبثون بها..،،
أو هكذا قيل لنا عنهم في بعض صفحات التأريخ...،،
ولكننا عندما هاجرنا نحن...، كان قد إختلف الأمر كثيراً...،،
فنحن فينا الكثير ممن هم وبمجرد أن يتمكنوا من مواقعهم ويشعروا بقوتهم..،،
فإنهم سرعان ما يرفعون راياتهم وينقلبون على أعقابهم...، ويكشرون عن أنيابهم.....،

مَن مِنْ هؤلاء هو الصحيح،، الأجداد أم الأحفاد....؟
أم أن النتيجة هي نفسها...؟
فهذا الشبل من ذاك الأسد...!

ما نعرفه عن حالنا هو واقع... حادث ومشهود...،،
ألا يمكن أن يكون حال الأحفاد هو نفسه حال الأجداد عندما كانوا يهاجرون...؟ ربما يكون...!
وقد يكونوا بفعل قصص وأساطير ومبالغات الأجداد، قد زيّنوا حالَهم، وجعلوا من أنفسهم خيراً وسلاماً.. يحلّ على بلدان مهجرهم في تلك العصور..، وهذا ممكن أيضاً...،،

إنه أمر يصعب علينا أن نعرف حقيقته... الآن...،،
وقد يوجد الكثيرون فينا ممن يعرفون..!
ولكنَّهم يحتفظون لأنفسهم بما يعرفون..!

هل أن هذه الدول التي تستقبل هؤلاء اللاجئين بهذه الأعداد، وبدون تمييز ولا إهتمام بمعرفة نواياهم، هل هم أغبياء في سياستهم هذه...؟
أم أننا نحن الذين لا نفهم ماذا يدور حولنا.....؟

ظلّ حسين في دوامة تفكيره بين هذه التساؤلات، التي تعصف بفكره والتي أخذته وأبعدته عن موقعه، حتى شعر أنه يوشك على الإنهيار، وبدأ العرق يتصبب من جبينه.. وشعر بأن الجو أصبح خانقاً ساخناً، وشعر بالغثيان الذي جاهد في مقاومته...،

إن هذا الذي تحدّث به مع نفسه وتحدّثت به نفسه معه، إنما هو جوهر الموضوع الذي كان منذ أن بدأ يدرك ما حوله من أمور، ومنذ ما يقرب من نصف قرن من الزمن.. هو نفسه... لم يتغير فيه شيئ...،
فهو الآن فقط يعيش في جو من الحرية الفكرية...،، والتي سمحت له أن ينطق ويتحدث مع نفسه بما كان يخاف من مجرد التفكير به...،،

يا ترى كم من الجبهات يحتاج المرئ الصادق النزيه أن يحارب..؟
لكي يحتفظ بنزاهته... وكرامة عقله....،،

*****

أجرة المطار

في طريقه للعنوان الذي وصله من مكتب تأجير السيارات، حيث طلبوه لخدمة التوصيل للمطار، لم يستطع فرانك أن يزيل من فكره صورة هذه المرأة (أم محمد)، والتي كانت تتظاهر باللياقة وإحترام الآخرين، وهي في حقيقتها من داخلها يبدو أنها فضوليّة الطباع، خشنة الألفاظ عندما تشعر بأن كذبها قد إنكشف...، ولا تتوقف عن محاولة التدخل بحياة وشؤون الآخرين، ولم ينس فرانك كيف أنها حسب ما قالت، قد عرفته من إسمه بأنه زوج (بَرجِت)...، رغم أنه لا يعتقد أنها تعرف زوجته بريجيت شخصياً، وربما حتى لم تلتق بها...، نعم، هو لا يعتقد أنها قد إلتقت بزوجته فعلياً يوماً ما، ذلك لأن زوجته قليلاً ما تلتقي مع أناس لا تعرفهم من خلال علاقاتهم العائلية المحدودة، والذين قد تعرّفوا على معظمهم منذ أول أيام وصولهم لبلدهم الجديد، ولأنها قد أشغلت نفسها فعلياً وكثيراً في عدة أمور منها محاولتها تعلم اللغة الإنكليزية بصورة جيدة، وإرتبطت بعدة أعمال بسيطة إبتدأتها بجديّة، لكي تعتمد على نفسها وتكوّن حياتها من خلال قدراتها..، وليس بالإعتماد على مساعدة نظام المساعدة الإجتماعية الذي تقدمه الدولة للاجئين،، ولكبار السن والعجزة والعاطلين عن العمل..،، ولذلك فإنه لا يعتقد أن بريجيت

كانت لها الفرصة لتضييع الوقت، في مناسبات يمكن أن تلتقي بها بهذه المرأة (أم محمد)،، وعلى أي حال فإنه سوف يسأل بريجيت عند عودته بعد الظهيرة، عندما يعود مع إبنته كارول للبيت...، لكنه لم ينسَ كيف أن هذه المرأة أشارت له بأنه زوج (بَرجِت.... الممرضة)، في إشارة لم يشعر بالإرتياح لها..، وكما هو متوقع لدى معظم العراقيين...!

عندما وصل فرانك لعنوان البيت الذي كان يطلب خدمة التوصيل للمطار، وجد رجلاً يبدو أنه كان ينتظره أمام باب المنزل، وبجانبه حقيبتان كبيرتا الحجم، فأوقف فرانك سيارته أمام الممّر المؤدي لباب المنزل، ونزل من السيارة وحيّا الرجل، وردّ الرجل على تحيته، ثم سأله فرانك كم هو عدد الركاب، فأجابه إنهما إثنتان، سيدتان فقط، وأنه لن يكون معهما، ولذا يرجوا منه أن يأخذهما للمبنى الثالث من المطار، ويوصلهما لبوابة المغادرين الخارجية، حيث أنهما مسافرتان إلى لندن، وكذلك رجاه أن يطلب لهما أحد العمال لنقل الحقائب لأنهما لن يستطيعا أن يتصرفا مع الحقيبتين، ولن يمكنهما رفعهما لمستوى الميزان، وعندما كان الرجل يذكر التفاصيل تلك لفرانك، كان فرانك يقوم بوضع الحقيبتين في صندوق الحقائب في السيارة، وأثناء ذلك ظهرت سيدتان من داخل البيت، إحداهما يبدو عليها أنها في أواخر العقد الخامس من عمرها، أما الثانية فيبدو أنها في منتصف العقد الثامن، حيث كانت تحتاج لتستند على السيدة الأخرى،، وعندما بلغا موقع السيارة تقدم الرجل نحو السيدة الكبيرة السن، وإحتضنها وقبّلها مودعاً لها وأوصاها بأن تقضي وقتاً ممتعاً مع أخيه، وفتح باب السيارة لها لكي تدخل، ثم عاد ليحتضن المرأة الأخرى والتي يبدو أنها زوجته، وتمنى لهما رحلة سعيدة، وتوجه نحو فرانك ليؤكد له مرة أخرى بعض ما أوصاه به، وأعلمه بأن الوقت مازال مبكراً على مغادرة الطائرة ولكنهما فضّلتا

الذهاب للمطار مبكراً لأنهما ترغبان في شراء بعض الحاجيات كهدايا لمعارفهم في بريطانيا..،،

توجه فرانك بسيارته بإتجاه المطار، وبقيت السيدتان لفترة لم تتحدثا فيما بينهما شيئاً، حتى بادرت السيدة الكبيرة بسؤال الأخرى عن شيئ لم يعرف فرانك ما هو..، لأنه لم يستطع سماعها فقد كان صوتها منخفضاً جداً، وما كان من السيدة الثانية إلّا أن مالت باتجاهها وأجابتها بصوت منخفض أيضاً،، ولم يستطع سماع ما قالته الأخرى أيضاً،، لكن شيئاً ما قد ألحّ عليه بأن السؤال والجواب كانا متعلقين به وعنه...،، ليس لأنه قد سمع أو فهم كلمة مما قالته السيدتان، بل قد لاح له أن السيدة الكبيرة قد أشارت برأسها بإتجاهه عندما وجهت سؤالها للسيدة الأخرى، عاد الصمت مرة أخرى بعد أن سكتت السيدتان، ولكن فرانك ظلّ يدفعه الفضول لمعرفة عن ماذا سألت السيدة الكبيرة؟ وكان ينظر لهما بين لحظة وأخرى في المرآة في إنتظار معرفة المزيد،، ويبدو أن السيدة الأخرى قد أحست بأن فرانك ربما قد سمع السؤال الذي سألته السيدة الكبيرة، أو أنه لم يسمعه جيداً ولكنه قد إنتبه للمحادثة المقتضبة بينهما قبل دقائق، لذلك فقد إنحنت السيدة بجذعها باتجاه مقعد القيادة الذي يجلس فيه فرانك وقالت له بأسلوب ممازح:

- هل تعرف عن ماذا سألتني والدة زوجي..؟

فردّ عليها فرانك مبتسماً وفي الحال:

- أعرف.. لقد سألتك عني...، بالتأكيد، من أي بلد يمكن أن أكون...؟
- إذن أنت سمعت ما قالته، وأنا كنت أتصور أنك لم تسمع ذلك...،،
- أنا لم أسمعه فعلاً، لكنني شعرت بأن السؤال كان عني...،،

وهنا وجّه فرانك كلامه للسيدة الكبيرة مباشرة بقوله:

- سيدتي، أنا أصلي من العراق..،،
وأعتقد لابد أنك قد سمعت بهذا البلد...،،

لم تردّ السيدة عليه، وبدت كأنها سرحت بفكرها أو أنها لم تعرف البلد، أو ربّما لم تفهم ماذا قال لها فرانك في جوابه، وقد تصوَّر ذلك هو نفسه، حتى أن السيدة الأخرى زوجة إبنها، لم تعرف ماذا تقول ولكنها رغم ذلك فقد بادرت بالقول بعد صمت السيدة الكبيرة:

- لا..،، لا يمكن أن لا تعرف العراق...، إن أخباره تُذاع يومياً والكلّ يسمع عنه...!
هل يمكن أن لا تعرفي العراق يا أمي...؟

وأخيراً نطقت السيدة الكبيرة قائلة:

- كيف لا أعرفه...، هل فقدتما عقلكما..؟

أنا أعرف العراق من قبل أن تولدا في هذا العالم، أعرفه منذ أن كنت في السنوات الأولى من عمري في المدرسة.. لم نكن نعرفه آنذاك بإسم العراق...، بل كنا نعرفه بإسم (وادي الرافدين *Mesopotamia*)، وبغداد، والسندباد والبساط السحري، وشهرزاد وألف ليلة وليلة، والمغامرات الخيالية التي كنا نتعلق بها..، وكنا نشاهد كل ذلك في السينما، قبل أن يأتينا التلفزيون، كان عدد من مشاهير الممثلين قد قاموا بتمثيل دور سندباد في السينما في تلك السنين، وكانت أفلاماً غاية في الروعة... فقد كانت عبارة عن قصص تلتصق بالخيال الجميل... أحببناها صغاراً، ولم ننسها ونحن كبار، كان العالم جميلاً في ذلك الوقت...، لم يكن فيه شيئ قبيح مما نراه في هذه السنين...، لم نكن نتمتع بالسهولة في الكثير من جوانب

الحياة اليومية، في التنقل والسفر والإتصال بالناس الآخرين، مثلما نحن الآن بإمكاننا خلال سبع ساعات من الطيران أن نصل إلى لندن،، كنا نحتاج ربما لأسبوع أو أكثر لنسافر إلى بريطانيا بالبحر، ونمرض في البحر ثم نشفى، وقد سمعت عن الذين سبقونا بسنين، ممّن كانوا يموتون خلال الرحلات البحرية الطويلة المتعبة، لكنني بالتأكيد أعرف عن بغداد، وكم تمنيت أن أزورها عندما كنت طفلة صغيرة، لأنني كنت أتصور أنني يمكن أن أرى سندباد وبساطه السحري، والسوق الشرقي الذي يباع فيه السجاد الشرقي والعطور...، وكل شيئ...،،

ولكن... هل يمكنك أن تخبرني لماذا وكيف قبلتم أن تغزوكم أميريكا وبريطانيا...؟

أنا اشعر بالخجل كلما تذكرت أن بريطانيا قد شاركت في غزو بلادكم وتدميرها....، ولم أكن أتوقع مطلقاً أن البرلمان البريطاني سيوافق على القيام بفعلة مشينة كهذه..، وأعرف أن البريطانيين سيحتاجون لمدة طويلة قبل أن يغفروا لأنفسهم هذه الفعلة...، أنا نفسي أشعر بالخجل منها..، لابد أنك تشعر بالغضب منا وهذا من حقك...، لكنني أرجوا منك أن لا تتوقف وتنزلنا من سيارتك في منتصف الطريق...، فأنت قد وعدت إبني أنك ستوصلنا لباب المطار...!!

ضحك فرانك لمزحة السيدة الكبيرة..، وضحكت زوجة إبنها..، كما ضحكت هي أيضاً... ولكنها سرعان ما تابعت لتقول:

- أنا فعلاً أعني ما أقوله.. وأنا أعطيك الحق لو أنك غضبت علينا..، لأن ما حصل لبلدك شيئ نشعر بالخزي لحدوثه..، ولا أعتقد أن هنالك من سيستطيع أن يصلح الأمور..، فقد أصبح

السياسيّون في هذه السنوات يرتكبون الحماقات...، الواحدة تلو الأخرى، ويتسبّبون في قتل الملايين من البشر...، ثم بعد فترة يخرجون للعالم لكي يعتذروا...، أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن للسياسي الذي تطوَّع لخدمة الناس أن يرتكب الجريمة بحقهم...!

ثم لا يفعل شيئاً غير أن يتحدث عبر الإعلام ويعتذر...!

وماذا عن الناس الأبرياء الذين أبيدوا.. والذين أصبحوا معاقين نتيجة الحروب...،

تلك الحروب التي تعاني منها الشعوب المغلوبة على أمرها...؟

فأجابها فرانك بقوله:

- سيدتي،، نحن نعرف أن الشعوب ليست مسؤولة عما يفعله الحكام والسياسيّون،، ونعرف أن الناس هنا وفي أي بلد يستقبل اللاجئين من العراق ومن البلدان الأخرى، أعني البلدان التي يستحق أبنائها أن يلجأوا لبلدان آمنة، لأن بلدانهم أصبحت تهددهم بأخطار لا يستطيعون تحملها،، نعرف أن أغلب هذه الشعوب هم أناس لا يحبون الإعتداء على أحد، ولا يرغبون في الخروج من بلدانهم لغزو بلدان أخرى،، ولكن السياسة ومصالح الحكام هي التي تتحكم في الأمور وتوجهها في نهاية الأمر..،،

فقاطعته المرأة بقولها:

- أنا لا يهمني في الوقت الحاضر غير بغداد والعراق، لأننا مرتبطون بتصور جميل عن بغداد منذ الطفولة، أنا لا أعرف الكثير عن البلدان الأخرى، ولا أعرف ماذا حدث لها،، وقد

يكون حدث فيها الكثير مثلما حدث في العراق وبغداد..، ولكن تبقى بغداد شيئاً يختلف كثيراً عن غيره....،،

شعر فرانك بمرارة وصدق الكلمات التي وصفت بها السيدة الكبيرة ما قد حصل،، فهي لم تُعطِ أيَّ مجالٍ أو عذرٍ، لتبرئة من إشتركوا في جريمة تدمير بلد بأكمله وتشتيت أهله، ولم تأت على ذكر أن العراق قد تحمَّل وِزرَ حاكم أهوج.. مختلّ العقل.. مريض نفسياً، لايعرف حدوداً للعنف مع شعبه.. أو مع من يمكن أن يقع تحت رحمته...، فقد تجاوزت هذه السيدة الكبيرة السن أي تفاصيل للموضوع، ولم تلتمس عذراً لبلدها أو حكومتها، بل تناولت النتيجة النهائية لما حدث،، وهي أن شعباً بأكمله قد دفع ثمناً كبيراً لنرجسية وجنون حاكم، أدّى سلوكه الجنوني وجهله إلى تدمير بلد عريق بكامل قدراته،، كما أن بلداناً عظيمة لم تُعِر أهمية لهذه المسألة، بل أصَرَّت أن تأخذ شعباً كاملاً بجريرة ذلك الحاكم المتسلط الأرعن...، فذاكرة هذه المرأة على ما يبدو معطّرة بعطر أصيل، مما قد تعلق بها من سنين مضت، عندما كانت طفلة صغيرة تتصور بغداد بصورتها الخيالية، ومن هنا هي معترضة على هذا الخراب الذي حلّ بهذه المدينة... التي لم تَعُد غير ذكرى لإسم لا يعرف الكثيرون ماذا كان يُمَثّل أو يرمز له...،،

لقد حاول فرانك أن يقارن ما تعرفه هذه السيدة عن بغداد..، أو في الحقيقة ما قد سمعته وتصورته عنها...، وبين ما قد سمعه هو عن بغداد..، فهو أيضاً قد سمع عن هذه المدينة كثيراً، لكنه لم يَرَها لأكثر من ساعات قليلة، عندما مرَّ بها مروراً سريعاً وهو يغادر العراق للمرّة الأولى والأخيرة...! فقد قضى كل سنوات عمره في الجنوب بعيداً عن بغداد...، وهو لا يحمل في نفسه هذا الحسّ عن هذه المدينة الكبيرة التي يكثر الحديث عنها...، بل في الحقيقة أنه لا يحمل في نفسه أي شيئ

حَسَن سمعه عنها...، وهو كما هو حال الكثيرين غيره ممن لم يرونها، ليست لديه أي فكرة عن طبيعة حياة الناس في بغداد..، ولا يستطيع أن يُكوّن فكرة عنهم... صحيحة أو غير صحيحة، وكان دائماً يعتبرها مدينة غريبة عنه، ولا علاقة له بها لا من قريب ولا من بعيد...، وربما أن صلته بها كما هي صلته بأي مدينة أخرى خارج حدود العراق..!
كما أنه لديه الكثير الذي يهمّه أكثر من مدينة بغداد،، فلديه أهله الذين فارقهم ولا يعرف عنهم شيئاً منذ أن ترك العراق،، خصوصاً بعد إتخاذه قرارات وإختيارات... قد جعلت من إلتقائه بأهله مسألة ليست من السهل ترتيبها..، وهو دائم التذكر والتفكير بهم كلهم..، خصوصاً والدته المسكينة التي تحبه كما تحب الأم إبنها العزيز جداً عليها... وكانت تشفق عليه لشعورها بأنه ليس قوياً ما فيه الكفاية لكي يستطيع أن يعيش بسلام وأمان في هذا العالم...!
إنه يتصوّر الآن... لابد وأنها تبكي ليلاً ونهاراً على فراقه....،،
إنه في الحقيقة لا يعرف إن كانت والدته ماتزال على قيد الحياة.. أم لا؟ ولا يعرف كيف تسير أمور عائلته الكبيرة.. من منهم مازال حياً... ومن منهم قد فارق الحياة.. أو ذهب إلى مكان آخر..؟ كلّ ما يسمعه عن وطنه الأول فيه رائحة الموت... والقتل..!
إنه لم يسمع خبراً عن أهله منذ خمسة عشر عاماً... حيث لا توجد وسيلة للإتصال بهم.. ومنذ سنوات وهو يبحث عمّن يمكن أن يعرفهم ممّن يزورون جنوب العراق... ومازال يأمل أن يسمع عنهم يوماً...،،
كما أن لديه الآن عائلته التي يسعى لتأمين حياة مريحة لها...،،

لقد شعر فرانك للحظات بأن هذه المرأة تحب بغداد والعراق، أكثر بكثير من الملايين من العراقيين الذين لا يتورعون عن أن يتسببوا في دمار بلدهم، نتيجة أطماعهم ونفوسهم الضعيفة، أو حباً بالإنتقام ممن قد تسببوا بأذى لهم في السابق..، هذا عدا عن الآخرين الذين يعتبرون

البلد بأكمله مسؤول عما قد حلَّ بهم من سوء...، ولذلك فإنهم يسلبون ما يعتبرونه حقوقهم من البلد وبالشكل الذي يحلوا لهم..!

إن عدم معرفة فرانك ببغداد، المدينة العريقة.. وعدم قدرته على الإحساس بها وبالمأساة التي تمرّ بها في نظر من يعرفونها.. هو نقطة إختلاف كبيرة بينه وبين حسين، الذي ولد وعاش في بغداد حتى مغادرته العراق.. المغادرة النهائية إلى بلد المهجر، وقد كان حسين يقول له دائماً عن بغداد.....:

إن من لم يعش في بغداد ولم ينتمِ لها فعلاً ،،
سيكون سبباً في تدميرها...،،
إذا ما إستطاع أن يحكمها...!!

مقولة حسين هذه تبدو وكأنها بيت من الشعر مجهول قائله...،
وهذا هو ما يعتقده حسين شخصياً..، ولكنه لا يمكن إعتباره أمراً يصحّ على كل الحالات، ذلك لأن فرانك نفسه ومن خلال معرفته البسيطة بالتأريخ كان دائماً يجيب حسين بقوله: إن من بنى بغداد أصلاً لم يكن من أهل بغداد، ولم يكن حتى من أهل العراق...، ثم يعود حسين ليردّ عليه بإسلوب السياسي المتمرّس بقوله: إن من بناها أرادها أن تكون قصراً له ولحكمه، وليس حباً بها أو بأهلها، ويستمر الجدل والنقاش بينهما... وفي كل مرّة تكون فيها الغلبة لصديقه حسين المتمرّس في الجدل والنقاش...، ولمعلوماته التأريخية الواسعة...،
معلوماته عن كل ما هو مؤلم ومأساوي...!!

قبل أن يصل إلى المطار، أراد فرانك أن يسأل السيدة الكبيرة عن سبب إنزعاجها من مشاركة بريطانيا في حربين كبيرتين ضد العراق،، وخصوصاً الأخيرة منها عندما دخلوا للعراق مع الأميريكان بصفة

قوات إحتلال،، فأجابته بأنها بريطانية الأصل وقد ولدت وتربت في بريطانيا وتشعر بأنها مشاركة أو مسؤولة عن سلوك بريطانيا كدولة تجاه الدول الأخرى، وأنه يَحِزّ في نفسها أن تكون بريطانيا مساهمة في تدمير العراق، بعد أن كانت راعية له بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى ودخول الجيوش البريطانية للعراق،، وتأسيسهم لأول حكم عراقي فيه،، وهي تعتقد أن بريطانيا كانت بديلاً أفضل بكثير من السلطنة العثمانية التي كانت تحكم العراق....،،

هنا إمتنع فرانك عن إجابتها بأي جواب أو حتى متابعة ما قالته..، لأنه لم يكن يعرف بماذا يجيب.. لعدم علمه بهذا الجانب من تأريخ العراق،، لكن ذلك لم يمنعه من أن يعتقد أنه ربما في الأمر خطأ....،

خطأ ما...،، وفي موقع ما...!!

ولذلك فقد قرّر أن يعود لصديقه حسين اليوم...

لفهم هذا الموضوع بشكل أوضح!

وسيكون الجواب الوافي لدى حسين كالعادة...،، هذه الليلة....،،

*****

فرانك وبريجيت... وحديث عابر

في طريق عودته من المطار، كان الوقت ما يزال مبكراً على الذهاب لمدرسة كارول، فلديه ما يقرب من ساعتين، لذلك قرّر فرانك العودة للبيت إذا لم يأته طلب أجرة آخر قبل وصوله البيت...،
كانت بريجيت قد إستيقضت قبل الظهيرة، وبدأت بإعداد الوجبة الرئيسية المسائية التي يتناولونها ثلاثتهم يومياً، إذا ما كانت بريجيت غير مرتبطة بعملها في الفترة ما بعد الظهر.

عند وصوله للبيت، كان فرانك متحمّساً للحديث مع بريجيت حول صدفة إلتقائه بتلك المرأة (أم محمد)، ولذلك فإن أول سؤال سألها عندما دخل البيت هو:

- هل تعرفين إمرأة إسمها، أو تسمّي نفسها (أم محمد)،، إمرأة ثقيلة الدم... ولا يمكن تحملها..!
- ..... ما هذا السؤال المهم الذي أنت متحمس لمعرفة جوابه؟
- لا... لست متحمساً،، بل في الحقيقة أنا أتمنى أن يكون جوابك أنك لا تعرفينها....،
- ماذا تعني بذلك، هنالك العشرات من (أم محمد) في هذه المدينة،

من أين جئت بهذه (أم محمد) المهمّة والمتميّزة...،،

- نعم هي بالفعل متميّزة...،، بطريقة حشرها لأنفها في كل شيئ على ما يبدو، وثقل دمّها..، نفاقها وتملقها، إنها متميّزة بكل شيئ سيئ على ما أعتقد..، لقد أعادت لي هذه المرأة ذكرياتي، عن اسوأ ما في هذا العالم من صفات يمكن أن يتصف بها البشر...،،

- أنا لا أعرف عمّن تتحدث ومن هي (أم محمد) هذه...؟
وهل أنها لا تمتلك إسماً يخصّها هي نفسها.. ومن دون أن يحتوي إسم إبنها، ولماذا أنت مهتم بها..؟

- أنا لست مهتماً بها لكنها يبدو أنها تعرفك، حيث عرفتك بمجرد معرفتها إسمي....!

- ممكن، وصحيح أنت إسمك مُمَيَّز، وأعتقد أنك أنت فرانك الوحيد بين الجالية هنا...،، وأنا غالباً ما يعرفونني من خلالك وليس العكس...، أنا يعرفونني من خلال مراجعاتهم للمستشفى ورؤيتهم لي هناك.. وطلباتهم السخيفة مني دائماً، وكأنما أنا إختصاصية في جراحة القلب!

- وهل هذا فيه ما يزعجك كثيراً ويؤثر على عملك؟

- لا... ليس كثيراً، بل في الحقيقة أنا أفرح عندما يكون بمقدوري أن أقدم خدمة لهم... ولكن تبقى طلبات البعض منهم أكثر من قدرتي على أن أقوم بها، فالبعض منهم لايعرف أنني لا يمكنني أن أتحرك بحريتي وكيفما أشاء في أقسام المستشفى، إن أحدهم يوصي الآخر ويعلمه بأنني أعمل هنا..، ويتوقع أنني بإستطاعتي مثلاً أن أقدّم دورَهم في الفحص عند قسم الأشعة أو غيره، وأن أجعلهم يتجاوزون الدور المخصّص لهم، أو ربما أستطيع أن أتوسط لدى الأطباء لكي يهتموا بهم أكثر، إنها مشكلة كبيرة أن تغير المفاهيم التي تَعوَّد عليها

بعض الناس في بلدانهم الأولى، وهم غالباً ما يُذَكّرونني بأوضاع الناس في بلدنا عندما كانوا يذهبون للمستشفيات، وكما كنت أسمع عن ذلك ممن يحتاجون الذهاب للعلاج، ولكن الأمور هنا والخدمات التي يتلقونها، ليست كما كانت الحال في بلدنا، وعلى أقل تقدير إن من يذهب هنا لتلقي العلاج، أو أي خدمة طبية، لا يحتاج لأن يُفَرّط في كرامته وإنسانيته...!

لن يستطيع الكثير من هؤلاء الناس هنا تجاوز نظرة الحسد التي عاشوا معها.. عندما كانوا يحسدون من يعرفون أنهم أكثر قدرة مالية منهم في بلدنا سابقاً..، وعندما جاؤوا إلى هنا لم يعُد بإمكانهم الإلتقاء، أو السماع عن الذين يتمتعون بقدرات مالية عالية، لكنهم أصبحوا يرون في هذا البلد، بلداً غنياً ويستوجب أن يحسدونه لأنه بلد غني..، غني جداً.....،،

لقد إنتهى العراق بالنسبة لهم....،،

فهو لم يكن، ولن يكون في وضع يشجعهم على أن يحسدونه..، على ماذا يحسدونه...؟

على قيادته التأريخية السابقة...؟

أم على قياداته الحالية من اللصوص الذين نهبوا كل إمكاناته؟!

- نعم... معكِ حق، لننس موضوع (أم محمد) وأشباهها...،،

فنحن لا ننوي أن تكون لنا صلة بهم، وأرجوا أن لا نضطر لذلك يوماً...،

- نعم.... وأنت.. كيف كان صباحكَ هذا اليوم...؟

وأين إلتقيت بهذه المرأة... (أم محمد)...؟

- لقد ذهبت إلى بقالة حسين لأنني لم أذهب له منذ أكثر من أسبوعين، وهناك إلتقيت بهذ المرأة، بعدها جائتني أجرة للمطار، وكانت أجرة مميزة دار فيها حديث بيني وبين

السيدتين اللتين أخذتهما للمطار، كان طبعاً معظمه عما حصل للعراق.....،،

- يبدو أنه حديث طويل....،،

ربما عليك أن تتهيأ للذهاب للمدرسة....،

بينما أنهي أنا ما لدي من عمل هنا لتجهيز العشاء،

- هل أعتبر هذه إشارة إلى أنك غير مهتمّة بموضوع يمكن أن أحدثك به عن (أم محمد)... أو السيدتين اللتين أوصلتهما للمطار؟

فأنا مازال أمامي ساعة أو أكثر على موعد المدرسة...،

- نعم... صحيح ما تقوله، لكن الموضوع الذي ستتحدث به سيحتاج مني أن أرَكّز فكري معك وأنا مازلت نصف مستيقضة، ولدي عمل.. لماذا لا تذهب لمشاهدة التلفزيون؟

- بل سأذهب لكي أستريح قليلاً، فأنا أيضاً أشعر بالنعاس، وقد وعدت حسين أن أذهب له في المساء للتحدث معه عن بعض الأمور...،

- أعتقد أنك سعيد الحظ أن تجد صديقاً مثل حسين، تلجأ له في كل أمر..، ليس من السهل أن تجد المرأة لها صديقة مثل حسين صديقك...!

أعتقد أن النساء يساهمن بدرجة كبيرة في خلق المشكلات في هذا العالم، لابد أن نعترف بهذا..!

- هذا رأيك أنت.... ولا تعتبريني أنا من دفعك لتقولي هذا...،

فأنا لم يخطر في بالي هذا الأمر الآن...،

ربما خطر في بالي قديماً ولكن ليس الآن....!

أما بخصوص حسين وعلاقتي به، فإنه حقيقة ما تقولينه، أنا فعلاً سعيد ومحظوظ أن يكون لي صديق مثله، لكن المشكلة أن حسين نفسه لايبدو سعيداً ولا محظوظاً، وهذا ما يحزنني كثيراً من أجله...،

عند المساء، وبعد أن عاد فرانك مع إبنته كارول من المدرسة وبعد أن تناولوا وجبتهم المسائية معاً، جلست بريجيت مع كارول تتحدث معها عما دار في المدرسة، وكانت كارول تصف لها ما حدث وكأنها شريط مسجَّل، وكلما نسيت نقطة أو حادثة مهما كانت بسيطة، عادت لتؤكد لأمها حدوثها وتربطها بأحداث اليوم حتى لو لم تكن لها قيمة، لقد كانت الطفلة على ما تبدو عليه من إنشداد لوصف ما يحدث لها في المدرسة، وكأنها تشعر بأن هذا جزء من واجبها الذي عليها أن تقوم به تجاه أمها..، فهي مطالبة بذكر كل ما حدث في المدرسة لأمها..، يجب أن لا تنسى شيئاً، أما فرانك فإنه كان يجلس مسترخياً على أريكة أخرى يلاحظ ما يدور بين بريجيت وكارول من حديث، ولكنه غير مقتنع بأن من الضروري أن تلتزم كارول بهذه الطريقة... وتتذكر يومياً كل تفاصيل ما يحدث في المدرسة، ثم تأتي لتقصّه على أمها، إنه يعتقد أن هذه مهمة شاقّة، وأن كارول لن تقوى على تحمّلها للسنين القادمة..، وهو لا يعرف لماذا تُصِرّ بريجيت أن تطلب من كارول أن تفعل هذا يومياً..!! لكن هذا الأمر كان في كثير من الأحيان، قد أوصل الحال بينه وبين بريجيت إلى مشكلة وخلاف، كان من الممكن أن يتسع ويصل إلى طريق مسدود، لولا أنه هو نفسه قرر الإنسحاب وترك الأمر والساحة لبريجيت،، لكنه هو أيضاً غير واثق من أنه سيستطيع أن يبقى هكذا منسحباً لمدة طويلة...،،

لم يعرف فرانك ماذا يفعل وهو يجلس بإنتظار بلوغ الوقت... الذي كان قد وعد حسين بأن يعود له في المساء ليلتقي به في البقالة، لذلك قرّر أن يتّصل به تلفونياً ليعرف أخباره، ولكن تلفون حسين كان على ما يبدو مُغلقاً في الإتصال الأول، ثم عاود الإتصال بعد قليل فكان مغلقاً أيضاً،، ولم يجد نتيجة ذلك بُداً من أن يقول لزوجته بريجيت أنه

سيذهب لبقالة حسين لمعرفة أخباره..، وأنه لايعرف متى يعود.. لكنه بالتأكيد سيعود قبل أن تغادر هي لفترة عملها المسائية هذه الليلة أيضاً.

وصل فرانك إلى بقالة حسين ولم يجده فيها، بل وجد إبنه علي في مكانه، وسأله أين والده، فأجابه علي إجابة غريبة اللفظ والمعنى...، لفظ لم يسمع به منذ سنين طويلة...، فقد أجابه بقوله:

- إنّ أبي اليوم قد قرّر "الإعتكاف" فجأة....!!

فردّ عليه فرانك وهو يحاول أن يكبت ضحكة تكاد تتفجر من داخل بلعومه..، بقوله:

- علي.... ماذا تقول... ماذا تعني أنه قرّر أن يعتكف اليوم...؟
  ثم من أين تعرف معنى الإعتكاف...؟
  أنت جئت لهذا البلد وعمرك صغير... ولا تعرف مثل هذه الكلمات...!

فقاطعه علي وهو يضحك أيضاً، بجوابه:

- وهل تعتقد أن أبي قد تركنا من دون أن يعلمنا هذه المفردات التراثيّة...؟ إنه يعتقد أننا من الضروري أن نعرفها لكي نعرف كيف نتواجه معها أو مع من يعمل بها...!
  أنت تعرف أبي... إنه لا ينسى أن يعلمنا كل مفردات التراث، لكي لا يضيع هذا التراث، حتى لو ضعنا نحن، فذلك غير مهم، المهم أن لا يضيع هذا التراث..!
- كفاك مزاحاً ياعلي، وأخبرني ما قصة أبيك...،، الذي قرّر الإعتكاف فجأة... وأنا على حد علمي هو لا يؤمن بأي إعتكاف... فلمن... ولماذا يعتكف...؟
- آآآآ... هنا وصلنا إلى نقطة مهمة.. هذه النقطة تؤكد أنك مازلت لاتعرف عن أبي إلّا القليل.. فأبي على سبيل المثال يعتبر

الإعتكاف ضرورة لعقل الإنسان ولنفسيته ولأخلاقه وصموده أمام النوائب والصعوبات.....!

وعنده أنه ليس كل إعتكاف هو تعبّد وتَصَوّف....!

- علي... أرجوك قل لي ما الأمر..؟

هل حقيقي ما تقوله...؟

ولماذا يعتكف اليوم بالذات وماذا حدث اليوم لكي يستوجب إعتكافه...؟

وأنا كنت معه في الصباح وإتفقنا أن آتيه في مثل هذا الوقت لكي نتحدث... عن أمور كثيرة...،

- نعم ما تقوله صحيح، وما أقوله أنا أيضاً صحيح، ولكن النتيجة هي أن أبي قد قرّر الإعتكاف على ما يبدو لأمرٍ طارئ....

لأمرٍ إستوجب منه أن يفكر فيه تفكيراً جدياً...،

والله يستر.....!!

فقد يكون إنزعج من حادث معين أو حديث ما....،،

- أم محمد... أم محمد... لابد أنها أم محمد.. ليس هناك غيرها، لايمكن أن يكون أحد غيرها.. هي وأبو محمد...، نعم هما المتّهمان الوحيدان..!

صرخ فرانك بجوابه هذا على كلام علي عن إحتمال سبب إنزعاج أبيه... وفوجئ علي بدوره بصرخة فرانك.. فردّ عليه بقوة أيضاً:

- أم محمد...، هل هي تلك المرأة التي أشاعت في أوساط المدينة كلها بين أبناء الجالية،، أنني سأتزوج....!

عجيب أمر هذه المرأة....،

وكيف إلتقى بها أبي... هل جائت إلى هنا، وهل أنت تعلم بذلك؟

تكلم فرانك شارحاً لعلي بعض ما حدث في الصباح... عندما كان في البقالة وحضرت أم محمد وزوجها، وما كان من حديث دار بينهم... وكيف أن حسين إنزعج من مجيئها وزوجها ومن نفس الموضوع، موضوع إشاعة زواج علي... ولكن فرانك عاد ليسأل علي:

- ولماذا ينزعج أبوك من مثل هذه المرأة... وهو مُتعوّد على رؤية الكثيرين من أمثالها هذه السنين الطويلة.. وهو هنا في هذه البقالة نفسها....؟
- لا أدري، معك حق، ولكن الظاهر أن بعض الضربات التي تأتي في مواقع وأوقات معينة توجع أكثر من غيرها...،
- أنا لا أستطيع مجاراتكم أنت ولا أبيك في هذا الكلام الملغوم....، أنا رجل بسيط التفكير ولا قدرة لي على التحليل العميق...،

والآن قل لي.. متى ستنتهي مدة إعتكاف أبيك والتي أرجو أن لا تطول....

- لا.. لا... أعتقد أنها ستنتهي خلال يوم أو يومين، لن تدوم طويلاً، المهم أن الأمر بسيط ولا أعتقد أن هنالك دواعي للخوف... لأنني متأكد أنه....

لن يدّعي حدوث شيئ غريب عندما ينتهي إعتكافه...!!

لكن، هل هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها عن نوبات إعتكاف أبي...؟

- نعم،، لم يسبق لي أن أعرف عنها شيئاً....،

وهذا يعني أن هنالك الكثير الذي مازال علي معرفته....،

عن أبيك وعن صفاته ومميزاته...!

إن أباك بلا شك،، إنسان حقيقي ومثالي في هذا الزمن الذي أصبح زمناً يسود فيه الممسوخون...

إنهم أنواع مختلفة وجديدة من المخلوقات....!

مخلوقات القرن الحادي والعشرين....!

- ها أنت تتكلم وتنطق بالحكمة...، وهذا يعني أنكما متشابهان إلى حد ما....،
- لو لم نكن متشابهين، لما كنت إعتبرته حكيمي ومرشدي الأعلى في هذه الحياة..!
- نعم... أنا أعرف أن أبي قد ولد وإرتبط بعالم غير العالم الذي نعيشه فعلاً...، لكن هذا لا يمنعه من أنه يحاول دوماً أن يعيش الواقع، ومن هنا تأتي معاناته، ونحن نعاني معه، أعني أنا و أمي... ليس لشيئ ولكننا نتألم عندما نرى معاناته، ونقول له ذلك، ولكن جوابه أنه يستمتع بالحياة فقط عندما يعيشها هكذا وبهذه الطريقة، وغير ذلك فإنها لا تعني له شيئاً،، وأنا في الحقيقة أؤيده في إعتقاده هذا، لأنه على أقل تقدير وكما يقول هو نفسه... أنه يعيش أفضل من عيشة الكثيرين من أقرانه ومعارفه... الذين لم يرغبوا في مغادرة عالمهم..، هذا عدا عن أؤلئك الذين سقطوا خلال هذه المسيرة الطويلة من المعاناة مع الحياة...،،

ظلّ فرانك ساكتاً واجماً لا يعرف ماذا عليه أن يقول..، أو ماذا يمكنه قوله...، لكنه طلب من علي أن يبلغ حسين رسالة شفوية...، تقول...:

إن العيش في هذا العالم مُمِلّ كثيراً.....
لمن يعيشون بلا مبادئ....،،
لكن المُملّ أكثر بكثير.. هو...
عندما لا يعرف هؤلاء كيف يتعاملون مع هذا المَلَل..؟

ثم رنّ جرس هاتف فرانك وكان هنالك طلب لخدمة سيارته، فطلب من علي مرّة أخرى أن يبلغ الرسالة لأبيه، وأن يتصل به متى ما إنتهت فترة إعتكافه..، وفي طريقه للخروج من البقالة أخذ معه جريدتين من الجرائد المحليّة العربية التي توزع مجاناً في المحلات، وسيحاول أن يقضي بعض الوقت معها هذه الليلة... التي يتوقعها أن تكون طويلة ومُمِلّة...عندما يكون في البيت وحده بعد ذهاب زوجته للعمل للفترة الليلية...، ولن يكون معه غير قلقه... وعدم ثقته بأنه سيكون قادراً على السيطرة على ما سيأتي.... من أيام...،

*****

المدينة الكبيرة

في هذه المدينة الكبيرة التي قد لا يزيد عمرها الحقيقي عن مئة سنة، يعيش أناس من أصول شتّى، من معظم بقاع الأرض، إن لم يكن جميعها، فهي تحتضن بشراً من حضارات وأصول مختلفة وسحيقة في القدم من قارات العالم القديم، آسيا وأفريقيا وأوروبا، يضاف لهم أيضاً الكثير من سكان قارة أميريكا الجنوبية، وربما أنها لا تخلوا إلّا من السكان الأصليّين لأستراليا ونيوزيلاند....،
والمدينة هذه لا تختلف عن الكثير من مدن العالم، التي تقع في بلدان بدأت في العقود الخمسة الأخيرة تستقبل اللاجئين أكثر من السابق، الذين تدفعهم الكثير من الأسباب للهجرة من بلدانهم، وكذلك هنالك - في نفس الوقت- كثير من الأسباب التي تدعوا بلدان المهجر لإستقبال هؤلاء المهاجرين...!

هنالك الملايين من الناس ممن يستحقون فعلاً أن يجدوا بلداناً تأويهم لكي يستطيعوا العيش فيها بسلام، ولكي يسهموا في دفع عجلة الحياة، وتطوير إقتصاد البلد أو المدينة التي تقبلهم كمهاجرين، وتأويهم وتوفر لهم هذه الفرصة الجديدة للحياة، إذ أنهم لم يكونوا في الأساس

محظوظين... لكي يولدوا في بلدان توفر لهم هذه الفرصة.... فرصة الحياة الآمنة الكريمة، ولكي يتمتعوا بهذه الحياة من دون الحاجة للهجرة وتحمل مشقّة تغيير وضعهم الإجتماعي والثقافي و.. و.. وكثير من الأمور التي تعوّدوا عليها في بلدانهم الأصلية، وأصبحت حياتهم الجديدة تتمثل بهذه المعاناة الدائمة، بين أن تظل تعيش معها، أو تحاول نسيانها، أو تنساها فعلاً، أو ربما تتنكر لها وترفضها رفضاً قاطعاً...!
إنها من المستحيل أن تكون مسألة سهلة...، أبداً، وسيكون كاذباً من يدّعي ذلك...!

إنها المعاناة الفعليّة... المعاناة التي لم تكن تخطر ببال معظمهم، وربما مازال الكثيرون منهم من لم يشعروا بهذه المعاناة...، رغم مرور سنين على وجودهم في بلدان المهجر هذه...!

إن كل دولة من دول المهجر هذه تحاول تطبيق نظريتها الإجتماعية على هؤلاء المهاجرين..، ولذلك فإن السياسيّين وربما الباحثين الإجتماعيين في هذه الدول..، هم في الغالب من يقومون بالتخطيط لكيفية التعامل مع كل القضايا التي تخص هؤلاء المهاجرين...، ولا يعرف أحد كيف يتم إختيار الطريقة هذه ورفض الطريقة تلك..؟
المهم في نهاية الأمر هو خضوع هؤلاء المهاجرين إلى قانون أو أشبه ما يكون بالقانون أو العُرف الذي يُبنى في الغالب على ما يُعرَف بأنه "حقوق الإنسان"، وذلك ما هو غير واضحٍ في وجهته، ولا ماذا يبتغي الوصول له من خلال تطبيقه..؟ ويمكن القول أن بعض تلك الأعراف التي إختطتها الكثير من هذه الدول، فيها الكثير مما يمكن إعتباره فعلاً أنه تفكير بليد، لا علاقة له بعقلية الناس المهاجرين، بل ربما لا يُراعي ولا يعرف أي شيئ عن خلفية عقلياتهم، ولا يعرف ما هي الأسس والمفاهيم الإجتماعية التي يستندون إليها... ويعجبهم الإبقاء عليها

والإلتصاق بها.... وعدم التفريط بها، ومدى أولويتها بالنسبة لهم ولما يعتبرونه من مبادئهم وقيمهم، وربما دعائم وأساسيات حياتهم...!

إن معظم هذه الدول في حقيقة الأمر، وبصورة غير مباشرة، لا تريد لهؤلاء المهاجرين أن يختلطوا تماماً بالمجتمع الجديد، رغم أنها تدّعي بأنها تسعى لذلك،، ورغم أن هنالك الكثيرين ممن يقومون بنشاطات إجتماعية تطوعيّة، ربما يتصورون أن ذلك هو فعلاً ما تسعى له هذه الدول..، والحقيقة هي غير ذلك على المدى البعيد..، خصوصاً منذ بدايات موجات الهجرة التي بدأت تتوالى منذ ما قبل الربع الأخير من القرن العشرين.... وستبقى لكل من هذه الدول.. وجهة نظرها في كيفية وإمكانية الإستفادة من هؤلاء المهاجرين... بالطريقة التي تضمن للطرفين، المهاجرين والدولة المضيّفة لهم، بلوغ حالة من المنفعة المتبادلة بينهم، وبما يحفظ للدولة كيانها وقدراتها، وما يحفظ للمهاجرين كرامتهم وإنسجامهم في مجتمع هم الذين إختاروا الهجرة له تطوعاً ورغبة،، ولم يخترهم المجتمع من بين الملايين ممن يسعون للهجرة إليه...،،

ولكن الأمر لايبدو أنه يسير بهذه الطريقة التلقائية والإنسجام بين الطرفين من الأساس، وذلك لعدة أسباب منها أن نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين لا يدركون خطورة الموقف وحراجته مستقبلياً لهم ولأبنائهم، ولا يعرفون مدى قدراتهم الفعليّة على العيش في مجتمع جديد وغريب كليّة عليهم، وهم ربّما لا يعرفون من الأساس... أين يقع هذا البلد الذي يسعون للهجرة واللجوء له...؟
أليس من الجدير بحكومات هذه البلدان أن يكون لها دور أكمل وأشمل لمعرفة ماذا يريد هذا المهاجر أن يفعل في البلد الذي يسعى له....؟

أليس من المحتمل أن الكثير من هؤلاء اللاجئين، لا يعرفون ماذا ينتظرهم أو ينتظر أبنائهم في بلدان المهجر واللجوء هذه، وبالنتيجة فإنهم سيقعون يوماً ما بين الأسس التي تقوم عليها الحياة في بلدان المهجر هذه بما فيها من قوانين تتعلق بالحرية الفردية، وبين ما قد إعتادوا عليه من حياة في بلدانهم الأولى، بما فيها من الكثير من العادات والتقاليد التي تعارفوا عليها وآمنوا بها، وهم لا يستطيعون تطبيقها في بلادهم الجديدة هذه،، بل إنهم سوف يُعتبرون مخالفين للقوانين وربما مرتكبين لجرائم تستحق عقوبات قاسية إذا ما قاموا بها، بينما هم لا يتوقعون أن تعاقبهم الحكومة على إرتكابهم تلك الأفعال، وحتى لو عرفوا ذلك.. فإنهم لن توقفهم إعتبارات مثل أنهم يعيشون في بلد له معايير تختلف عن معاييرهم، فهم لا يعبأون في مثل هذه الحالات بغير معاييرهم هم أنفسهم، حتى لو كلّفهم ذلك أن يقضوا بقية حياتهم في السجن..!

ولذلك تكون النتيجة، أن نرى أناساً يعتبرون أن البلد الذي قبلهم كمهاجرين أو لاجئين، عليه أن يهيئ كل الأمور لهم ليجعلهم يعيشون مثلما كانوا يعيشون في بلدانهم الأصلية، ويمارسون نفس أسلوب الحياة والمفاهيم والمعتقدات ومتطلباتها، وأن على الدولة أن توفر لهم ذلك بأسرع وقت...، وأن يشمل ذلك القوانين التي كانوا يتعاملون بها أو يخضعون لها في بلدانهم...، مهما كانت هذه القوانين مرفوضة في هذا البلد الجديد....،،

وهنا فإن المنطق يقول أن الخطأ هو أساساً من الدولة المُضَيّفة لهم، وربما يحق لهم أن يتهموها بأنها قد خدعتهم...

وذلك حسب مقاييس وإعتبارات منظمات حقوق الإنسان....!

كيف يمكن لمعضلة كبيرة وواسعة مثل هذه أن تُحَلَّ...؟

هل يمكن أن يكون حلّها على أيدي أناس يقومون بإختباراتهم وتجاربهم العشوائية في مختبر هذه الحياة...؟ هذا المختبر الواسع... العنيف!
فهؤلاء أناس رغم أهميّة وإختلاف إختصاصاتهم العلمية والعملية، إلّا أنهم لا يعرفون غير القليل،، بل ربما لاشيئ فعلياً عن هؤلاء الذين جاؤوا لهذه البلدان البعيدة والمختلفة عنهم بكل المقاييس....،،
جاؤوا لكي يلجأوا إليها،، ويستعينوا بها على أن يبدأو حياة جديدة....،،
ولكنه لابد من القول أن هذا ليس هو نفسه ما ينطبق عليهم جميعهم..،،
فالكثيرون منهم مما يبدوا على سلوكهم الإجتماعي اليومي، أنهم لا يرغبون في حياة جديدة فعلاً..،،
بل إنهم يرغبون في حياة مرفهة إقتصادياً أولاً وبشكل أساس..،،
كما أن كثيراً منهم ينزعون إلى البقاء عاطلين عن أي عمل فعليّ مفيد لهم وللمجتمع... ومقبول قانونياً في هذه البلدان الجديدة..،،
والبعض منهم قد قرروا ذلك سلفاً، وحتى قبل أن تطأ أقدامهم هذه الأرض الجديدة،، وهم يعرفون ذلك مما أشيع وعُرِف عن الكثير من بلدان المهجر هذه...،،
حتى أنهم يعرفون أي البلدان تمنح فرصاً معيشية مرفهة أكثر....!
كيف يمكن أن تُحَلَّ إشكالية كبيرة مثل هذه...؟
إنها بالفعل إشكالية كبيرة...،،
إنها تُقصي حقوق الكثيرين من هؤلاء المهاجرين واللاجئين، ممن يستحقون فعلاً فرصة لكي يسهموا في هذا المشروع الإنساني الكبير الذي تقوم به هذه الدول،، ويجب أن لا تُسرَق هذه الفرصة منهم، لكي تُمنَح ظلماً لمن ليس بمقدوره أن يضيف شيئاً لهذه الدول، التي ما تزال تتصور أنها تقدم خدمة للإنسانية بمشروعها (الهِجرَوي واللجوئي) الكبير هذا،، لا بل إن هؤلاء الذين يستحوذون على الفرص التي يستحقها فعلياً آخرون غيرهم، ممن يتم رفض قبولهم كلاجئين،، فإن الكثير منهم لا يتوانون عن أن يُبدو تذمرهم سريعاً من أي تغير يراد

منهم أن يُدخلوه على حياتهم،، وهذا يحدث حتى على مستوى إرتكاب جرائم لم تكن تعتبر جرائم في أوطانهم الأصليّة، إلا أن قوانين بلدهم الجديد تعتبرها جرائم يستحقون عليها العقوبة....،،

فكيف يمكن تسوية مثل هذه الحالة والوصول إلى حل وسط يرضى به الطرفان..؟

*****

حسين معتكفاً

في بيته، جلس حسين في غرفة المعيشة كعادته هادئاً ساكناً لا يتحدث عن شيئ، وكانت زوجته زينب (أم علي) تجلس مقابله تشاهد التلفزيون مرّة، وتنظر إلى حسين بين فترة وأخرى..، وفي يديها قميص يبدو أنه من قمصانه، تقوم بتركيب أزراره أو تقوية البعض منها، وتقوم بذلك بهدوء وببطئ شديد، إذ لايبدو عليها أنها لديها شيئاً مهماً يجب أن تفعله، أمّا عن مشاهدتها للتلفزيون، فقد كانت تشاهد إحدى القنوات التي تعرض مسلسلات عربية، ولم يكن يبدو عليها أنها منسجمة أو متفاعلة مع ما تشاهده... بينما زوجها حسين يجلس صامتاً.. مهموماً..، وكأنما ثقل الدنيا كلّه قد وقع على أكتافه.... فبادرت هي للحديث معه لتقول:

- حسين،، كم سنة لنا نحن هنا في البلد...؟
- ..... حوالي ستة وعشرين سنة...
.... ماذا في بالك...، لتسألي عنه... في حقيقة الأمر..؟
- لا.. لا شيئ.. إنه فعلاً عُمرٌ طويل...، يعني لو أننا ولدنا طفلاً هنا لكان اليوم رجلاً كاملاً أو إمرأة..،،
- وهل هذا ما أردت التوصل له من سؤالك...؟

هذا السؤال العميق والإستنتاج الرائع....،

قالها لها ممازحاً وبطريقته الساخرة المعهودة،، وضحك مع جوابه لها ضحكة خفيفة، ثم تابع ليقول لها:

- زينب... أرجو أن لا تكوني سبباً في أن أضحك، ألا تعلمين بأنني "معتكف"... وفي الإعتكاف لا يجوز الضحك، وإلّا فربما يذهب "إعتكافي" سدىً وهباءً وبدون فائدة.....،

فأجابته زينب بسرعة:

- وهل أنت بإعتكافك هذا تنوي الذهاب للجنة لتستمتع مع الحوريّات...؟

أما حسين فقد تابع ضحكه بقهقهة عالية ثم قال:

- صحيح... شرّ البليّة ما يُضحِك... نعم... ولم لا.. أنا أريد الذهاب إلى جنتي، جنتي أنا...، جنتي التي لا تقوم على وجود الحوريات مكافأة لجهود لا أعرف قيمتها ولا جدواها... وليس من الضروري أن أتسلل مع الناس الآخرين إلى جنتهم...،،

هل تعلمين... أن الناس بالفعل كانوا قديماً يمتلكون الكثير من الحكمة...، وأعتقد فعلاً كما كانت تقول جدّتي...:

أنهم لم يتركوا شيئاً إلّا وقالوا فيه قولاً حكيماً،،

أو قالوا مَثَلاً من الأمثال أو أبياتاً من الشِعر...،

ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا على حقّ في كلّ ما كانوا يعتقدونه....!

لقد كانت جدّتي تسمّيهم "أهل العقل" وعندما كنا صغاراً كنا نسألها أنا وإخوتي:

"من هم أهل العقل هؤلاء"....؟

ولكنه يبدو أنها لم تكن تعرف جواباً صحيحاً لسؤالنا الطفولي الساذج، ونحن كنا نعتقد أن أهل العقل الذين تقصدهم هم ربّما جيراننا، أو ممن يسكنون في منطقتنا أو حوالينا، ويبدو أنها

هي نفسها قد سمِعَت من أجدادها أن أهل العقل هم من قالوا هذه الأمثال، وربما هي لم تسأل من هم أهل العقل هؤلاء،، وهذا ما أعتقد أنه قد حصل فعلاً،، أو أنها سألت ولكن لم يأتها جواب مثلما أننا لم نحصل على جواب منها..،،

هل تلاحظين يا زينب كم أننا قد ورثنا أموراً لا نعرف صحتها، وتبقى هذه الأمور تعيش معنا لأننا لا نتسائل عنها،، بينما نتسائل عن الآلاف من الأمور التافهة لكي نعرف كل التفاصيل عنها.... يومياً...،،

أقصد من كلامي هنا أن هذه المرأة (أم محمد) التي جائتني اليوم تسحب زوجها خلفها وكأنه (دابّة)، منتفخ بطنه من فراغ، ولا عقل له، فقط جائت به حجّة لكي تحاول أن تتصيَّد أخباراً، وكانت تتوقع أني سأكون مستعداً للتبادل معها بحديث تافه لا طعم له، هؤلاء هم من يعيشون عالة على هذا المجتمع، لو أن أمثال هؤلاء ظلّوا في بلدانهم ولم يتركوها، كان سيكون لزاماً عليهم أن يعملوا ليل نهار لكي يحصلوا على معيشتهم..،،

وأيّ عيشة كانوا سيعيشون...؟

لكن.... هل كان هذا مهماً....؟

فهم لا يستحقون عيشة أفضل من أؤلئك الذين بقوا يعانون الفقر والضيّم والقهر، على أيدي من جاؤوا ليتمتعوا بجوائز تخريبهم للبلد....،،

- حسين،، أرجوك أن لا تقلبها علينا مأتماً، فقد ضاع عمرنا ونحن نبكي ونلطم على من ماتوا قبل قرون ونحن لا نعرفهم، ولم يعرفهم آباؤنا ولا أجدادنا...، ولا صلة قربى لنا بهم...، ولكننا فقط سمعنا عنهم...، ومن ثم بعدهم بدأنا نبكي على أهلنا وأحبائنا، وإلى اليوم مازلنا نبكي على من مازالوا أحياء يعانون الظلم، ونحن ليس بيدنا شيئاً نفعله لخلاصهم...،

إلى متى تعتقد علينا أن نظلّ نبكي..؟
ألا ترغب أن أقوم لأعمل شاياً... وعندها يمكننا أن نتحدث مع شربه عمّا يستحق أن نتحدث عنه...،،

- .... نعم...، نعم كما تقولين إعملي الشاي... سيكون فعلاً في وقته... رغم أن الوقت الحقيقي كان يجب أن يكون مع مشروب آخر غير الشاي...، فالشاي هذا أصبح وجوده لا يفرق كثيراً من عدمه...،
فهو مشروب من لا موقف لهم.....!
إنه مشروب من يمسكون العصا من منتصفها....،
مشروب من لا تستطيع أن تفهم منهم حقاً ولا باطلاً..!
ولكنك يا زينب لا تصلحين لمجلس من ذلك النوع...،،
وأعتقد أنه من الأفضل أن نبقى على إقتراح الشاي...
ومجالسة الشاي... والإستمتاع بشربه...،

- يا عيني.. يا حسين،، أنت لم تعلمني على تلك المجالس في أيام القهر التي مررنا بها، وأبي أيضاً لم يكن صاحب مجالس من ذلك النوع، فقد كان لا يقوى حتى على توفير القوت لنا، ولم يكن أنانياً لكي يقتطع مما نحتاجه من مال لمعيشتنا ليصرفه على نفسه لكي يأنس بمثل تلك المجالس، وأنا أتألم كلّما تذكرته وتذكرت كم من الأشياء قد ظلّ محروماً منها حتى مماته، فمن أين أتعلم وأعرف المجالس التي تعنيها...؟ وأنت نفسك لو لم تكن محظوظاً وأنهيت دراستك، وتوظفت في زمن يقول عنه الناس الآن - زمن الخير- لم تكن لتستطيع أن تجلس في تلك المجالس وتستأنس بها... وتتذكرها الآن... وربما أنك تتمنى لها أن تعود..!

- أنا لا أتذكرها فقط.... بل أعيشها الآن وأتذكر من كان يحضر فيها.. كلنا لم نكن نتصور أن الدنيا والسنين سوف تفعل بنا هذا

الفعل... لكنني مع كل ذلك لا أتمنى لها أن تعود..، لأنها قد قضت على الكثيرين بدون ذنب..، وأنهت أحلامهم كلهم وهُم يحاولون أن ينتقلوا من مجرد كائنات حية.. إلى بشر يعيشون حياتهم.. ويشعرون.. حتى لو كان شعوراً واهماً فقط.. يشعرون أنهم يعيشون! وأن الحياة فيها شيئ يستحق أن يحيوا لأجله....،،

لقد كان ذلك بالفعل كما تقول - وردة الجزائرية..:

وعملت إيه فينا السنين....،،

- لقد فعلت الدنيا بغيرنا أكثر بكثير مما فعلته بنا... لقد كانت بنا رؤوفة رحيمة، ربما لأنك أنت أحسنت التصرف عندما إتخذت قراراً بخروجنا من الجحيم، لكننا بالفعل قد وفقنا أكثر من غيرنا...،
- نعم، لقد وفقنا أكثر من كثير من الناس... ممن نعرفهم وآخرين لا نعرفهم.. وهذه هي المشكلة الكبرى التي لا أستطيع أن أجد لها تفسيراً...،،

فلماذا وُفّقنا نحن...، ولم يُوفَّق الآخرون...؟

لماذا نجونا نحن بأنفسنا... وإستمرت الحياة فينا ولنا..؟

وآخرون سحقتهم "عدالة" هذه الدنيا.. من دون سبب وبلا ذنب إرتكبوه أو خطيئة إقترفوها....،

فإذا كانت الأرض ظالمة...،

والجغرافية ظالمة...،

والدول ظالمة...،

والحكّام ظالمين...،

والأمم المتّحدة ظالمة...،

ومجلس الأمن ظالم...،

والعدالة متضامنة مع الأقوياء....،
ألا يوجد لدينا شيئ غير هؤلاء يمكن أن يكون رحيماً بنا..،
ويمكننا أن نستعين به في مواجهة هذا الظلم...؟
أين يمكن أن يكون..... هذا الشيئ؟
وكم من الظلم يجب أن يقع قبل أن تحلّ العدالة...؟
عدالة تعيد بعضاً من حقوق أغتصبت...
حقوق أغتصبت على مرّ العصور من ملايين البشر الذين مرّوا على هذه الدنيا مثل مياه ضحلة تمرّ خلال جدول هادئ لا يشعر به أحد،، ثم لتنحدر نحو أخدود يأخذها إلى منتهى لا نعرفه... لتذهب عميقاً في جوف الأرض لقرون طويلة قادمة... لتعود مرة أخرى لهذا العالم ربّما بهيئة أخرى لا صلة لها بما كانت عليه... لتزيد من تعقيد الأمور... ولتخلط الحق بالباطل...، فيضيع كلاهما معاً وسويّة... ومن دون أن يدرك أحد ما قد حدث..... ولماذا حدث....؟
وما الحكمة في أن يحدث هكذا....؟
ولم كلّ هذا التعقيد....؟
هل نختلف نحن في شيئ عن عالم الحيوان الذي يعيش من حولنا...؟
هل سيتغير حال البشر.... لينتقلوا من حياة الحيوان، لحياة تعني فعلا حياة إنسان...؟

*****

في البيت

وصل فرانك للبيت بعد أن إنتهى من مشواره المطلوب في السيارة والذي كان أجرة عادية مما يقوم به يومياً. وكانت بريجيت قد تهيأت لتخرج بعد ساعة لعملها الليلي في المستشفى.
وظلَّ جالساً في غرفة المعيشة هذه الليلة على غير عادته، فقد كان المعتاد أنه يذهب للنوم بعد أن تذهب كارول للنوم وحتى قبل أن تخرج بريجيت لعملها، لكنه اليوم بات فكره مشغولاً بهذا الأمر الجديد الذي سمعه عن حسين و(إعتكافه)... لقد سمع بعض الشيئ عن مسألة الإعتكاف هذه، لكنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً كثيراً عنها، وما يعرفه فقط هو أنها مرتبطة بالطقوس والممارسات الدينية والتي لا علاقة لحسين بها، فلماذا يعتكف حسين وهو غير ملتزم بممارسة الطقوس الدينية؟ وفرانك يعرف أن حسين قديماً عندما كان شاباً، كان ملتزماً ببعض الممارسات والطقوس الدينية، وهذا ما كان حسين نفسه يذكره لفرانك، وأنه كان مهتماً بالثقافة الدينية أكثر بكثير من الطقوس نفسها، وكانت المشاعر الثورية والإيمان ومقارعة الطغاة.. هي ما يعجب حسين في الدين أكثر من الطقوس الدينية نفسها، ولهذا فقد نشأ ثورياً

يحمل مفاهيم الثورة ضد الظلم والطغيان... بنَفَس ديني مرَّة، ونَفَس عقائدي من نوع آخر مرة أخرى...،،
لكن يا تُرى أيّ علاقة لهذه الأمور بإعتكافه اليوم،، هل يمكن أن يكون حسين قد (إرتدَّ) إلى تفكيره الديني السابق....؟
هل يجوز هذا....؟
لكن لا... إن هذا مستبعد جداً...،،
إذ أن عقلية حسين الحالية لا تنسجم مع معظم المفاهيم الدينية السائدة الآن...،
ولكن إبنه علي يقول أن حسين إعتاد أن يعتكف بين فترة وأخرى،، ولمدة يوم أو يومين،، ولم يكن علي مهتماً كثيراً لقضية إعتكاف أبيه وكان يعتبرها مسألة عادية حدثت من قبل كثيراً، ومن هنا قال لفرانك أن لا يهتم كثيراً بها،، وأنّ:

حسين لن يدَّعي شيئاً بعد إنتهائه من الإعتكاف....!

لم يعرف فرانك ماذا قصد علي بهذه الجملة من كلامه..؟ لكنه لم يستفسر منه عنها لأنه كان هنالك الكثير الذي يحتاج للإستفسار عنه..، ولم يسعفه الوقت ولا المفاجأة التي تواجه معها عندما سمع بإعتكاف حسين، وكل ذلك كان أسباباً عديدة لم تعطه الفرصة لكي يستفسر عن هذه الجملة وغيرها...،،

كم هي غريبة هذه العائلة، فالأب حسين شخصية مميّزة، وإبنه علي شخص على ما يبدو مميّز أيضاً من نواحي أخرى، ولديه روح المزاح والمرح والنكتة عندما تتاح له الفرصة... وتأثير تربية حسين على إبنه علي واضح في جعله شخصية قوية، لا تشبه شخصيّات معظم الشباب من هذا الجيل...،

إن هذا الشاب علي قد مرّ مع أبيه وأمه وأخواته بفترات معاناة.. أكسبته قوة، وهو بلا شك شخصيّة يمكن للمجتمع والبلد هنا أن يستفيد منها، وهو ليس رقماً تافهاً لا قيمة له، رغم أنه لا يقوم بعمل مهم الآن....،

لكن فرانك لا يعرف في حقيقة الأمر... ما هو العمل الذي يقوم به علي لنفسه...؟

ولا يعرف فيما إذا كان علي مرتبطاً بدراسة أم بعمل...؟

ولم يخطر في باله أن يسأله لأن الوقت لم يكن مناسباً عندما إلتقاه في البقالة اليوم، خصوصاً أنه تفاجأ بخبر إعتكاف حسين...،

ويبقى السؤال المهم الذي يدور في رأس فرانك ويشغله.....

ما هو هذا الإعتكاف.....؟

هل هو حالة من الرهبانية المحدودة بوقت معين...؟

أم أنه حالة من الحاجة للتعبد أكثر من المعتاد..؟

وهل أن المعتكف تختلف عبادته عن غيره...؟

هل هذا وجه من وجوه الشبه بين الأديان....؟

ولماذا يحتاج الإنسان أن يقضي وقتاً خاصاً وفي مكان مخصص لكي يتعبد لله...؟

ألا يستطيع الإنسان أن يثبت إخلاصه في عبوديته لله وهو يعيش حياته الإعتيادية...؟

ألا يعلم الله ما في نفوس مخلوقاته...؟

فلماذا يحتاج الإنسان أن يتهيأ لعبادة الله في وقت معين دون وقت آخر...؟

أليس في هذا تشبيه لما يدور بين الناس أنفسهم...؟

ما يدور بين الضعفاء والأقوياء عندما يسعى الضعفاء جاهدين للحصول على رضى الأقوياء..، أو تجنب أذاهم...، حتى عندما لا

يكونوا قد إرتكبوا خطأ... فالأقوياء لا يمكنك أن تعرف ما يرضيهم ولا ما قد يزعجهم ويغضبهم...،

وهنا لاحت لفرانك صور عديدة مما كان قد لاحظه ورآه.. في المرّات التي كان يصطحب فيها بريجيت وكارول للكنيسة... خصوصاً المرّة الأخيرة.. عندما سلّم على قسيس الكنيسة... وتذكّر كيف كانت نظرة القسيس له... والإبتسامة المريحة التي إرتسمت على وجهه.. عندما رآه يأتي للكنيسة يوم الأحد مع زوجته وإبنته... في الوقت الذي كان البعض من الحاضرين للصلاة في الكنيسة... وكعادتهم كل يوم أحد.. ليتحدثوا للربّ وليطلبوا الرحمة وغيرها مما يحتاجونه منه، كان هؤلاء البعض ينظرون لفرانك وكأنه دخيل على المكان... وأنه لا ينتمي له... ولم يرتاحوا لوجوده ولا لرؤية القسيس وهو يستقبل فرانك وعائلته ويرحب بهم... بل ربما كانوا يعتقدون أنه لم يكن على القسيس أبداً أن يُعير إهتماماً له ولزوجته وإبنته.. ذلك لأنهم يعتقدون أن وراء تحوّل فرانك من ديانته الأولى إلى المسيحية، أمر غريب وغير عادي..، وقد تظهر حقيقته في المستقبل القريب...، القريب جداً....،،
ولذلك فقد ظلّ فرانك حائراً في وقتها ومتسائلاً مع نفسه....:
من هو الذي يمثل حقيقة الشعور في الموقف منه...؟
هل هو القسيس المسؤول عن كنيسة الربّ...؟
أم أن الناس هم من يمثلون واقع وحقيقة النظرة له...؟
والقسيس إنما يقوم بواجبه في الترحيب بكل من يأتي للكنيسة...،
أمّا حقيقة الأمر فهي تتمثل بمواجهة الناس الرافضين له...،
والذين يتوقع أنهم سيهتمّون أكثر بإثارة الشكوك حول نواياه الدفينة كما يعتقدون... وأنهم سوف يسعون دوماً لتغيير موقف الناس الإيجابي منه إلى موقف سلبي، وهذا الموقف السلبي سوف يدفعه للنفور من دينه الجديد، كما كانت لديه أسبابه في نفوره من دينه القديم.....،،

ومن هنا كان فرانك يحاول أغلب الأحيان تجنب الذهاب للكنيسة، بالرغم من شعوره بالإرتياح النفسي الكبير أثناء تواجده فيها...،
ربما لطبيعة الجو الذي تهيئه الكنيسة، والذي يُشيع الأمن في نفوس الناس من أمثال فرانك...، الذي مرّ ومازال يمرّ بأوقات نفسية صعبة...،
ولكن ذلك الشعور كان ينقبض في نفسه ويكاد يكتم أنفاسه.... عندما يواجه موقفاً مع أحد أولئك الأشخاص، ممن يعرفهم بأنهم لا يصدّقون بأنه تحول للمسيحية عن إيمان وقناعة... وكأنما هم يعرفون ما هو الإيمان أو أنهم هم أنفسهم يؤمنون فعلاً... إيماناً يقينياً..!
أو أنهم ربما يعتبرون أنفسهم مدافعين عن مملكة الله.....!
وكان ذلك كثيراً ما قد تسبب في مشكلة مع زوجته... التي تصرّ على أنه يجب أن لا يُعير إهتماماً لهؤلاء الناس... لأن أمثالهم سيتواجدون في هذا المجتمع دوماً... وليس أفضل طريقة للتعامل معهم من أن يتجاهلهم المعنيّ بمواقفهم...،، وهو يعرف أن ما تقوله بريجيت صحيح نظرياً لكنه من الصعب تطبيقه...،
فكيف يمكنك أن تتغافل عمّن يتهمك أو يكرهك من داخله...؟
وأنت تعلم أنه يضمر الشرّ والحقد والكراهية لك...،
هل يمكن أن توجد شرور وأحقاد وكراهية في مملكة الله....؟

لقد سبق له وأن سأل حسين عن هذه المسألة... ويذكر أن حسين قد تأثر جداً عندما سمع السؤال في وقتها... ولم يعرف فرانك عند ذاك لماذا تأثر حسين في ذلك الوقت لسماعه هذا السؤال... ولكن المهم هو أن جوابه على السؤال... كان أكثر غرابة من تأثره بسماع السؤال... فقد كان جوابه هو...: إذهب وإبحث عن فيديو فلم عنوانه..:

"بيكيت.. أو شرف الله"

وستعرف الجواب...!

ويذكر فرانك أنه في وقتها.. لم يستطع أن يحصل على فيديو هذا الفلم... ومن ثم نسي الأمر بعد ذلك...،،

ولم يتكرّر الموضوع نفسه بعد ذلك مرة أخرى... ولم يستطع فرانك أن يعرف ما هي صلة هذا الفلم... الذي أنتج في منتصف الستينات، والذي يقول عنه حسين أنه مبني على قصة تأريخية حدثت فعلاً في بريطانيا في القرن الحادي عشر....،،

*****

جلسة الشاي

أحضرت زينب الشاي وملحقاته في الصينية، ووضعتها على طاولة الشاي وسط غرفة المعيشة، فنظر حسين للصينية نظرة فيها تساؤل واضح من تقطيبة حاجبيه، أو ربما أنه هو قد تعمد أن يبدي هذه النظرة لزينب التي لاحظتها فقالت له:

- ما هذا الذي تنظر إليه هذه النظرة، وكأنك تراه للمرّة الأولى؟
الصينية وإبريق الشاي هما نفسهما، والأكواب هي نفسها...
وليس في الأمر جديد..،
- .... لا..،، ليس في نظرتي شيئ جديد أو غريب..،
- وهل أنا لا أعرف نظرتك العادية، ولا أستطيع أن أميّزها من نظرة الإستغراب هذه...؟
بعد هذه السنين الطويلة لنا معاً... من تريد أن تقنع بأنك لم تنظر للصينية نظرة غريبة...؟
- أنتِ الآن تجعليني أشعر بتأنيب الظمير...،
أنا حقيقة أعني ما أقوله، فأنتِ تقولين لي بكلماتك هذه، أنني قد حمَّلتكم ما فيه الكثير خلال هذه السنوات، إلى الدرجة التي أصبحتم تنتبهون حتى لنظراتي، لكي تعرفوا ما نوعها، ثم لكي

تراعونها حسب ذلك فيما بعد..! وكأنني قد فرضت عليكم حياة إنضباط عسكرية، رغم أنني رجل... كنت ومازلت مدنياً وأعشق المدنية وأكره الحروب والجيوش..!!

- لقد عشنا كلنا حياة الجيش والحروب، نحن وأطفالنا وأجدادنا، ألا تذكر قائدنا "نبوخذنصر" عندما كان لا يرى في الحياة غير الحرب، ولم يكن يرى فينا إلا وقوداً لها..!

أنت بالتأكيد لم تنسَ كيف كان يتحدث مع الأطفال عن مفاهيم القوة والصراع...!!

ولكن هذا لايهم الآن، يجب أن تقول لي ماذا كان سرُّ نظرتك لصينية الشاي...؟

- ولماذا تهتمّين هذه الأهمية لنظرتي؟

ألم يكن كافياً ما عانيتم بسبب مراعاتكم لنظرتي طوال هذه السنين...؟

أريد أن أشعر الآن بأنكم لكم حياتكم ونظرتكم للأمور، وأن لا تبقون مرتبطين معي ومع نظرتي أنا للأمور وللحياة..!

- هذا صحيح،، ولكن لحدّ ما...،

أعني قسماً منه فقط صحيح وليس كله، لأننا في حياتنا إستفدنا من نظراتك التي كانت في معظمها جادّة وشديدة أكثر مما يجب، ويمكن أنها كانت عسكرية الطابع بالفعل، لكنها كانت مفيدة للناس العزَّل أمثالنا في هذه الغابة من الحياة وسط الوحوش، وحوش من كل الأنواع، مثل وحوش الغاب التي تبدأ من العقرب وتصل للأسد...!

لكنني سأبقى مصرّة على معرفة سبب نظرتك الغريبة لصينية الشاي...،

هل كنت تتصور أنني سآتيك بصينية جديدة غير هذه..؟

- لا تعلقي يا زينب أهمية على سبب نظرتي، لأنني أنا اليوم فقط نظرت لها بهذا الشكل، ولم أكن أنظر لها بنفس الطريقة في الأيام الماضية، وأنا متأكد أنني لن أنظر لها في الأيام القادمة... هذه النظرة الغريبة...،
- هذا يعني أنك تُقِرُّ بغرابة نظرتك هذا اليوم لها، فهل أستطيع أن أعرف لماذا وماذا فعلت هذه الصينية المسكينة...،
- لاحظي أنك بقيت تركزين على نظرتي بأنها كانت متوجهة نحو الصينية، هذه الصينية التي أراها يومياً، ولم تفكري بما تحتويه وتحمله الصينية... التي فيها الإبريق...، الإبريق المهم جداً والذي يحوي الشاي، والأكواب، وحاوية السكر...، وهذا يعني أن الصينية هي حاملة الهموم والمساوئ أو المحاسن، وأن ما تحمله لا يتحمل مسؤولية بقدر ما تتحمله هي، رغم أن دورها هو أن تحمل الآخرين... وما سنتعامل معه فعلياً حتى تنتهي إحتفالية شرب الشاي هو الإبريق والشاي، وطبعاً كيف ستكون جودة الشاي وطعمه، والأكواب، وبالمناسبة لماذا أحضرت هذه الأكواب الفخارية الكبيرة التي تعلمنا أن نستخدمها هنا، ولم تحضري الأقداح الزجاجية الصغيرة التي تعودنا أن نشرب فيها الشاي فيما مضى....؟
- ..... حسين... أنا لابد لي أن أقول بأنك اليوم مصابٌ بهذه الحالة التي يسمونها..... لا أتذكر أسمها الآن...
- تعنين... (هوم سك).. مرض الغربة، هل تعنين هذا...؟
- نعم... إنه هو..،،
- يجوز ذلك، لقد قاومت لأكثر من ربع قرن من الزمن، ويبدو أنني سأنهار الآن أو قريباً..، لا أعرف إذا كنت سأستطيع مواصلة المقاومة.. أم لا...،

أنا كنت في الحقيقة أنظر لإبريق الشاي وليس للصينية، فأنت تعلمين أنني دائماً أذهب بنظري إلى الأكثر أهمية، وليس لما يذهب له معظم الناس... عموم الناس الذين يسميهم البعض (الدهماء)...،،

وكان إعلام "نبوخذنصر" قد سمّاهم في فترة ما بعد هزيمته... (الغوغاء)...، في بدايات إنهيار إمبراطوريته الجوفاء...،

- هذا يعني أنك تعتبرني إمّا من الدهماء أو من الغوغاء، وأعتقد لو أنك تتفضل عليّ وتعتبرني من الدهماء، سيكون أهون عليّ من أن أكون من الغوغاء...!

- لا.. لن تكوني من الدهماء ولا من الغوغاء،، ولكن بشرط أن تتذكري كيف كان شكل إبريق الشاي الذي كان شائعاً لدى الناس... في بيوتهم وحتى في المقاهي...؟

- ولِمَ هذا السؤال الغريب....؟

أنا كما تعلم يا عزيزي لم أكن من روّاد المقاهي...! ولا سبق لأمي أن إرتادت المقاهي...، ولذلك ليست لدي فكرة عن ماذا كان يوجد فيها من أشكال أباريق الشاي..!

لكنني أعرف أنه في الغالب كان الإبريق الخزفي الأبيض، المُزَيَّن بأشكال ورسوم لم أكن أحبها لأنها كانت تبدو لي سخيفة...،

حسين... يجب أن لا تنسى أنني أصغر منك سناً، وأنت تتذكر أشياء أنا لم أشهَدها...، فلماذا تحاول أن تختبر ذاكرتي،، كم أتمنى لو أنك كنت تجالس جدّتي... لكي تتباريان في تذكر عبق الماضي...،

- ... رحم الله "يوسف وهبي" عندما كان يقول.... يا للهَول...!

نعم... ولكن هنا.. أنا يجب أن أقول... ياللهول....!

يا للهول... لأنني ولأول مرَّة أعرف أنك تعتبرين الرسوم على أباريق الشاي الخزفية القديمة، أنها كانت رسوماً سخيفة... وأعتقد أنت على حق... فقد كان معظمها يُصوّر نساءً يرتدين ملابس ملكات أو أميرات.. وفي بعض الأحيان كانت الرسوم فقط أوراداً وزهوراً... وفي كلا الحالتين لا أعرف لماذا كانوا يختارون هذه الرسوم لإبريق الشاي..؟

هذا الإبريق الذي يقضي معظم عمره يجلس فوق النار...!

وأنا لا أعرف الآن لماذا تذكرت منظر الإبريق الخزفي الذي كان عندما ينكسر، يقوم الناس بإصلاحه بطريقة غريبة ومعقدة... ثم ليعود للخدمة الفعلية مرّة أخرى... كنا نرى الكثير من أباريق الشاي وكأنها قد خرجت من معارك عنيفة خاسرة وظالمة... خلال خدمتها الإلزامية للإنسان...،

كم هو ظالم هذا الإنسان، في الحالتين.. عندما كان يقرّر أن يُصَلّح المكسور ليعيده للخدمة.. وعندما كان يقرّر أن يتخلى عن المكسور فيرميه في... أينما يشاء!

كما أنني الآن أستطيع أن أرى كم كان وما يزال هذا الإنسان نفسه مشوّهاً لحقيقة الأشياء.... عندما يتعمَّد إضفاء صورة بهيجة ومفرحة ومريحة للنفس... على أمورٍ أو أحداثٍ تنزف دماءً... ويفقد فيها من يكتب عليهم سوء طالعهم الإشتراك فيها مُرغَمين.. يفقدون أغلى وأعزَّ ما عندهم... كرامتهم ونفوسهم.. ويبدو أن هذا كان ينطبق على تلك الرسوم الناعمة.. التي يرسمونها على أباريق الشاي التي عليها الجلوس على النار.. وأن تظلَّ تغلي في داخلها...،،

أما عن أني قد تذكرت كيف كان الناس يصلحون أباريق الشاي المكسورة، فقد كان يمرّ في الأزقة القديمة ذلك الرجل الذي ينادي بصوته (خيّاط فرفوري)... وكان مقابل أجر زهيد

جداً يجلس على الأرض أمام البيت الذي يطلبه... ويخرج عدّته البسيطة ليقوم بعملية الإصلاح التي تبدأ من ثقب الخزف في عدة مواضع، بإستخدامه أداة ثقب قديمة تعمل يدوياً، ربما يعود إبتكارها لبدايات القرن الماضي..، ثم يضع مسماراً لا يصدأ مع مرور الزمن، وبعدها يضع صمغاً على مواضع الجروح... أو الكسور، لكي تنتهي العمليّة بالإبريق أن يعود مؤهلاً للخدمة من جديد... وفي معظم الحالات تتكلّل تلك العمليات بالنجاح التام... ويفرح الناس بعودة إبريقهم لكي يسامرهم في لياليهم وأنسهم مع شرب الشاي.... وهو يحمل جراحه التي تم تضميدها...، ويتهيأ لتلقي جراح جديدة لا يعلم عنها شيئاً الآن، قد تؤدي به إلى ما يمكن أن يريحه للأبد...!
لقد كان يُذكّرني ذلك بالكثير من المشاهد التي كان يعرضها التلفزيون عن أفلام الحرب العالمية الثانية، عندما يظهر فيها الجنود يسندون رفاقهم الجنود الجرحى.... لكي يعينوهم على السير في حالات الإنسحاب المريرة، التي ربما تكون بداية للهزيمة في معركة من المعارك، ومن ثم وقوع الجنود جميعهم، الجرحى وغير الجرحى في الأسر لكي يبدأوا جميعهم معاناة جديدة....،
معاناة المهزوم في مواجهة المنتصر...،

رحم الله أبا العلاء المعري... عندما يقول:
تعب كلها الحياة فما أعجب إلّا من راغب في إزدياد...؟

- وأنتَ... هل كنت تنتظر مني أن أجلب لك الشاي هذا اليوم، بإبريق خزفي مكسور، بعد أن تم إصلاحه بتلك الطريقة....؟
أين يمكن أن أجد ذلك هنا في هذا العالم الجديد...؟

حتى في عالمنا القديم لم يعد أؤلئك الناس الذين يُصلحون الأباريق يأتون للأزقة...،
وحتى أنت، أعتقد أنك لا تعلم أين ذهبوا....!
أنا نفسي لا أتذكرهم، ولو أن "ليلى" و"سعاد" وزوجيهما كانوا حاضرين الآن، لأستغربوا من قصتك هذه... وإن كانت ستعجبهم... وسيبتسمون وربما يضحكون لسماعها...، وأنا الآن فقط أتذكر أنني شاهدت إبريقاً خزفياً في بيتنا كانت عليه آثار كسور ومسامير تصليح مثلما تذكر.. ولو أنني عرفت أنه سيخطر في بالك الآن، كنت أحضرته معنا في رحلة المعاناة في هجرتنا الطويلة... لكي تستأنس به في وحشة الغربة التي تعيشها هذه...!
ألا يمكنك أن تقول لي... ما هي مشكلتك اليوم مع هذا الإعتكاف.. وهذه الذكريات الكئيبة..؟
أنا صحيح يعجبني أن أتذكرها معك وأتذكر كيف كنا.. لأنني معجبة بالمثل الذي يقول:

"من ليس له أول،، ليس له آخر.."

إنها فعلاً مقولة أو حكمة لطيفة... وأنا في الحقيقة لا أعرف لماذا أنا معجبة بها..؟ رغم أننا لم نطبقها في حياتنا... وربّما يطبقها الآخرون الذين لا يشبهوننا... والذين نحن نرى فيهم سوء السلوك وقبيح الصفات..، ولأنهم يديمون علاقتهم مع كل ما كانوا يعيشونه في بلدهم الأول، ويحاولون دوماً التوفيق بين أولهم وآخرهم..، ولكن فقط على مستوى السلوك والأخلاق وما يفيدهم منها... وليس ما يؤذيهم ويزعجهم ويضرّ بمصالحهم..، وأنت أعرف مني بذلك...،

- أعتقد أن في كلامك تلميحات فلسفية، لم أتعود أن أسمعها من قبل منك،، وهذا فيه ما يسعدني كثيراً، ولكنه أيضاً يدفعني لطلب المزيد من الإيضاح والتفسير منك لأنني لم أفهم تماماً ما ترمين له...،
فهل أستطيع أن أطلب تفسيراً أكثر وضوحاً...؟
- ربما...، ولكن بعد أن نذهب إلى فاصل إعلاني....!!

دار هذا الحوار الذي يحمل الكثير من المزاح والمودّة في جوانبه، بين حسين وزينب، وهو كثيراً ما يدور بينهما، فهما كلاهما يتمتعان بروح المزحة وحب الحياة والضحك، بالرغم من أن حسين نفسه يقضي معظم أوقاته في تفكير دائم، ومنظره العام الذي تبدو عليه الكآبة التي لا يحاول إخفائها أبداً، لكنه يحاول أن يقاومها من داخله بما يستطيع من أحاديث مرحة يتهكم فيها ويسخر من الأحداث... بل من كل شيئ... مبتدئاً بنفسه...!

ثم عاد حسين ليعقب على آخر ما قالته زينب بقوله:

- ... هل تعلمين يا عزيزتي، أنني منذ أيام وأنا أرى نفسي وكأنني إبريق الشاي الخزفي القديم الذي نتحدث عنه....، ذلك الإبريق الذي عاش سنيناً يجلس على حرارة النار، ويحوي الشاي ويهيئه لإسعاد الآخرين بطعمه..، الآخرين الذين لم يكن غير القليل منهم من ينتبهون إلى ما يوجد على الإبريق من كدمات وجروح تركتها عليه عوادي الزمن...، وعُدوان أيامه....،،

وقبل أن تُعلّق زينب على كلام حسين، يأتي صوت باب البيت وهو يُفتح، فقد عاد علي من البقالة بعد أن تجاوزت الساعة الثانية عشر

ليلاً.. ثم جاء إلى غرفة المعيشة حيث يتوقع أن يجد أباه وأمه جالسين ليلقي عليهما التحية...،

فبادره حسين بسؤاله:

- كيف كان يومك...؟

أجابه علي بإبتسامة تُظهر بوضوح أن لديه ما يتحدث عنه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، بقوله:

- لم يكن سيئاً...، بل في الحقيقة كان فيه شيئ من الأهمية...، والبعض من المعلومات...،،
- هل نستطيع أن نسمع شيئاً... أم أن الوقت متأخر....؟

فتدخلت زينب لتقول:

- أترك علي يذهب للنوم.. فهو سيعود للبقالة بعد ساعات لا تكفيه لكي يأخذ كفايته من النوم، كما أنك أنت معتكف ولا يجوز لك أن يتشتّت.. إعتكافك.. ويذهب سدىً.. بالإستماع لمواضيع خارجة عن الإعتكاف...،،

لم يجبها حسين بل إنتظر أن يرد عليها علي بنفسه فيما إذا كان بحاجة للنوم الآن، أم أنه يستطيع أن يتحدث لهما حتى لو كان عن بعض ما لديه من حديث، وفعلاً أجاب علي والدته بقوله:

- لا عليك يا أمي، مازلت أستطيع أن أتحمل نصف ساعة أخرى، لكي أقص عليكما ما سمعته عن آخر أخبار اللاجئين الجدد، وهذا ما سمعته من صديقي "سمير" الذي يعمل الآن مترجماً لدى مكتب شؤون اللاجئين..،

  فقد مرّ عليّ في البقالة اليوم قبل ساعتين، وتحدث لي عن آخر أخبار ما يسمعه عن تفكير اللاجئين وموقفهم مما تفعله لهم الحكومة هنا...، إنه فعلاً شيئ يصعب تصديقه...!

لقد وصف لي كيف أنه كان يقوم بالترجمة بين أحد الشباب الذين وصلوا إلى هنا والذي تم قبوله كلاجئ، وبين اللجنة المشرفة على أوضاع وأحوال اللاجئين، ويقول بأن هذا الشاب الذي يبلغ من العمر حوالي ثلاثين سنة، وبعد أن إنتهى من حديثه مع اللجنة، تقدم نحو سمير ليقول له وكأنه يرغب في أن يُعلمه سراً،، بأنه لا يحب البقاء هنا في البلد، وربّما سيبقى حتى يحصل على الجنسية وجواز السفر،، وأضاف له أنه لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للناس أن تعيش في بلد، لا يسمعون فيه الأذان للصلاة، يُجلجل عن طريق مكبرات الصوت، خمس مرّات في اليوم، لكي يتنبه الناس لموعد الصلاة....، ولمقابلة ربهم الذي أنعم عليهم...،،

ويقول أيضاً أن هذا الشاب قال له... إنه لا يعتقد من الصحيح ولا يجوز شرعاً، أن يعيش في بلد لا يعرف الناس فيه قيمة الإيمان... ولا يؤمنون بأنهم يجب أن يلتزموا بكل تعاليم الدين....،

هذا وأستودعكم الله وإلى اللقاء غداً صباحاً...!

وأثناء نهوضه ليخرج من غرفة المعيشة، تذكر مجيئ فرانك للبقالة، فاستدار ليقول لأبيه:

- نسيت أن أقول لك بأن فرانك قد جاء للبقالة الليلة...

وكان قلقاً كثيراً عليك...،

- وماذا أخبرته..؟
- لقد قلت له أن لا يقلق، لأنك يا أبا علي... أقوى من أن تحتاج أن نقلق عليك نحن...،
- شكرا لك على هذه الثقة العالية....،،

- عفواً... كما أنه قد أوصاني أن أوصل لك رسالة يقول محتواها أن الناس يعانون من الملل هنا، وأن مشكلتهم الكبيرة هي أنهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع هذا الملل...، وأنا في الحقيقة لم أفهم ماذا أراد أن يقول في الرسالة، غير أنني قد تصورت أن فرانك ربما قصد إرسال شيفرة لك، حول موضوع معين ومهم، فأنت يا أبي تحتاج أن يتحدث معك الآخرون عن طريق الشيفرة، فالحديث الواضح والمباشر يفقد الكثير من معاني الكلمات.....،
- أحسنت يا..... فرانك...،، أما أنت يا علي.. فشكراً لك وإذهب الآن للنوم...،

عادت زينب لتعلق على ما ذكره علي عن صديقه سمير، وعن ذاك الشاب اللاجئ الذي لا تعجبه الحياة في هذا البلد...
ولكنها لم تنس أن تعود لموضوع تشبيه حسين نفسه بإبريق الشاي الخزفي... فقالت:

- قبل أن أتكلم تعقيباً على كلام علي... هل يمكنك أن تقول لي ما سرّ تشبيهك لنفسك بأنك مثل إبريق الشاي؟
هل أنت فعلاً تعتبر نفسك أنك تعاني لحد الآن...؟
وهل تقارن معاناتك.. حتى لو كنت تعاني اليوم.. بمعاناة من قد كتب عليهم أن يظلّوا مدفونين في أركان وزوايا هذا العالم، ولا يعرف عنهم أحد ما يعانون منه...؟
وأنت تعلم أنه ما يزال الكثير من معارفك من يعيشون داخل العراق ويعانون من الظلم والفقر والخوف....،
- يبدو أننا مازلنا نعيش أنتِ في وادٍ وأنا في واد....،، وليس من فائدة في الشرح من جديد وإعادة الكلام....، فلماذا لا تذهبين

للنوم وتتركيني مع فكري، أتصارع معه لأخرج بنتيجة عما يدور حولنا...

- نعم... سأذهب للنوم.. ولكن ليس قبل أن تقول لي ما رأيك بما سمعته من كلام علي... وما ذكره عن صديقه سمير وهذا الشاب اللاجئ الجديد... هل تتصور أن مثل هذا الشاب يمكن أن يتغير تفكيره في المستقبل عن هذا البلد... بعد أن يشهد منافعه....؟
- أنا فكري مشتت الآن بين كثير من المسائل... وهذه واحدة منها... ولا أريد أن تنشغلي أنت فيما أنا منشغل به... وكذلك لا داعي لأن تفكري في هذا الأمر، لأنه لن يوصلك لشيئ غير الإنشغال من دون فائدة ترتجيها.. وأقترح أن تتركي وقتك للمساعدة في تربية أحفادك.. الحاليين والقادمين منهم...،
- وهل تعتقد أن أبنائنا وأحفادنا سيكونون بمأمن هنا في هذا البلد...؟
- ومَنْ هذا الذي يستطيع أن يجرؤ ويتنبأ الآن.. بما يمكن أن يحدث بعد عشر سنوات... أنا شخصياً لا أتوقع خيراً... فالنكبات تلحق بالعالم وتطارده، وتزداد تراكماً وتعقيداً.. وفي كل منها هنالك إحتمال... بأن شيئاً ما مفقوداً... شيئاً لن يمكننا نحن الضعفاء أن نعرفه... إنه عالم الأقوياء.....،

نعم هو عالم الأقوياء...، والضعفاء يخطئون إن تصوروا أنهم يوماً ما سيكون لهم فيه نصيب....!

والنوم... لنا جميعاً.... أفضل وأنسب....،،

وليس هنالك ما هو أفضل من النوم الأبدي.....!

*****

فرانك... وصباح يوم جديد

إستيقظ فرانك صباح اليوم التالي، ولم يكن قد خلد للنوم ليلة البارحة إلّا بعد أن تجاوزت الساعة الثانية ليلاً. كانت الأخبار تتكرر على شاشات القنوات التلفزيونية، والتي كانت معظمها تغطي آخر أخبار موجات اللاجئين النازحين من بلده العراق، ومن سوريا التي إزدادت مشكلتها وتفاقمت، وبدون وضوح لسبب معقول وراء المشكلة من أساسها... كما يبدو أن المئات من النازحين والهاربين من دول أخرى، قد (تجحفلوا) معهم وإستغلّوا الوضع، لينضمّوا لأبناء هذين البلدين، لكي يحصلوا على فرصة للجوء في إحدى البلدان الغربية... والكثير من هؤلاء كانوا يحاولون تقمّص هوية مواطنين من العراق أو سوريا، إلّا أؤلئك الذين لم تسعفهم تقاطيع وملامح وجوههم، في إخفاء أصولهم ومواطنهم الحقيقية...،،

إنه هو... هذا الأصل والموطن الذي عمل الكثيرون من البشر، على التخلّص من آثاره أو تغييره وتجاوزه، ولم يفلح منهم إلّا القليل عبر حقب التأريخ الطويل...، فقد ظلّ هذا الأصل ملاصقاً لأبنائه ولمن ينحدرون منه، وظلّ يطارد الكثيرين كما لو كان كابوساً،، حتى بلغت

أعمارهم نهاياتها،، ولم يرَوا يوماً من دون أن يُشار لهم فيه بأصلهم...! حتى أصبح الكثيرون منهم يحقدون على أصولهم، ويتمنى البعض منهم لو لم تلده أمه من هذا الأصل، ولكن هيهات، فقد كتبت الأقدار عليهم أن يعيشوا تحت ظلال الفئة المنهزمة المدحورة...،، ومهما فعلوا وإجتهدوا، فلن يهدأ لهم بال ويهنأوا بعيش مادام هنالك من يؤشر صوبهم بإصبعه...،،

"من أيِّ من أبناء نوح... أنتم...،؟!"

إنهم آلاف النازحين،، كلهم مهاجرين... يلعنون بلدانهم، ويعلنون غضبهم عليها... من النساء والأطفال والرجال، شيباً وشبّاناً،، كانوا كلهم يتدافعون للنزول من تلك الزوارق المطاطيّة الخفيفة بعد أن نجحوا في بلوغ اليابسة، ولا أحد غيرهم يعرف كم يوماً قد قضوه في البحر بين الأمواج المتلاطمة في هذا الشتاء البارد...، إنهم سعداء لأن أمواج البحر لم تبتلعهم..، وسعداء لبلوغهم اليابسة..، وإنه ليصعب على من يعيش على اليابسة... أن يتصور كيف إستطاع هؤلاء أن يقضوا تلك الفترة التي لابد أنها قد تجاوزت اليوم.. أو ربما أكثر في هذه الزوارق الصغيرة...؟
ترى ماذا كانوا يأكلون ويشربون... ومعهم هؤلاء الأطفال..؟
ترى كيف كانوا يقضون.... حاجاتهم..؟
إنه أمر مريع ومقزز... ولا يمكن تصوره...،،

هنا تذكّر فرانك عمَّه الذي كان يستغرب من الناس الذين يركبون الطائرات للسفر، كان يستغرب منهم كيف أنهم يثقون بهذه الطائرة،، وكان يقول بشكل صريح وبإصرار أمام الجميع عن الذين يركبون الطائرات:

"إنهم مجانين، كيف يركبون الطائرة ويرتفعون فيها هكذا؟

ماذا سيقولون لأنفسهم عندما ينظرون إلى الأسفل؟
ليس هنالك ما يمكنهم قوله أفضل من...:
هنيئاً لكم يا من أنتم على الأرض!"

كانت مقولة عمه البسيط التعليم والتفكير، تمثل تفكير وعقلية نسبة كبيرة من الناس في تلك السنين، عندما كان الناس يحرصون على حياتهم من أقل الأشياء خطورة، فلم تكن هنالك حوادث سيارات مفزعة كما نسمع عنها هذه السنين، ولم تكن حتى حوادث الطائرات كثيرة، صحيح أن الطيران نفسه قد إزداد ربما مئات المرّات أو أكثر عما سبق، لكن الناس لايعيرون هذا المقياس أهمية فهم ينظرون إلى النتيجة النهائية..، وهي أن الكثير من الضحايا هم في الحقيقة نتيجة لهذه المدنية الجارفة...،،
ولكن الذي يصعب تفسيره الآن هو... لماذا مع هذه المدنية والتطور قد إزدادت الحالات التي يُقتل فيها الإنسان...،،
والأهم من ذلك عندما يقتل إنسان إنساناً آخر،، والتي غالباً ما يكون القتل فيها بدون سبب مقنع..؟!
والكثير من أحداث هذا القتل... هو قتل ديني أو طائفي أو عنصري بين جميع الأديان والطوائف والأقوام، والذي لم تشهد له البشرية مثيلاً من قبل... فقد أصبح أشبه ما يكون قتلاً (شمولياً)،، وقد أوجدت المدنية مؤخراً تعبيراً أسمته (أسلحة الدمار الشامل) والتي يقتصر إمتلاكها على الدول العظمى..، وبعض من الدول التي إستطاعت أن تفلت أو أن يتم تسهيل إفلاتها من العقوبات، وبعد أن سَهّلت لها الدول العظمى تصنيع أو إمتلاك هذه الأسلحة، ثم من بعد ذلك أصبح الأفراد والمجموعات الدينية والعنصرية إلى حد بعيد... يقومون بما هو قريب الشبه بالقتل بأسلحة دمار شامل من نوع آخر...، فلم تعد الأسلحة الكيماوية ولا التفجيرية العنيفة والعظيمة التأثير بمقتصرة على

الدول..، بل هنالك الكثير من الأفراد والجماعات من يمتلكونها، وإستخدموها فعلاً، وفي أكثر من موقع، وأبادوا فيها المئات وربما الآلاف من الناس...،،
وما تزال هنالك منظمة إسمها "الأمم المتحدة" و"مجلس أمن" تابع لها، يتحدثان عن دور لهما في شيئ ضبابي يسمّونه.. السلم العالمي...!
بل أكثر من ذلك إنها تجبي إشتراكات الدول فيها لتمشية مستحقات رواتب كوادرها التي يُفترض أنها تعمل لصالح البشرية.... أو على أقل تقدير هكذا هم يقولون..!

عندما شاهد فرانك معاناة هؤلاء الناس في محاولتهم للجوء إلى مواطن آمنة، إعتبر أن ما مرّ به هو وزوجته بريجيت قبل خمسة عشر عاماً، لم يكن غير نزهة مرّوا خلالها ببعض الأمور العسيرة التي سرعان ما زالت وإنتهت...،
وبقدر معلوماته وثقافته فإنه لا يستطيع أن يعطي تفسيراً مقنعاً لما يحدث الآن...، فلقد كان يتصور أن موجات الهجرة واللجوء ستتوقف بعد سنوات من بداية تلك الحرب... التي قيل عنها أنها بقصد تغيير النظام في العراق.. لكن الهجرة إستمرت وإنتشرت رقعتها وزاد عدد البلدان التي يهاجر أبنائها..، ودمار البلدان مستمر ويزيد... هذه البلدان هي أصلاً كانت مُدَمَّرة،، دمَّرها حُكامُها والبعض من أهلها،، ثم إجتمعت عليها دول العالم، من تلك التي حولها وأخرى بعيدة عنها، لتزيد في دمارها... إنه لا يستطيع أن يجد إجابة لسؤاله، إنه بحاجة ماسّة إلى حسين لكي يفسر له ماذا يحدث..،،

"هل هذا هو وقت الإعتكاف يا حسين....؟"
"ماذا تفعل في البيت.. وحدك... أنا أعلم أنك وحدك...؟"
"نعم أعلم أن زوجتك زينب معك.."

"ولكن هل ستتحدث معها عمّا يدور في هذا العالم...؟"
"الدنيا من حولنا تغلي وتشتعل في آن واحد...."
"هذا لن ينفعك ولن ينفعني.. لابد لي أن أكلمك اليوم...،"
"نعم سوف أطلبه بالتلفون في الساعة العاشرة...."
"وأرجوا أن يجيب على مكالمتي....!"

مرّ الوقت ثقيلاً على فرانك وهو ينتظر الساعة العاشرة لكي يتصل بحسين...، قام بما عليه فعله من توصيل إبنته كارول للمدرسة كالمعتاد..، ثم جائته مكالمة من مكتب السيارات يطلبونه لأجرة للمطار، أنهى هذه المشاوير بدون أن يُعلّق بينه وبين نفسه على أيّ منها، وبقي يأمل أن يتحدث اليوم مع حسين..، في العاشرة أو بعد العاشرة، المهم أنه سيحاول فهم ما يدور من حوله...،،

لا يمكن أن تكون الحياة مجرد أن يحمي فيها الإنسان نفسه... ولا يهمّه ما يجري حوله...،،
لم يكن قد شعر بمثل خطورة هذا الوضع مثل ما يشعر به الآن.. مازال منظر أؤلئك الناس المتكدّسين في القارب الصغير أمام عينيه، وكأنه يوم من أيام الحشر...،،
إنه لا يستطيع أن يتصور كيف سيكون وضع الناس في يوم الحشر...؟
لكن ما رآه على شاشة التلفزيون ليس بقليل....،
إنه الآن مرعوب من مجرد التصوّر... ماذا كان سيكون وضعه هو وبريجيت... لو أنهم كانوا مع هؤلاء القادمين على هذه القوارب الصغيرة...؟!

عند حلول الساعة العاشرة صباحاً، إتصل برقم تلفون حسين لكي يتحدث معه...، بعد أن توقف في إحدى مواقع التسوق (پلازا)....،

وكم كانت فرحته كبيرة عندما أجابه حسين... بواحدة من جمله الترحيبية المعتادة....:

- أهلاً.... بمن جائنا ليسأل عنا...،،
- أين أنت... لقد مرّت علي ليلة كاملة من القلق.. منذ أن جئتك للبقالة أمس ولم أجدك....
- مادمت قد أصبحت تقلق،، فهذا يعني أنك أصبحت تعيش..،، وأصبحت موجوداً بحكم الواقع والحكمة... وبحكم فلسفتي.... فلسفة حسين الواقعية.....،،
- تعني أن العيشة لا يمكن أن تكون إلّا بالقلق...!
لعن الله عيشة كهذه....!
- لا... هي من الممكن أن تكون بدون قلق...
ولكن فقط لبعض الحيوانات من الدرجات الدنيا في سلَّم التطور....،،
وأيضاً للكثير من القتلة والسرّاق المجرمين....،،
ومن يكذبون على الآخرين....
هؤلاء لا يقلقون في العادة،، لأنهم لو كانوا يقلقون لما إرتكبوا الفعل السيئ...
- أنا كما أقول لك دائماً.. لن أستطيع مجاراتك بما لديك من حكمة ومعرفة...،،
فهل أنت لقمان الحكيم...؟
وحتى لو كنت لقمان الحكيم...
أعتقد أنك يجب أن تجعل في حكمتك شيئاً مما نستطيع فهمه... وأن لا تبقيها ألغازاً نعجز عن تفسيرها....،
- ملاحظاتك حلوة...، ولطيفة...، وأعجبتني...،
لكن دعكَ من لقمان وحكمته... أين أنت الآن...؟

- أنا في الشارع ومعي أسئلة كثيرة...، كلها بحاجة لإجابة...، إسئلة عن هذه الإنسانية البائسة التعيسة... فما رأيك...؟
- ولماذا لا تسألها للأمم المتحدة...؟!
أو ربما للجامعة العربية..!
أو منظمة الدول الإسلامية...!
أو أي منظمة أخرى لديها الكثير من الأموال...!
والكثير من المرتزقة الذين يعملون فيها....،
فهم وحدهم من يستطيعون الجواب على الأسئلة الإنسانية...!
لكن مع هذا فأنا أعرف وأقدِّر وضعك وأرثي لحالك أيها الصديق المسكين....،،
فإذا كان لديك وقت تعال عندي للبيت لنشرب معا كأساً... كأساً من الشاي... وليس كأساً آخر... وإجلب معك أسئلتك...،،
- سأكون معك خلال ربع ساعة...،
هل تعتقد أنني سأتركك اليوم...؟

*****

في بيت حسين

وصل فرانك إلى بيت حسين الذي إستقبله عند الباب ودخلا للبيت معاً، وكان أول سؤال سأله فرانك إن كانت أم علي في البيت... أجابه حسين أنها غير موجودة، وأنها ذهبت لكي تقف في البقالة لساعتين، لأن علي مرتبط بموعد، وستعود بعد أن يعود علي من موعده...،

بعد أن جلسا، وبقيا بدون أن يتكلما لثوانٍ...، قال حسين لفرانك:

- أخبرني علي البارحة أنك أتيت للبقالة كما إتفقنا، وإنك إستغربت لأنني لم أكن موجوداً.... وأنك تركت لي رسالة.... وقد أعجبتني الرسالة... ولكن لنترك ماحدث بالأمس ونتكلم عمّا يشغلك من الأمس لليوم، وماهو هذا الذي يجعلك قلقاً...؟

فأنا لا أجد في الأخبار أيّ جديد، إلا إذا كانت لديك أخبارك من مصادرك الخاصّة... كما يقولها دائماً الكاذبون من أجهزة الإعلام في هذه السنين، عندما يريدون أن يكذبوا كذبة أو يدّعون أن لديهم خبراً خاصاً بهم.....،

وهذا ما يفعله السياسيّون أيضاً...،،

- هل شاهدت البارحة الأخبار على التلفزيون؟

لقد كانت على معظم القنوات...،،

- نعم شاهدت البعض منها، ولم يكن فيها شيئ جديد... إذا كنت تقصد أخبار اللاجئين الهاربين من بلدانهم... أو ربما أنهم مُهَرَّبون من بلدانهم..!

يُهرّبونهم لكي يختلطوا مع اللاجئين الحقيقيين المغلوبين على أمرهم...، أعني أنهم أؤلئك الذين تبعثهم المنظمات المختلفة لخلق مشكلات في البلدان الغربية.. والغرض من ذلك هو أمر كبير وخطير...،،

إنه أمر مازال غير معروف من هو الذي يقف فعلياً وراء ذلك ويمدّه بالدعم...،،

- لم أفهم قصدك... فيما تعنيه عن هؤلاء...،،

لكنني بالفعل ما أقصد سؤالك عنه هو هذا الموضوع، أحوال هؤلاء اللاجئين.. الذين يبدو لي أن أعدادهم كبيرة جداً وقد كانت حالتهم مزرية....،

ولكني لم أفهم ما تقصده عن اللاجئين المُهَرَّبين...؟

وماذا عمّا يدور في البُلدان هناك... هل تتوقع أن تستمر هذه الحالة في نزوح الآلاف من هؤلاء المساكين...؟

- ..... ليسوا كلهم مساكين... فالبعض منهم يندفعون لمهمة خاصة بهم، ومدفوعة تكاليف رحلاتهم منذ البداية، والمقصود هو وصولهم لهذه البلدان المختلفة... لكي يدخلوها ويستقرّوا فيها... لغرض في نفوس من يدفعهم لكي يبلغوا هذه البلدان بشكل خاص.. ثم من بعد ذلك يتحركون في الوقت المناسب، بأوامر ممن دفعهم ودفع أجوراً لتوصيلهم لمواقعهم الجديدة... لن يجدوا فرصة أفضل للوصول لهذه البلدان مثل هذه الفرصة...!

- هل تعني أن فيهم من لا يستحقون أن نشفق عليهم، وعلى ما يبدو أنها معاناة يعيشونها...؟

- أنا لست في موقع يؤهلني الحكم على من يستحق الشفقة ممن لا يستحقها...
لأنني أعتقد أننا سنحتاج في يوم قريب أن نشفق على أنفسنا... قبل أن نشفق على أحد آخر.....!
- ماذا تقصد... أبو علي... إنك تزيد من حيرتي... أنا جئتك لكي أعرف منك ما أستطيع به معرفة حقيقة ما يحدث... لكنني أراك تزيد من حيرتي...،،
- ألم أقل لك...، لماذا لم تسأل أسئلتك هذه للأمم المتحدة.....؟!
- أنت بالنسبة لي أكثر من الأمم المتحدة....!
أنا لا أقصد أن لديك معلومات بقدرهم....،،
لكن الصدق والحقيقة هي ما نحتاجها لمعرفة ما يدور حولنا..، أين يمكن أن نجد الصادقين....؟
بالتأكيد ليس في الأمم المتحدة....!
- أنا أقول لك ما أعرفه.. وما أقرأه ما بين السطور في الأحداث والتصريحات، ولن أتقمّص شخصيّة المحلّل، مثل هؤلاء الآلاف.... الذين طلعوا علينا في آخر هذا الزمن وكل منهم يدّعي أنه محلّل سياسي...،
وتساعدهم أجهزة الإعلام ناقصة العقل بأن تكتب تحت أسماءهم.... محلّل سياسي.. ومن دون أن يقدّموا عن هذا الشخص أو ذاك أي شيئ مما يدعوا لإعتباره محلّلاً سياسياً.... وتساهم بذلك في خداع الناس وتضليلهم.. وبالمناسبة لابد لك أن تعلم أنه لا توجد دراسة ولا شهادة... تؤدي بالشخص أن يصبح محلّلاً سياسياً...،
فلا تسألني بعد اليوم من هو المحلّل السياسي....!!
- نعم... نعم... وتصديقاً لكلامك ما سمعته قبل أسبوعين، من أحد معارفي هنا، ما قد سمعه هو من أحد أقاربه في العراق

وهي حكاية طريفة وأعرف أنه ليس وقتها الآن، ولكنها قد تُخَفِّف عنا ثقل دم هذا الموضوع عندما أتذكرها، وقد تخفف من ثِقَل الهمّ الذي يقع على صدري....،،

- هاتها ولنسمعها مرة أخرى إذا كنت أنا قد سمعتها من قبل... فأنا أيضاً مهموم إلى حد أنفي... وقد تُخَفِّف هذه من همومي..،
- لقد ذكرها لي صديق كما أقول لك... وهي:

أنه في أيام الحرب بين العراق وإيران كان هنالك شخص يقال له (حمّودي فتيلة) يسكن في منطقة شعبية، ويعمل مصلّحاً للمدافئ النفطية التي تشتغل على النفط وبالفتيلة...، في السوق الشعبي لمنطقته، ويبدو أن حمّودي هذا لم يكن متعلماً ولا يحمل شهادة لها قيمة، كما أنه كان متهرباً من الخدمة العسكرية... ولكنه في نفس الوقت كان يُعَلّق على مقدمة محل عمله لوحات مكتوب عليها:

(كلنا فداء لحدود الوطن)...

إلى أن حدث في يوم... وجاءت للمنطقة مجموعة من قوة الإنضباط العسكري، للقبض على المتهربين من الخدمة العسكرية، وقبضوا على حمّودي وكان مصيره أن ألقي في السجن...، وبعد سنين جاءه العفو العام وخرج من السجن، وبعدها بسنوات أخرى وبعد أن تغير النظام السابق وجاء النظام الجديد... وإذا به في يوم من الأيام... يظهر على شاشة التلفزيون ضيفاً على إحدى القنوات الفضائية.. وتحت إسمه مكتوب أنه (محلّل سياسي)...!

وكان حمّودي يتحدث عن أوضاع البلد المنكوب والمنهوب...! والشباب العاطل بلا عمل... ويقدم رؤيته وتحليله للمشكلة...،

أنا الآن وأنا أحكيها لك بدأت أشعر بالإشمئزاز، بعد أن كنت قد ضحكت عليها أول مرّة سمعتها....،،

كيف يمكن أن تتغير نظرة الإنسان للأمور بهذا الشكل...؟

- أنت بدأت الآن تشعر بالإشمئزاز... لأنك بدأت تعيش الحالة المزرية التي نمرّ بها.. وهذا هو الصحيح وليس عكسه.. الناس لم تعد تعرف على ماذا تضحك،، حتى الكثير من النكات التي نسمعها... هي في الحقيقة يجب أن تمثل الكثير من الألم لنا بدلاً من أن نضحك عليها.... وأنا الآن تحضرني واحدة من مثيلاتها سأقولها لك لأرى ماذا تشعر عندما تسمعها...؟
لكنني لن أقولها لك الآن... بل بعد أن نشرب الشاي...،

*****

المهاجرون الجدد.. والحزب الحاكم

في المدينة التي يشيع فيها المهاجرون ويزدادون يوماً بعد يوم، يبدأ البعض من الناس بتداول الأخبار عن المهاجرين ــ اللاجئين الجدد، وتتنوع ردود الفعل تجاه أخبار ترحيب الحكومة بهم وإستعدادها لقبول الأعداد الكبيرة منهم - لدوافع إنسانية - كما تدّعي أجهزة الإعلام، التي تحاول دوماً تسويق وجهة نظر الحزب الحاكم الذي تنتمي إليه عندما يدعو هذا الحزب لتأييد إتجاه ما...،،

لكن الناس في هذه البلدان، يتمتعون بقدر كبير من الحرية في التفكير، والقدرة على إختيار وإعلان الموقف الخاص بهم وبدون خوف أو تردد، ولهم القدرة على الإبتعاد نوعاً ما عن تأثير الإعلام عليهم، ولذا فإنهم في الكثير من الحالات لا يثقون بوجهة نظر الحكومة، ولا بأجهزة الإعلام التي تغطي الأحداث بالطريقة التي تحلوا لها... وتصبّ في ما تسعى له...،

ومن هنا فإن كثيراً من الناس الذين يعملون ويجِدّون في سبيل تحصيل معيشتهم، يبقون في شك من دوافع الحكومة في إستقبالها لهذه الأعداد

الكبيرة من المهاجرين، وقبل أن تعرف حتى الحكومة أين سيكون المأوى الذي سيحلّون فيه، ولا كم ستتكلف في الإنفاق عليهم، حتى يصلوا للمرحلة التي يستطيعون عندها الإندماج في المجتمع، ويتمكنون من الحصول على عمل لكي يعيلوا أنفسهم وعوائلهم...،

ولكن مع ذلك فإنه في الكثير من الحالات تلعب طبيعة الناس التي قد يغلب عليها اللامبالاة... دوراً كبيراً في مثل هذه الحالات... فلا يقفون وقفة صارمة في وجه توجهات حكوماتهم... عندما يشعرون بأن الحكومة قد أولت إهتمامها لأمور لا تعني الكثير لمواطنيها، ولا تصبُّ في صالحهم... وحتى لو أنهم وقفوا في وجهها، فإن ذلك يكون في الغالب متأخر جداً....،،

والحكومات هذه غالباً لا يبدو عليها أنها تعرف إلى أي مدىً ستظلّ تدعم اللاجئين الجدد... وهل يمكن القول أن القصد من قبولها لهم.. أنها ستظَلّ تصرف عليهم إلى أجل غير محدد...؟

هل يمكن أن يحدث هذا...؟
ثمّ..، هل أن الحكومة تعرف أساساً مدى قدرة هؤلاء على الإندماج بهذا المجتمع...؟
مع ما يُفترض من علمها المسبق بالإختلاف بين ما قد إعتاد عليه المهاجرون هؤلاء في بلدانهم الأولى، وما قد بُني عليه هذا المجتمع من قوانين وقِيَم وإعتبارات...؟

وهل أنها تعرف فيما إذا كان المهاجرون الجدد... يرغبون أصلاً أو لديهم الإستعداد لأن يندمجوا بهذا المجتمع...؟

أليست هذه مجازفة تقوم بها الحكومة من دون معرفتها بإمكانية ما قد يحدث من أمور مستقبلية....؟

هل أن الحكومة فعلاً بما فيها من أشخاص يحتلون مناصب رسميّة، من أولئك الذين يُنَظِّرون لها ولمواقفها الآنية، يعرفون حقيقة ما يفعلون...؟
ثمّ... هل أن الحكومة مستعدة لتقبل نتائج أفعالها...؟
أم أنها فقط تبني سلوكها ومواقفها الآنية على الرغبة في تحقيق نصر إنتخابي جديد...، بعد أن يُصبح هؤلاء الذين سعت لجلبهم بهذه الصفة، مواطنين يستطيعون الإدلاء بأصواتهم في الإنتخابات....،،

في هذه المدينة، يبدأ الناس بالحديث عن مظاهر كثيرة... يبدو أنها بدأت تظهر على نسبة يصعب معرفتها بين هؤلاء المهاجرين الجدد...، إنها مظاهر تتناقض مع كونهم لاجئين وصلوا حديثاً للبلاد... ومن المفترض أنهم لا يمتلكون أموالاً يمكنهم أن ينفقوها، على ما يعتبر إلى حد بعيد غير ضروري في هذا الوقت... أول وصولهم لبلد اللجوء....!

كان ذلك عندما بدأ الناس يتناقلون أخباراً عن البعض من هؤلاء اللاجئين، من الذين سارعوا لإرتياد نوادي اللياقة البدنية والرياضية الخاصّة، والتي تقدم خدمات اللياقة البدنية... والتي يدفع الناس إشتراكات للإنتماء إليها... في الوقت الذي ينزوي آخرون ممن جائوا معهم، متقوقعين على أنفسهم لا يودّون الإختلاط بأحد... ويسعون للحصول على ما يرغبون فيه لأنفسهم فقط وبمعزل عن الآخرين، مثل سعيهم للحصول على مدارس خاصة لتعليم أبنائهم.. ومساجد خاصة لهم ليتجمعوا فيها في المناسبات الدينية... ولم يكن التمييز سهلاً بين الظاهرتين.. إذ أنه صعب جداً في معظم الحالات بالإعتماد على

مظهرهم...، وربّما أن هنالك حاجة كبيرة لسبر غور ما في نفوس هؤلاء قبل التأكد من توجهاتهم.. وهذه مسألة لن تكون سهلة على من لم يتعرفوا على هذه الثقافة المجتمعية المتزمتة التي جائت للبلاد...،،
فهناك الكثير من هؤلاء الذين لا يبدو عليهم أنهم سيرتاحون فعلاً للحياة في بيئة مثل هذه التي تسود في هذا المجتمع الجديد...،،

إنها بيئة يدور فيها الكثير مما لا يُقرّونه ولا يعتبرون أنهم مُلزمون بالتعايش معه...،
فهؤلاء يبدو عليهم أنهم أناس عقائديون لهم أولويّاتهم وعليهم إلتزاماتهم...،
وليس مهماً لديهم أن يتقبّلهم المجتمع الجديد الذي لجأوا إليه...،
أكثر مما هو مهم لهم أن يتقبلوا هم هذا المجتمع...،
ربما سيتقبلونه بعد أن يغيّرونه للحال الذي يسعون له ويرتضونه...!
إنهم لا يعتبرون مدى تقبّل المجتمع الجديد لهم، أكثر أهميّة من مسعاهم العقائدي هم أنفسهم... مسعاهم لتغيير القيّم التي يقوم عليها هذا المجتمع تدريجيّاً... ومن خلال أساليب كثيرة...!
فهم يعتبرون أنفسهم في مهمة كبيرة تعني الكثير بالنسبة لهم...،،
وهم لا يختلفون كثيراً عن أؤلئك الذين سبقوهم من العقائديين...،،
بل في الحقيقة هم أكثر إلتزاماً وحرصاً على تنفيذ ما تأمرهم به عقيدتهم... وقد يكونوا أكثر معرفة بعقيدتهم من غيرهم... ربما...!

وهنا عندما يحين أوان هذا الأمر ويحدث... ستحلّ إشكالية كبيرة..!
إشكاليّة سيتحمل وزرها الجميع....!
فالحكومة لن تستطيع بخبرتها البسيطة المجرّدة معرفة من هم العقائديون...؟ لكي تستطيع أن تُميّزهم من غيرهم من الناس البسطاء... غير العدوانيين والمساكين الذين دفع بهم القهر والقمع - الذي تعرضوا

له من عدة جهات- إلى أن يتركوا أوطانهم ويستغنوا عن ممتلكاتهم، فهؤلاء الذين فرضوا أنفسهم على من يحتاج فعلاً للهجرة...،
جميعهم لا يحملون أوراقاً رسمية تستطيع الحكومة أن تعرفهم من خلالها...،
ومن المؤكد أن الحكومة التي سعت لقبول هؤلاء الناس... لن تستطيع الخوض في إشكاليات ما يمكن أن يحدث في كل ساعة.. في هذه المدينة الكبيرة أو غيرها من المدن... التي بدأت الأمور فيها تسير نحو حافة المواجهة...،

من الذي سيتطوع... أو ستكون عليه مسؤولية حلّ الإشكالات عندما تحدث...؟
وكيف سيكون شكل الحلّ..؟
وعلى أي قانون سيعتمد...؟
وهل نحن مقبلون على فوضى تتسبب بها نزعات سياسيين...،
لا يسعون لغير أن ينتخبهم الناس مرّة أخرى....؟

أليس هذا شكل من أشكال الفساد الجديد...؟
فساد يطلع علينا به سياسيّون يعتبرون أنفسهم متصدّين لخدمة الناس والمجتمع، في حين أنهم يدفعون بالمجتمع نحو الهاوية...،
وهذه واحدة من أكثر الهاويات عمقاً، وسَحقاً وتدميراً للمجتمعات....،،

*****

بريجيت و كارول

بعد أن غادر فرانك البيت في الصباح مصطحباً إبنته كارول للمدرسة، عادت بريجيت كعادتها للنوم مرة أخرى... لتكمل نومها المتقطع بسبب العمل في الفترة الليلية في المستشفى، وبعد أن إستيقضت كانت الساعة قد تجاوزت بقليل الحادية عشر صباحاً، وكان مايزال لديها وقت طويل للإسترخاء أمام شاشة التلفزيون لمتابعة بعض البرامج التي ترغب في مشاهدتها، وأهمّها البرنامج الذي يتطرّق للمشكلات التي تواجه الناس في المجتمع، والذي يحضر فيه أصحاب المشكلة أنفسهم ليتحدثوا عن مشكلتهم بصراحة وبإنفتاح، أمام جمهور محدود العدد من الحاضرين في الأستوديو، وجمهور آخر لايعلم أحد عدده...، وهم الذين يشاهدوا هذا البرنامج عبر شاشات التلفزيون مثل ما تفعله بريجيت...،،

لقد كانت بريجيت في بداية معرفتها بهذه البرامج، لا تستطيع أن تُصدِّق أن هؤلاء الذين يتحدثون عن أنفسهم بهذا الشكل، هم أشخاص إعتياديون وليسوا ممثلين، وأنهم فعلاً يتحدثون عن مشكلاتهم الشخصية وعن علاقاتهم بعوائلهم وأصدقائهم، فقد كان من الصعب عليها أن تصدق أن هنالك من لديه الإستعداد للتحدث بهذه الحرية عن

ما كان يفعله من أفعال سيئة مع نفسه ومع الآخرين... فالكثير منهم يتحدثون مثلاً عن مشكلات إدمان لديهم يعانون منها، وغيرهم يتحدثون عما يعانونه من مشكلات شذوذ مختلفة، وآخرون ممن يتعرضون للإساءة من قبل أفراد من عائلاتهم، وربما حتى من والديهم، أو من أزواجهم، وهكذا كانت بريجيت تَنشَدُّ دوماً لمشاهدة مثل هذه البرامج، واليوم ولأول مرّة خطرت ببالها مسألة لم تكن تُعِرها في السابق أهمية كبيرة... وتلك هي...

أنها لا تعرف الكثير عن صديقات إبنتها في المدرسة...،

ولا تعرف كيف هي الأجواء العائلية التي يعيشونها في بيوتهم...؟

وهل أن عوائلهم يعيشون حياة عائلية هادئة مستقرّة، بحيث لا تؤثر على نفسية البنات صديقات إبنتها كارول....؟

إنه من الواضح أن بريجيت ليست معنية مباشرة بأي مشكلة، قد تعاني منها إحدى صديقات إبنتها على سبيل المثال، بقدر ما أنها معنية بما يمكن أن تؤثر تلك المشكلة على نفسية وسلوك إبنتها، التي يمكن أن تتأثر بهذه الصديقة التي تعيش في أجواء عائلية غير سليمة... وبريجيت لا تستطيع أن تتخلص من طريقة تفكيرها التي تربَّت ونشأت عليها، عندما كانت تعيش في بلدها الأول... العراق، حيث كان الناس يعيشون في معظم الحالات في مراقبة ومتابعة أخبار وسلوك أبنائهم، من خلال محاولاتهم معرفة مدى سلامة أخلاق أصدقاء أبنائهم، وهم في الحقيقة لا يخطر في بالهم أن أبنائهم قد يكونوا هم من يتسبب بإحداث أثر سلبي في سلوك أصدقائهم، وعلى العكس مما هم يخشون منه...!

ما تزال بريجيت مثل معظم من تربّت معهم أو على يدهم في بلدها الأول، الذين يعتقدون بأنهم يجب أن لا يثقوا بالآخرين ثقة كبيرة، إلّا بعد أن يُقدِّم الآخرون لهم الكثير من الإثباتات بأنهم يستحقون الثقة

فعلا....! ومن هنا فقد رأت بريجيت نفسها أنها مُقصّرة في هذا الجانب من رعايتها ومراقبتها لإبنتها، وأنها يجب أن تسلك أسلوباً أكثر جدية وتحريّاً في هذا الصدد لمعرفة ما يدور بين كارول وصديقاتها..، خصوصاً عندما تذهب كارول لمنازل صديقاتها بين فترة وأخرى.. كما هي العادة عندما يتبادل الأطفال الأصدقاء الزيارات بعضهم للبعض الآخر،، أمّا عندما تقوم صديقات كارول بزيارتها في بيتها، فإن بريجيت تكون موجودة في البيت وتعرف أغلب مايدور بينهم، ولكنها تعتقد أنها الآن تحتاج أيضاً للتركيز أكثر... حتى عندما تكون صديقات كارول معها في البيت... إنها المشكلة الدائمة التي تعاني منها بريجيت وهي أنها حذرة جداً وكأنها تعيش حياة الوحوش في الغابة، كما أنها مشغولة كثيراً وحياتها غير منتظمة تماماً، بفعل طبيعة عملها وأوقاته، وهذه هي الضريبة التي تدفعها هنا في هذا البلد الجديد....!
ولكن... هل يمكن أن يعيش الإنسان في بلد لا يدفع فيه ضريبة ما....؟
أو ربما ضرائب مختلفة الأشكال والقيمة والتأثير....،،

ثم بدأت بريجيت تذهب بعيداً في إسترسالها في التفكير بأمور لم تتواجه معها لحد هذا الوقت، لكنها تعرف أنها ستتواجه معها يوماً قريباً، عندما تكبر كارول وتصبح في عمر يحتاج إجابة صحيحة وواقعية عن الكثير من الأمور الحياتية...،
عندما تبدأ كارول بإثارة أسئلة عن موضوع الدين... مثلاً!

لقد عاشت بريجيت طفولتها وصباها وفترة مراهقتها حتى تجاوزت العشرين سنة بقليل في بغداد، في فترة لم يكن الناس فيها يتحدثون بصراحة وإنفتاح أو تمييز عن إنتمائهم الديني، بل كان هذا الموضوع غير مطروح إجتماعياً، بالرغم من أنه بلا أدنى شك لابد أن الكثيرين من الناس كانوا يقيمون وزناً لهذا الموضوع ولكن ليس بشكل منفتح،

حيث أن الصيغة العامة للحياة في المجتمع، لم يكن للدين فيها وجود أو وضوح في أي ركن من أركان الحياة، وربما أن الحكومة نفسها لم تكن تتسامح على ما يبدو مع من يبدي إهتماماً بهذا الموضوع أو يثيره...،
فقد كان للحكومة في بلدها الأول... رأيها وموقفها الصارم ومصالحها بهذا الخصوص في فترة من الفترات... وهذه كلها كانت مُلزمة للناس في البلد كله... وبالتأكيد لم يكن هنالك من يجرؤ على تجاوز الخطوط الحمراء، تلك التي كانت الحكومة في بلدها الأول تضعها للناس لكي يلتزموا بها.. وكانت العقوبات التي تقع على من يخالف أياً من تعليمات الحكومة، عقوبات لا يستطيع عموم الناس حتى مجرّد تصورها...،،

لقد كانت بريجيت تذهب للكنيسة مع والدتها ووالدها وإخوتها، في الأعياد والمناسبات الدينية التي يتمتع فيها المسيحيون بعطلة، ولم يكن ذلك بالنسبة لها يمثل أي أهمية ولا تعصب ديني في مجتمع غالبيته من المسلمين، ولم تكن تعتقد بأنها يجب أن تحافظ على هذا التقليد للإحتفاظ بدينها أو الإستمرار بالإلتزام به،، لقد كان شيئاً موروثاً يتعلق بعواطف الناس وليست له أيّ دلالة على تعصب أو تحزب للدين أو الإيمان الشديد به...،،
أما هنا في هذا البلد الجديد، فإنها أصبحت تحرص على الذهاب للكنيسة كل يوم أحد... وتأخذ معها إبنتها كارول، ويرافقهم فرانك في معظم المرّات عندما لا يكون مرتبطاً بعمل في سيارته..، وهذه الزيارة الأسبوعية للكنيسة مهمّة جداً لبريجيت، لأنها تهيئ لها الإلتقاء بالناس ممن تعرفهم وتحرص على الإلتقاء بهم وإدامة الصلة معهم، لأنها لا تعرف الكثير من الناس، لإنشغالها معظم الأوقات مابين العمل والبيت والإهتمام بإبنتها... وليس لديها الوقت لكي تضيّعه في ما لا ينفعها وينفع عائلتها،، إنها إمرأة عمليّة، وقد مرّت بسنوات من المعاناة والصبر... وإستطاعت أن تُثبت أقدامها في هذا المجتمع الجديد عليها

كلية، كما أنها إستطاعت أن تأخذ بيد زوجها فرانك.. الذي كان قبل أن يتزوجا يمرّ بفترات من فقدان الثقة بنفسه، وعدم الإتزان في مواقفه وقراراته، ولم يكن فرانك ومنذ أن وصل إلى هذا البلد الجديد، صاحب قدرة على إتخاذ قرار..، مهما كان هذا القرار بسيطاً أو مصيرياً...،،
لكنه كان قد إتّخذ قراراً مصيريّاً فعليّاً قبل وصوله لبلده الجديد...، وكان قراراً لا يُقدِمُ عليه إلّا من كان شخصاً جريئاً...، معتقداً وبقوة بما هو مقدم عليه...،
كان ذلك... قبل أن يلتقي بزوجته بريجيت...،

ذلك... عندما قرر أن يُبَدّلَ دينه....!
ومن بعد ذلك القرار،، أصبح لا يقوى على إتخاذ قرار في الكثير من الأمور، بل ترك القرارات كلها لبريجيت التي كانت على مستوى المسؤولية فعليّاً.....،،

لم تقرّر بريجيت ماذا ستفعل في موضوع رغبتها في معرفة ومتابعة أخبار الأوضاع العائلية لصديقات كارول، ولم تكن ترغب أبداً في أن تعطي كارول الفرصة لمعرفة ماذا يدور في فكرها، لأن كارول ليست بالعمر الذي يُدرك الأسباب وراء رغبة أمها بذلك، كما أن بريجيت نفسها لا تعرف إلى ماذا يمكن أن يؤدي ذلك... فيما لو تحدثت كارول مع صديقاتها، حول رغبة والدتها بمعرفة تفاصيل الحياة العائلية لصديقاتها... إذ أنها تدرك مدى خطورة ذلك على إبنتها فيما يخص علاقتها بصديقاتها، كما أنها لا تعرف ماذا يمكن أن يؤدى له الأمر إذا ما وصل لمتناول الأطفال....،،

لن تستطيع معرفة مدى ما يمكن أن يصل إليه... هذا الموضوع....،،

في نهاية التفكير، تركت بريجيت الموضوع لوقته، لكنها وضعته على قائمة أولوياتها وقرّرت أن تعتمد طريقة المتابعة التدريجية مع كارول، وأن لا تترك فرصة تمرّ من دون أن تحاول تقصّي أخبار صديقات كارول من خلال ما ستسأله بإستمرار عنهن..،،

وهي متأكدة أن كارول سوف يعجبها أن تجيب بقدر حدود معرفتها..،،

وظلّت بريجيت تأمل أن تكون إجابات كارول مفيدة في إستخلاص النتائج التي ترجوها...،،

*****

فرانك وحسين..... والشاي

أحضر حسين صينية الشاي، التي إحتوت نفس ما إحتوته ليلة البارحة، عندما أتت بها زوجته زينب ودار بينهما الحديث الطويل، والذي إسترسل به حسين إبتداءاً بإبريق الشاي الخزفي...، وعندما كان حسين يضع الصينية على الطاولة.. بادره فرانك بسؤاله قائلاً:

- أبو علي... هل تشعر بالوَحدة هنا...؟
- .... من لا يشعر بالوَحدة.... لا إحساس له...،،

أعني من كانت حالته مثل حالتي، لكي يكون جوابي صحيحاً ودقيقاُ... لأن الكثيرين من الناس هنا قد أنشأوا أوضاعاً خاصة لهم، فالكثير منهم محاط بأهله وأصدقائه ومعارفه، وهذا يعتبره البعض كافياً لكي لا يشعروا بالوحدة... وهنالك الكثيرون غيرهم من يحاول أن يقضي وقته باللقاءات التي لا معنى ولا قيمة لها... لمجرد الخوض في أحاديث تافهة، وربما لعب ولهو بأشكال مختلفة لقتل الوقت...،،

هذا الوقت الذي نحن أفضل من يُبدع في أساليب قتله...،،

وهذا طبعاً من حقهم.... فهم أصحاب الحق في إختيار شكل الحياة التي يرغبون فيها....، كما أن إختيار نمط الحياة لا يأتي

بالصدفة ولا بالرغبة، بل إنه يحتاج لكثير من المعاناة، حتى تستطيع أن تثبّت نفسك على نمط في حياتك، يجعلك قادراً على مواجهة لؤم هذه الدنيا التي وجدنا فيها من دون أن يكون لنا دور في الإختيار... أيّ إختيار...!

هل تشعر أنت بالوحدة يا فلاح...؟

- أنا بالطبع وكالعادة لم أفهم الكثير مما قد ذكرته... ولأن ذلك أصبح شيئاً عادياً بالنسبة لي فأنا لن أطلب منك اليوم أن تفسر لي ما قد قلته قبل قليل... لأن لدينا الكثير الذي نتحدث عنه هذا اليوم...،،

أما عن سؤالك إذا كنت أنا أشعر بالوحدة، فأنا بالتأكيد أشعر بها، لأنني فعلاً وحيد...، وأنت تعلم أنني حتى لا أتواجد مع بريجيت في البيت كثيراً، أما هي خارج البيت في عملها، أو أنا أدور في الشوارع في سيارتي...! فكيف لا أشعر بالوَحدة، وأنت تعلم أيضاً أنني وبسبب قراري تغيير (ديني) الذي ولدت عليه، فقد حال ذلك بيني وبين معظم الناس، وأنا بالطبع أشعر وأعرف أن الكثيرين هنا ممن يعرفونني، يكرهون حتى رؤيتي، والمشكلة أنني أعرف أنهم لا علاقة لهم بالدين...، فهم غير ملتزمين بدينهم إلا بالظاهر الذي لا يعني شيئاً، لكنني مع ذلك أشعر بأن الكثيرين منهم، ربّما مستعدون لتنفيذ الإعدام الشرعي فيّ...، لو لم تقع عليهم مسؤولية قانونية وعقوبات مترتبة عليها... وأعتقد أنك تؤيدني في ذلك...،،

- .....!

ظلّ حسين صامتاً ومطرقاً رأسه ينظر للأرض، ولم يعلّق بشيئ على كلام فرانك.... ثم عاد فرانك ليسأله مستغرباً... بقوله:

- ما بك...؟ لم تجبني على ما قلته...!

- .... نعم... صحيح.. لم أجبك، لأن الإجابة أو الرد على ما قد قلته ليس سهلاً...،،

أنا قد قلت لك عندما كلمتني بالتلفون قبل مجيئك بأنك أصبحت تعيش، وأنك موجود مادمت قد بدأت تقلق...،، والحقيقة بعد كلامك الآن يجب أن أستدرك وأصحّح قولي، بأن أقول أنك قد بدأت... تفكّر بشكل جدّي... وتنتبه لما موجود من حولك، وهذه علامة لبداية خطرة..! بداية قد تؤدي إلى تهديد حياة الإنسان، أو على أقل تقدير تُبعد الراحة الجسمية والنفسية عنه....،،

لقد وضعتني يا فلاح بعد كلامك هذا في موضع لم أكن أرغب أن أكون فيه، فأنا لو قلت لك أن تترك عنك هذه الأفكار وتتفرغ لزوجتك وإبنتك، سأخدع نفسي، وقد يأتي يوم تقول عني، حتى بعد أن "أموت"... أنني قد خدعتك بنصيحتي غير الصادقة...، وإذا ما قلت لك أن تستمر في هذا الطريق، فذلك يعني أنني أدفعك إلى أن تتخلى... عن كل ما يمكن أن يتهيأ لك من خير وراحة هنا في هذا البلد، لك ولزوجتك وإبنتك، خصوصاً وأنك لديك رغبة في نسيان الماضي....،،

أعني نسيان "فلاح" والعيش مع "فرانك"...!

- وهل يمكن أن توضح لي أكثر، فأنت تعلم أنني ثقيل الإدراك وبطيئ في تفسير الكلام من هذا النوع، فأنا لولاك كنت سأصبح أسيراً مئة بالمئة في ظلّ قيادة بريجيت، فهي أقوى مني بالتأكيد، وأقدر مني على التفكير الصحيح، أعني فيما يخص حياتنا اليومية.. والقرارات التي نحتاج أن نتخذها لنا ولإبنتنا كارول، أنا بلا فائدة...، بلا فائدة..، كليّة...،،

وأنا لا يهمني أن تأخذ بريجيت القيادة هي بنفسها... أعني أن تقودني وتقود إبنتنا طبعاً... لكنني بحاجة إلى درجة كبيرة من

الثقة فيما تتخذه من قرارات... فأنا في كثير من الأحيان أشعر وكأنها نتاج للنظام الديكتاتوري الذي عشناه في بلدنا سابقاً... في العراق... وفي أحيان أخرى أتصور أنني ظالم لها عندما أعتقد أنها إمرأة مستبدّة...،، فأنا كما تعلم أنني نصير للمرأة وللدفاع عن حقوقها المهضومة...،،

- عجيب ما تقوله...!

أنت الذي إتخذت قراراً يخاف أن يتخذه الملايين من الناس، وأنا واحد منهم...، فأنا أعرف نفسي بالتأكيد، أعرف أنني جبان في مواجهة قرار من هذا النوع.. إنه قرار مُرعب... مخيف... وأنت إتخذته على ما يبدو بكل بساطة...،

كيف خطر لك أن تتخذ قراراً من هذا النوع وبهذه الخطورة....؟

لا يمكن أن يكون ذلك سهلاً على من ليست لديه قدرة على التفكير والتمييز....، والشجاعة التي يحتاجها الإقرار بهذه الرغبة والإعلان عنها، ربما كان في المصلحة الآنية في ذلك الوقت البعض من الدافع لذلك.. والذي شجعك على أن تتخذه...،

ظلّ فرانك ساكتاً للحظات... بدون أن يردّ على حسين إجابة على إستفساره...، وأخيراً أجاب قائلاً:

- ..... أرجوا أن لا يدقّ جرس التلفون ليقطع الكلام علينا مرّة أخرى، كما أرجوا أن لا تقرع (أم محمد) جرس الباب، بحجة أنها تأتي للإستفسار عنك بعد أن سمعت أنك معتكف....!
- هذا جميل، وأنا أحب أن أراك تتغلب على الأزمة والأوقات الكئيبة بشيئ من النكتة والسخرية، إنها طريقة الضعفاء ممن لا حيلة لهم... لكسب القوة الآنية مجّاناً....، ولكن لا عليك تكلم

ما تستطيعه، وإنسَ الآن أي أمر يمكن أن يقطع كلامك، أنا مُنشَدٌّ جداً لمعرفة ما حصل لك وكيف ولماذا إتخذت هذا القرار الجرئ.. فقد كنتَ جريئاً منتهى الجرأة....!

- نعم... لقد كنت جريئاً فعلاً... ثم من بعد ذلك فقدت شجاعتي.. وبدأ الخوف ينتابني.. والألم يعتصرني كلما تذكرت أو حاولت أن أتصوّر وجه أمي... المسكينة التي لا أعرف ماذا حلّ بها... ولا أعرف ماذا يمكن أن يكون عليه حالها وحال أبي لو عرفوا بهذا الأمر،،

المهم... أنت تعرف مدى تأثير الموروث الديني علينا في كل مناطق الجنوب العراقي..، ليس لأننا متدينون كثيراً، أو يمكن بعبارة أفضل ليس لأن الناس متدينون عن علم وقناعة فعليّة، لكنني أعتقد أنه الموروث الذي ورثه الناس... مثلما ورثوا العادات والتقاليد التي نعرف أن معظمها سيئ وغير صحيح، وربّما ظالم جداً، والكلّ يحتاج النفاق لكي يظهر إلتزامه بهذا الموروث رغم عدم القناعة به...، ولكن هناك الكثير من الناس من يتجاوزون على العادات والتقاليد.. بين فترة وأخرى عندما لا يكلفهم ذلك حياتهم...،

لكن التجاوز على الدين يختلف عن غيره، كما أن نتائجه معروفة....!

نحن في الجنوب مهما كانت أوضاعنا المعاشية صعبة، إلا أننا نُقبِل على الحياة مثل الطيور التي تأتينا لتزور أهوارنا، والتي لا تؤذي أحداً، بل تبحث عن معيشتها وتكتفي بذلك،

ودولتنا الجليلة المحترمة منذ تأسيسها، أهملت الجنوب إهمالاً كبيراً، وذلك منذ أن فتح آباؤنا وأجدادنا عيونهم على الحياة...، فلا توجد لدينا مدارس يمكن القول عنها أنها مدارس لبلد يعيش بدايات القرن الواحد والعشرين، ولا مستشفيات يستفيد من

خدماتها الناس، رغم أنني أعلم أن معظم الجنوب غني بالكثير من الموارد الطبيعية، لكننا حتى لم نستطع أن نستغل الزراعة لمعيشتنا إستغلالاً صحيحاً لأن الدولة لا تقوم بتسهيل الأمور بل تعقّدها على الناس...،،

وهذا شيئ أنا متأكد منه...،،

لا أعلم لماذا كان في داخلي شيئ يدفعني للتمرّد...،،

التمرّد على شيئ كبير ومهم...،،

شيئ ورثته ولم يكن لي دور ولا رأي في إختياره..،،

وكنت أعلم مدى خطورة ما أفكر في التمرّد عليه، لكنني كنت أتحين الفرصة لكي أصرخ صرختي الوحيدة التي صرختها فعلاً في النهاية...،،

نهاية صبري على كل أشكال الظلم من حولي...،

فأنا لم أستطع أن أصرخ في وجه المعلم الذي كان يعاقبني وأنا طفل ويهينني أمام الآخرين...،، مثلما يهين الآخرين أيضاً،، كنا قد تعوّدنا على أن يعاقبنا أحدٌ ما، وكانوا بالإضافة لذلك يقولون لنا دائماً أن هنالك من سيعاقبنا فيما بعد عقوبة كبيرة...،

وكنت أتسائل مع نفسي وبصمت...:

ما هذه الحياة التي تبدأ بالعقوبة وتنتهي بعقوبات...؟

كنت أنتظر اللحظة التي أستطيع فيها أن أقول أنني متمرّد،، ولا أريد أن يفرض أحد منكم شيئاً علي..، حتى ولا أبي الذي أشتاق لرؤيته هو وأمي وإخوتي..، لكنني في النهاية أفضّل الآن أن يعتبرونني إبناً عاقّاً أو ميتاً بدلاً من أن يعرفوا أنني قد غيّرت ديني..، فلن يكون بإمكانهم تقبّل، ولا حتى تصوّر هذا الأمر... فقد كانوا كلهم يعتبرونني شخصاً مسكيناً لا يجرؤ على فعل شيئ...،، فكيف يمكن أن أجرؤ هذه الجرأة...؟

وأنا فعلاً لم أكن جريئاً ولا عابثاً ولا مؤذياً لأحد....،
ولم أكن أفهم لماذا يُصرّ كلّ من حولي على معاقبتي..؟
ولو إستطعت أن أفهم وأتقبّل عقوبة من حولي لي، بأنها كانت سوء تصرّف منهم ونتيجة إعتيادهم على العنف، فأنا لن أستطيع أن أفهم لماذا يعاقبني من خلقني على شيئ أنا لا دور لي فيه.....؟
وهذا كان سبباً من الأسباب المهمّة، ولم يكن السبب الوحيد، الذي دعاني لكي أتمرّد هكذا...، على كل شيئ كان هنالك من حولي...،،
لقد أصبح منظر الممارسات الدينية، ومن يمتهنون الدين، والدعاء المستمر الذي لايسمعه أحد، ولا نصل لنتيجة من ورائه، وخوف الناس الدائم من شيئ غيبي، شيئ يُصِرُّ على توعّدهم بالعقوبة... بدون أن نعرف لماذا... أصبح كل ذلك شيئاً لا يمكن أن تعيش معه وأنت في حالة من الصمت.....،،

هنا قاطعه حسين،، وبنبرة إستغراب وكأنه تفاجأ من شيئ ما بقوله:

- فلاح.... فلاح... توقف يا فلاح.... توقف...!!
هل أنت فعلاً فلاح الذي أعرفه....،،؟
أنت لست هو... أنت حكيم... أنت فيلسوف.. وأنا يجب أن أسمع منك من الآن فصاعداً...،،
أين كنت...؟ وأين كان مخزونك الفكري والوجداني هذا...؟
- لا تمزح معي يا حسين...،، فأنا بحاجة لمشورتك ورأيك فيما أنا عليه...،، فأنا غير مقتنع بأن أترك ديناً لم أشعر يوماً بأنه يحمي إنسانيتي... لكي ألتجئ لدين آخر لا يتقبّلني أهله وكأنما أنا قادم لأشاركهم في غنيمة كبيرة.. ولا أعلم بماذا يفكرون أؤلئك الذين لا يعجبهم رؤيتي معهم في الكنيسة... وكأنني

إغتصبت مكاناً كان يجب أن يحتله شخص آخر غيري...، أنا أشعر بأنني أمرّ في حالة عبور وعليّ أن أنتقل نقلة أخرى، قد تكون قريبة...، لقد تحملت فراق أهلي نتيجة لتغيير ديني الأول...، لكنني لن أتحمل أن أفارق إبنتي وبريجيت لو جاء اليوم الذي عليّ أن أترك ديني الثاني...، وقد يكون ذلك قريباً...،،

أنا لا أعلم الآن متى يمكن أن يكون ذلك...؟

ورغم شعوري بأنني مدين لهؤلاء الناس الذين أدّوا أكثر من واجبهم الإنساني في مساعدتي.. ولم يكن ذلك لأنني قد لجأت لدينهم، لأنني أعتقد أنهم غير مقتنعين بأنني فعلاً قد لجأت لدينهم وأنا على قناعة تامّة به...، ولهم الحق فيما يعتقدونه لأنني لا ألتزم بأيّ واجب ديني...، لكنني لن أنسى أنهم كانوا لي عوناً أكثر مما كنت أنتظر من أيّ من أقاربي....،،

- أنا الآن يا فلاح أعتقد أنني يجب أن أستلهم منك أكثر مما تحتاجه أنت مني، أنا لم أعد أكثر من إنسان يعيد ويكرّر نفسه ولا يستطيع أن يخرج بقناعة فعليّة في أيّ أمرّ، ربما توقف عقلي عن القدرة على التفسير، وعن رؤية الأشياء بوضوح، وأعتقد أنه عليّ أن أسلِّم بأن قدري هو مثلما كنت في البداية...،،

قدري مثل.... "موعود".....،،

ولن أستطيع الإبتعاد عن هذا القدر...،،

فأنا فعلاً كما كنت أرى نفسي قبل ما يقرب من خمسين سنة...،،

أنا "موعود"..... نعم أنا "موعود".....!!

- ماذا تعني بـ "موعود"،، أنا لا أفهم ما تقوله..!
- ..... ألا تعرف أغنية "موعود"...؟ أغنية عبدالحليم....
- .... نعم أعتقد أنني أعرفها... ولكن ما علاقتها بك وبحالتك.. وبموضوعنا هذا...؟
- ليست علاقتها بي أنا فقط.....،،

بل إن جيلي كله... كانت تمثله هذه الأغنية....،،

سواء كان يعلم... أم لم يكن...!

كنت أنا شخصياً أراها أغنية من الأغاني التي هبطت من السماء...،،

هنالك القليل جداً من الأغنيات والموسيقى التي يتركّز ويتجلّى فيها الإبداع بحيث أنها تترفع عن أن تكون من إنتاج أهل الأرض....،،

نعم... إن من يكتب كلمات تلك الأغنيات ومن يلحنها ومن يؤديها، كلهم من أهل الأرض، لكنهم كلهم وفي لحظات من التجلّي يلتقون مع الرفيع من مستويات الإبداع، فينتجون عملاً فنياً إستثنائياً، ربما حتى لو حاولوا إعادة إنتاج بديل أو شبيه له وبمستواه، لن يستطيعوا ذلك...، هذا هو ما أقول عنه أنه:

موسيقى أو لحن يهبط علينا من السماء...،،

أو أنها تصعد إلينا من السماء...،،

وكلاهما صحيح...، أو هكذا يقول العلم..،،

إنها قد تكون مثل كثير من الأشياء التي إعتبرها الإنسان أنها هبطت من السماء...!

فلاح... سوف تحتاج أن تسمعها كثيراً قبل أن تعرف المخزون فيها من معاني تفوق ما نراه نحن من ظاهر الأمور.... لكنك يجب أن تسمعها وحدك...،،

تسمعها من دون أيّ مؤثر خارجي...، وتعيد سماعها كلما كنت صافي الذهن...،،
إجعل منها الموقع والمكان الذي تعتكف أنت وحدك فيه...،،
ربما أنها لن تعطي النتيجة التي أعطتها معي ومع الآخرين، ذلك لأننا عشنا في زمن يختلف عن هذا الزمن..، فلم تكن حولنا الكثير من المؤثرات التي تشتت إنتباهنا للأشياء...،،
إن تشتيت الإنتباه هو علـّة هذا الزمن....،،

"شـوف بقينـا فين... وهي راحت فيـن....."
"شوف خذتنا لفين يا قلبي.... وهي راحت فين...."
"في سـكة زمـان راجعين.... في سـكة زمـان..."
"في نفس المكـان ضايعين... في نفس المكـان..."

ظلّ فرانك مصغياً صامتاً...
لم يعلق بكلمة على آخر ما قاله حسين عن هذه الأغنية،، إنه لا يعرف ماذا يقول لحسين وبماذا يعلّق على كلامه... عن أغنية عمرها يقرب من نصف قرن من الزمن.... إذ أنه لا يعرف ما علاقتها بما جاء ليتحدث مع حسين من أجله...،،
كما أنه كان مذهولاً مما قاله حسين عنه، بأنه يتحدث الآن بفلسفة تستحق الإهتمام....، ولم يستطع أن يصدّق بأن حسين جادّ فعلاً فيما يقوله، كذلك فإن فرانك لم يفهم ماذا كان يعنيه حسين بأهمية هذه الأغنية التي وإن كانت أغنية رائعة فعلاً،، إلا أنه يستغرب منه أن يعطيها هذه القيمة والأهمية، ربّما مثلما أعطى لكلام فرانك عن حياته السابقة قيمة كبيرة وإعتبره فلسفة....،،
هل يمكن أن يكون حسين يمرّ بحالة غير عاديّة....؟
هل أنه متضايق من أمر معين..،، عائلي مثلاً..؟

لا.. ليس ذلك.. لأنه لو كان كذلك لما دعاه لأن يأتي لزيارته في البيت في هذا اليوم وهذا الوقت..؟
كما أنه ليس هنالك ما هو غريب في حسين... غير هذا الكلام...
هذا الكلام الذي يصعب على فرانك إدراك قيمته وأهميته هنا...
في هذا الوقت والظرف..!
مايزال هنالك الكثير الذي لا يستطيع فرانك فهمه في شخصية حسين..، هنالك شيئ ما في نفس حسين....، وربما في عقله...!

وبعد أن ملأ حسين كأسي الشاي وقدّم أحدهما لفرانك،، سأله وهو يقدمه له:

- ماهي أخبار أبناء عمومتنا هنا....؟
أنا لا أقصد أحداً على وجه التحديد، وأنا كما تعلم لا أستمتع بسماع أخبارهم، لأن القليل منها فيه ما يُفرح عندما تسمعه، في حين أن في الكثير منها ما يُحزن، بل يُمرض السامع..! لكنني أحتاج أن أسأل عنهم مع أملي بأنهم لا يسبّبون مشكلة هنا في هذا المجتمع، لكي لا تنتهي بنا الحال أن ندفع نحن ثمن مثل هذه المشكلات...،
- أنا لا أسمع الكثير عما يحدث هنا، لكنه بالتأكيد هنالك الكثير مما يحدث والذي لا نعرفه، وأنت تعلم بأن من يتحدثون معي قليلون، لكنني سمعت قبل أسبوعين من "حميد" صاحب مطعم الكباب، والذي تعرف أنه من الناس الذين لا يقيمون للإتجاهات الدينية ولا العرقية قيمة، وتعرفه أنه رجل طيب ومستقيم وليس له طبع الكذب والنفاق، وهو واثق من نفسه لأنه رجل عملي... وإستطاع فعلاً أن ينشئ عملاً له بكل كفاءة ومقدرة، والكل يتردد عليه لأن الكباب الذي يعمله رائع... ويتحسن مستواه يوماً بعد يوم... لقد صادف أن ذهبت إليه قبل

أسبوعين، وكان كعادته مرحباً بي على خلاف الآخرين من العقائديين المزيفين.. وتحدثنا عن بعض الأمور أثناء تحضيره لكمية الكباب التي طلبتها.. ومن حديثه ما ذكره لي نقلاً عن صديق عربي يعرفه، ممن يعملون متطوعين للترجمة ما بين اللاجئين وموظفي الخدمة الإجتماعية في الدولة، والذين يحاولون تعريف اللاجئين بأوضاع بلدهم الجديد هذا، ويقول أن الموظفة كانت تريد أن تقول وتوضح لهم، بأن هذا البلد يقوم على أسس قوية من حقوق الإنسان، وحقوق المرأة بشكل خاص، وأن القوانين تحميها وتحترم رغباتها، ولا يجوز التجاوز ولا فرض الوصاية عليها، وأنه من الضروري أنهم يحترمون هذه المفاهيم والمعايير، التي هي من أسس المجتمع في هذا البلد، ويقول بأن هذا الصديق المترجم قد قام بترجمة هذه المعلومة لهم، ويبدو أنه بعد أن أنهى ترجمته، طلب أحد الموجودين من اللاجئين التحدث لإبداء رأيه، أو لإستفسار لديه، فقال للمترجم طالباً منه أن يترجم ذلك للموظفة، وقال بأنه يعلم أن لهذا البلد معاييره التي ينتظرون من اللاجئين مراعاتها، لكن اللاجئين أيضاً لديهم معايير يجب مراعاتها، ومنها أنهم لا يؤمنون بأن المرأة يجب أن تخرج من البيت وأن تختلط بالرجال الأجانب، فهي عليها أن تبقى في البيت فقط لرعاية الزوج والأبناء، ولا تحتاج إلى التعليم لأن هذا التعليم يمكن أن يدفعها لأن ترتكب معاصي وتخرج عن الطريق السليم...!!

ويقول المترجم بأنه قد أصيب بالدهشة، ولم يعرف إن كان من الحكمة أن يترجم ما قاله هذا الرجل للموظفة أم لا...؟ لذلك فقد عاد للإستفسار منه لكي يعرف كيف يفكر هذا الرجل، فسأله إن كان أحد ما من الحكومة في هذا البلد أو الدولة، قد دعاه

لكي يأتي ويعيش في هذا البلد؟ فكان جواب الرجل، كلا...، وأنه لم يدعه أحد، فرَدّ عليه المترجم بقوله: إذاً هم يفعلون خيراً عندما يستقبلونك ويحاولون مساعدتك، لكن الرجل عاد ليجيب على ردّ المترجم ليقول له: إن هؤلاء الناس في هذه البلدان التي تستقبلنا هنا كلاجئين، هم في الأساس سبب الحرب التي قامت لدينا وسبب تخريب بلداننا وتركنا لها...، والآن يريدون تخريب أخلاق نسائنا وأبنائنا..!

فما رأيك بهذا الردّ الذي يوضح طبيعة نظرة الكثير من هؤلاء الناس لهذه البلدان التي تستقبلهم..؟ إنها على ما يبدو نظرة منتشرة فعلاً بين الكثيرين منهم، وأن هؤلاء يعتبرون هذه البلدان فعلاً مسؤولة عن مأساتهم وما يعانونه، ولا أدري كيف سيتم تكوين علاقة وديّة حتى ولو بعد سنين بين هؤلاء الناس وهذه البلدان.....؟

والحقيقة أنه ربما في كلام هذا الرجل ما يمثل وجهة نظر ليس من السهل رفضها... أو تفنيدها!

فهنالك سؤال يسأله الكثيرون من الناس..:

أين كانت هذه الدول القوية عندما كانت تدور أحداث دامية في تلك البلدان...؟

وهذا ممّا يجعل حتى من ليس له أي علم بالسياسة، أن يتوقع نشوب حرب داخليّة أهليّة بين أبنائها...،،

أنا لا أقول أنني أؤيد وجهة نظر هذا الشخص، ولكنني أقف حائراً، مع أي من الجهتين يقف الحق....؟

كان حسين منصتاً تماماً لفرانك، وهو يصف له ما قد سمعه من حميد في المطعم نقلاً عن صديقه المترجم.... فأجاب بقوله:

- لا أعرف... لكنني متأكد أن النتائج لن تكون جيدة.. لا بل ستزداد سوءاً يوماً بعد آخر... والأسلوب الوحيد لمنع تفاقمها ووصولها لمرحلة الإنفجار، هو أن تدرك الحكومات أولاً وهذه الأحزاب السياسية التي تحكم في هذه البلدان، أنها بسلوكها هذا وتجاهلها للمشكلة، إنما تقوم بتخريب بلدانها، وأنها لا يمكنها أن تستمر في تقديم التسهيلات لهؤلاء الناس للمجيئ للبلاد وبلا تمييز، فقط لكي ينتخبوها سياسياً ولكي تبقى في الحكم، لقد كان البشر يهاجرون لهذه البلدان منذ قرون، ومنذ أن تأسست، لكنهم كانوا يأتون مهاجرين لهذه البلدان بحثاً عن العمل... وعن حياة مستقرة بعيدة عن المشكلات التي كانوا يتعرضون لها في بلدانهم، ولم يكونوا يأتون هنا لكي يفرضوا لا عقائدهم ولا ما إعتادوا عليه على أهل الأرض، ولم يفعل أحد من قبل مثل هذا إلّا في هذه السنوات الأخيرة، كانوا يبدعون في تفانيهم في أعمالهم... وتقديم خدمات لأنفسهم ولبلدانهم الجديدة... لقد أصبحت كلّ الأمور في هذه السنين... مرتبطة بمدى ما تحصل عليه هذه الأحزاب من منفعة ورصيد.. لكي تظمن إستمرارها بالحكم، وأنا أستغرب لهذا الأمر لأننا عندما كنا صغاراً وشباباً في بدايات نشوء إدراكنا السياسي، في مناطقنا التي يسود فيها الحكام الطغاة المتمترسين بالحكم والمتمسكين به... كنا في ذلك الوقت ننظر لهذه الدول معتبرين أنها نماذج للتحرّر الفكري، من كل هذه الشوائب، وكانت هنالك بالفعل نماذج كثيرة من الحكام، الذين بذلوا في سبيل بلدانهم في الأوقات العصيبة الكثير من التضحيات والنضال في سنوات الحروب، ولكنهم أوّل ما شعروا بأنهم أصبحوا غير مرغوب فيهم من قبل شعوبهم، تنَحَّوا عن الحكم أو إستقالوا ولزموا بيوتهم، ولم

يعد يراهم أحد حتى ماتوا، لكن اليوم يبدو أن الكثير من الأمور قد تغيّرت... فدَبّ الفساد في كل مفاصل الحياة... وأوّلها الحكومات والسياسة.. ثمّ أننا نحن الزاحفون من الشرق القديم، قد جلبنا معنا إرثاً إنسانياً يعود لقرون بعيدة، وجذور عميقة في التأريخ...،، تقوم على الإرتباط بالعقائد... والحكم على كل الأمور من خلالها...، والعبوديّة للسلاطين الذين يحكمون بإسم الله..، ويمثلون للكثيرين ما يشبه ظلّ الله في الأرض..، ويعتبرونه ظلّاً حقيقياً وليس وهمياً...!

هذه الدول وللأسف مقبلة على صراع داخلي....، صراع... في الغالب سندفع ثمنه نحن..، نحن الذين جئنا لهذه البلدان فعلاً هاربين ممن كانوا مقبلين.. على إبادتنا...، ولم يكن يمنعهم شيئ من سحقنا، لا قوانين الأمم المتحدة ولا منظمات حقوق الإنسان...،،

إن الطوفان قادم يا فلاح، وسيكون أقوى من طوفان جلجاميش..!

- أبو علي.... أنت تُرعبني بكلامك هذا... هل يمكن فعلاً أننا بعد تلك المعاناة نعود لمعاناة أخرى، أنا لا أستطيع تصوّر هذا...،،
- ولم لا تستطيع تصوّره....؟

إصمت لدقائق وراجع بينك وبين نفسك... كم مرّة كنت تتصوّر أنك ستموت على أيدي أشخاص قتلة مجرمين.. لا يردعهم رادع في بلدنا السابق....؟

وكم مرة تمنيت أنت أن تموت لتنتهي معاناتك...؟

أنت وأنا.. كلانا نعيش في الوقت الضائع...،

كلانا كان مرشحاً للموت...!

وقد مات الكثيرون أمام أعيننا، أو قد سمعنا بموتهم..،،

قتلوا أو ماتوا بدون ذنب، ونحن عشنا،، لماذا عشنا...؟
هل تعلم لماذا..؟
لا...،، إنك لا تعلم..... ولن تعلم...!
إنها حالة اللّاعدالة التي تحكم هذا العالم.... وليس غير ذلك.....،،
عليك يا فلاح أن لا تذكر لزوجتك أي شيئ عن مثل هذه المواضيع، وإذا ما هي فتحت معك موضوعاً من هذا النوع، حاول أن تمثل دور الذي لا يفقه ولا ينتبه لهذه الأمور، أتركها تتصرّف هي لوحدها...،
إنها (لبوَة).... وستستطيع بشجاعتها أن تحافظ عليك وعلى إبنتك وتسير بكما في طريق سليم....،،
وإذا لم تلتزم بنصيحتي هذه.. فإنك سوف تتسبب في سلب ما لديها من شجاعة فطرية.. وقدرة على تمشية الأمور، إنها ستعرف كيف تتصرف، أفضل منك ومني، وربما أفضل من كل أبناء عمومتنا الموجودين هنا... إنها تمتلك طبيعة ومقدرة فائقة على مواجهة المصاعب، وإلّا لما نجحت في هذا العالم الجديد، ولما إستطاعت أن تحفظ لك ولإبنتكما مكانة يصعب على الكثيرين غيرها تحقيقها لأنفسهم...،،
إننا كلنا مرشحون للإنزلاق نحو الهاوية، وستكون الأيام القادمة ثقيلة علينا، ولن نستطيع أن نقف في وجه غضب الذين جئنا إليهم وإستقبلونا بترحاب كبير، عندما يغضبون..،،
لم يكن الكثيرون منا أهلاً لذلك الإستقبال، وسندفع نحن الثمن عن هؤلاء الحثالات..، نعم أنا وأنت وكل إنسان مسالم جاء إلى هنا لكي يعيش ويتعايش مع أناس يستمتعون بإنسانيتهم، كلنا سندفع الثمن.....!!
نحن قد خلقنا الله مسالمين....

ولن نستطيع أن نكون غير ذلك حتى لو حاولنا....،،

هنا قاطعه فرانك فجأة مستغرباً... بقوله:

- أبو علي... ماذا تقول.... هل تعني فعلاً ما تقوله - نحن قد خلقنا الله -...،،
- نعم... وما الغريب في ذلك...، لماذا أنت مستغرب...؟
- أنا مستغرب لأنني أعرفك....، أو أنا قد تصورتك أنك لا تؤمن بوجود أي إله...!

أم..... هل أنا كنت على خطأ؟

- نعم أنت كنت على خطأ... بالتأكيد كنت على خطأ..!

هل كان ذلك لأنني لا أؤمن بأديان وبممارسات دينية بشعة...؟
وما علاقة هذه بالله....؟
أنا لم أتخل يوماً عن الإيمان بالله..، لكنني أمرّ بمراحل أعيش فيها في عزلة عنه ولا أستطيع أن أتحدث إليه.....،
ويمكنك أن تقول أنني قد أنطوي على نفسي وأبتعد عنه كثيراً، خصوصاً عندما لا يتخذ موقفاً من أي حدث كبير يؤذي الناس، وأرى موقفه غريباً، وأتسائل منه...!
ولكن كالعادة لا يأتيني جواب منه، مثلما هو الحال مع من كانوا من قبلنا... ممن كانوا يقولون أنهم يتحدثون إليه.. أو هو يتحدث إليهم..، وهذا أمر فيه جدل كثير، لأنني لا يمكنني أن أتصور أنه يتحدث مع أناس معينين ويترك الاخرين، هو لا يحتاج لمثل هذه المواقف، ولا يحتاج لتفضيل أحد على آخر...،،
هو أقوى وأقدر وأجدر بأن يكون واضحاً، ولا يحتاج أن يترك الناس المساكين في حيرة من أمرهم...،،

هؤلاء إنما كانوا يصوّرون إلهاً وهمياً... يشعر بعقدة نقص، وضعف داخلي... وعجز...،،

وإلّا... ما الذي يجعل هذا الإله يطلب ممن خلقهم، بل ربما يتوسل إليهم أن يسلكوا الطريق الذي يرغب منهم أن يسلكوه...،،؟

ألم يكن بالإمكان أن يُخلق الناس بهيئة أخرى أكثر كرامة ونزاهة مما نحن عليه...؟

وأؤلئك الذين يقولون أو يتصورون أن الإنسان مُكَرَّم الخلقة... فهؤلاء لا يعرفون كم هو الشبه بين الإنسان وبين الحيوان، حتى في إنفعاله وحاجاته النفسية....!

ليس في هذه الإلوهية التي يتحدث هؤلاء عنها... شيئ من العقل... والمنطق.....!!

ولكن لا عليك، ودعنا من هذا الأمر...،، فأنت على ما يبدو... أنك أيضاً في بعض الأحيان تحكم على الأمور من خلال ما يظهر لك منها، ومن هنا إعتبرتني لا أؤمن بوجود خالق..!

والآن...، هل سمعت بآخر نكتة...، لقد سمعتها أنا قبل أيام، من أحد معارفي في بغداد...، وهي ذات علاقة وثيقة بما نتكلم عنه الآن...،

- وهل سأستطيع أن أسمع نكتة....؟

بعد أن مَزَّقت تفكيري بما قلته مما لم أستطع متابعته، لكن ذلك غير مهم، سوف أحاول تذكر ما أستطيعه مما قلت، وسأعود لك عندما أواجه مشكلة في التذكر... والآن لنسمع النكتة....،

- سأكون جاهزاً لتوضيح ما يستشكل عليك مما قلته... أما عن النكتة أو الطرفة... يقال أنه في إحدى قرى الجنوب وأنت تعلم أكثر مني مدى إيمان الناس الفطري هناك، وممارستهم للطقوس الدينية التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، كان إمام

أحد المساجد يصلّي بالمصلّين في يوم من الأيام، وكان طوال الصلاة يبكي... وبعد أن إنتهت الصلاة وإنفضّ الناس، تقدم نحوه شخص كبير وذو أهمية ممن لديهم قيمة ومكانة بين الناس، وأخذ الإمام على جهة محاولاً الإستفسار منه عن سبب بكائه، فقال له متسائلاً:

ما المشكلة يا سيدنا، اليوم طوال الصلاة وأنت تبكي...،

هل أصاب الله مكروه ما....؟؟!!!!

فتصور مدى بساطة وسذاجة فهم أهلنا للأمور في مسألة مهمة وخطيرة مثل هذه....!

فهؤلاء يا عزيزي فلاح، هم أهلنا الذين سحقتهم الحياة في كل العصور ولمختلف الأسباب، وعاشوا طوال عمرهم في حالة من الخوف، في هذه الحياة ممن يحكمونهم من الطغاة، ثم جائهم من يعملون على زرع الخوف الدائم في نفوسهم، خوف من شيئ سيواجهونه بعد هذه الحياة، شيئ يقال أنه سيكون مرعباً أشدّ الرعب ولن يُفلت من أذاه أحد، وأنت عشت وسط هؤلاء الناس البسطاء التفكير.. ممن يمكن قيادتهم وبسهولة كقطيع من الغنم للمجزرة التي يتم فيها قطع رقابهم، وسلخ جلودهم، وتقطيع أوصالهم، إنها المجزرة التي يعدّها الطغاة للناس المساكين....،،

لا يمكن أن يكون الخالق طاغيةً...،، فهو لا يحتاج لأن يثبت وجوده من خلال تعذيب أناس لا حول لهم ولا قوة، هذه الحاجة هي حاجة الطغاة، ولا يوجد أحد آخر غيرهم يحتاج لتخويف الناس وإرهابهم بهذا الشكل...،

لن أحتاجها أنا.. ولن تحتاجها أنت.. والخالق أبعد ما يكون عن الحاجة لأي شيئ من الخزعبلات التي يعرفها البشر،، لضحالة مكانتهم وسوء تفكيرهم...،،

ثم ساد صمت بعد أن إنتهى حسين من كلامه..،، حيث كان فرانك ينظر أليه متوقعاً منه أنه سيواصل كلامه، بعد أن فقد فرانك نفسه تركيزه على ما كان يقوله حسين، فلقد كانت تلك الكلمات جرعة كبيرة فيها الكثير مما يجب التوقف عنده، فهذه ليست مثل كل مرّة يسمع فيها فرانك من حسين كلاماً لا يستطيع أن يفهم منه إلا القليل، هذه المرّة كان كلامه بسيطاً وسهل الفهم، وقد جاء متابعاً للنكتة أو الطرفة التي ذكرها عن ذلك الرجل... الذي يرى نفسه أنه من عِلِيَة القوم وينظر له الناس كذلك بنفس النظرة...، ولكنه في نفس الوقت لا يعرف كيف يمكن أن يكون الخالق...؟!

فهو لم يبتعد بتصوره عن الخالق... عن تلك الصورة النمطيّة التي توارثها الناس جيل بعد جيل، والتي هي أشبه ما تكون.. صورة لحاكم متجبر يمتلك قوة لا حدود لها، يفعل ما يشاء بالناس، ولكنه في نفس الوقت يمكن أن تصيبه علّة ما.. كما تصيب أقسى وأكثر الحكام جبروتاً...،،

كما أن حسين نفسه ظلّ مطرقاً رأسه ينظر إلى صينية الشاي، وفكره شارد وبعيد، بعيد جداً عن الغرفة التي يجلس بها مع فرانك، ولم يسبق لفرانك أن رأى حسين بهذه الحالة من الشرود، فقد عهده رجلاً يعيش التركيز الدائم والإنتباه لكل ما حوله، وكان حلم فرانك أن يمتلك قدرة حسين على التركيز والإنتباه.. والقدرة على التحليل وصواب الرأي، ولم يعرف فرانك كيف يخرج نفسه ويخرج حسين من حالة الصمت هذه، إلا بعد أن تذكر أنه كان ينوي أن يسأله حول الموضوع الذي دار الحديث عنه بينه وبين السيدتين عندما أوصلهما للمطار، عندما كان الحديث عن فوائد دخول القوات البريطانية للعراق.. في المرّة الأولى أثناء الحرب العالمية الأولى، وكيف أن السيدة الكبيرة السن إعتبرت ذلك الإحتلال، مرحلة إنتقال للعراق إلى عهد جديد، قصدت منه بريطانيا في ذلك الوقت تقديم العون للعراق، للتخلص من مساوئ

الحكم العثماني، لذلك بادر هذه المرة فرانك ليعيد إنتباه حسين، عندما قال له بأنه نسي أن يخبره عما دار بينه وبين السيدة من حديث، قد يعجب حسين التعليق عليه، وأن يقدم لفرانك المعلومة الصحيحة عنه، لأنه لا يعرف عنه شيئاً حقيقياً يمكنه الوثوق به، فجاءه جواب حسين...:

- إن هذا الموضوع من الموضوعات التي إختلفت فيها رؤيا الناس قديماً ولحد هذا اليوم، إذ أن معظم الإختصاصيين بالتأريخ والسياسة ينظرون له من جهات مختلفة...،،

فإذا ما نظرت له من وجهة النظر المدنيّة والتحضريّة الفعليّة، فإن السيدة التي قالت لك ذلك معها حق، ذلك لأن العراق إمتلك بعد خروجه من الحكم العثماني، فرصة لأن يكون بلداً فيه مبادئ حكم ديمقراطي دستوري وضعت بريطانيا أسسه بشكل صحيح في أغلبه، ولم تتكرر تلك الفرصة للعراق أبداً بعد ذلك فقد كانت المرّة الأولى والأخيرة التي تتاح له هذه الفرصة،،

أما إذا أردنا أن ننظر له من وجهة نظر دينية، فأنا لست المؤهل لأن أحكم فيما إذا.. كانت دعوة السلطات الدينية في ذلك الوقت لمحاربة المحتل البريطاني صحيحة.. لأنه أخرج المحتلّ العثماني المسلم! ولأن هذه مسألة يتضح فيها الكثير من الكذب والضحك على ذقون العالم، والنفاق لجهة أو جهات عدة، إذ أن السلطة العثمانية لم تكن بأي شكل من الأشكال، تمثل الدين لا من قريب ولا من بعيد، ثم أن الذين دعوا لنصرتها ولمحاربة المحتل البريطاني، كانوا أنفسهم مقموعين من قبل الحكم العثماني، وقد كانت تلك الدعوة مثالاً للغباء الذي نعاني منه من الذين يسمّون أنفسهم ولاة الأمر إلى يومنا هذا...،، أو أنهم في حقيقة الأمر كانوا ينتظرون أن تؤول

السلطة لهم، وليس لسلطة مدنية متحضرة...، ولذلك فإنهم إختاروا أن يعلنوا الحرب على الوضع الجديد.. بعد خروج العثمانيين من معادلة حكم العراق والمنطقة كلها..،،

أما عن بريطانيا وكيف كان توجهها في العراق، وهل أنها أنصفته..؟ أقول لك رأيي الشخصي أنا حسين الذي لم أشهد ولم أعش تلك الفترة فعلياً، لكنني قرأت الكثير عنها، إنها لم تكن منصفة بحق العراق ولا العراقيين، وإنما بَنَت مواقفها على إقتراحات ورؤيا أناس، ممن كانوا يكتبون للإمبراطورية البريطانية وجهات نظرهم في تقاريرهم، وقد أساؤوا التقدير سواء كان ذلك مقصوداً أو غير مقصود...،

لقد جاؤوا بملك وعائلة لتحكم حكماً ضعيفاً مهلهلاً...،

وذلك بذريعة أنهم إلتزموا بتوفير كرسي حكم... أو كرسي وجاهة له... ولمن قد تعاون معهم في حربهم ضد الدولة العثمانية، وكانت تلك مسألة من المسائل التي أضرّت بمستقبل العراق، إضافة لغيرها من الأمور التي تتعلق بحدود العراق الجغرافية، والتي ظلّ العراق يدفع بسببها الكثير من إمكاناته وقدراته ولن ينتهي من إشكالاتها، وهذا ما أعتقده أنا، فإذا ما صادفت تلك السيدة مرّة أخرى، قل لها أن ما فعلته الإمبراطورية البريطانية في العراق كان يحتاج لشيئ مهم جداً، وهو حسن النوايا...،،

وهذا لم يوجد... ولن يوجد في عالم السياسية والسياسيين....،،

*****

فرانك في طريقه للمدرسة

لم يشعر فرانك بإرتياح بعد زيارته لحسين في منزله كما كان يأمل، بل في الحقيقة إن مخاوفه قد إزدادت أكثر مما كانت عليه، وحيرته من الكثير من الأمور مازالت تدور في رأسه، غير أنه قد أدرك اليوم شيئاً مهماً، وذلك هو أن حسين نفسه قلق مما يحدث، ربما أكثر من قلق فرانك نفسه، فهو بعد أن تعوَّد أن يجد لدى حسين أجوبة لمعظم ما كان يشغل فكره من أمور طوال السنين التي عرفه فيها، فإنه لم يكن يتصور أنه يمكن أن يراه محتاراً متسائلاً عن كثير من الأمور،، فقد كان حسين المرجع الذي يلجا إليه فرانك حيث يجد عنده حلاً وجواباً لكلّ ما يعترض طريقه، والأكثر من هذا كله هي تلك الثقة التي حازها حسين في نفس فرانك، من حيث صحة أجوبته وصواب نظرته البعيدة، وثقة فرانك بحسين في أنه الرجل الذي يصدُق الكلام وأنه يستحق الثقة....،،

حسين... رجل من أعماق التأريخ....،،
التأريخ الناصع البياض...، وليس التأريخ المشَوَّش....!!

كيف سيستطيع فرانك أن يتدبر أموره، إذا ما إنتهى حسين بأن يصبح منزوياً....، وغير قادر على أن يتفاعل مع ما يحدث في هذا العالم من أحداث...،،
لقد وضع فرانك رجله على أول طريق الإحساس بما يدور حوله..،
وهذا ما قد عبَّر له عنه حسين عندما قال له:

مادمت قد أصبحت تقلق،،

فهذا يعني أنك أصبحت تعيش،،

وأصبحت موجوداً بحكم الواقع والحكمة.....

فهل سيستطيع فرانك أن يعتمد فعلاً على زوجته بريجيت بالتصرف، في مواجهة الأمور الحياتية التي تواجههم هو وهي وإبنتهما....؟
نعم إن لديه ثقة بها وبقدراتها، وكما وصفها حسين بأنها (لبوَة) ونصحه بأن يتركها هي تتصرف، وأن لا يقلقها ويشغلها في أمور لا داعي لها،، لكي لا تتعثر في مسيرتها...،،
نعم،، إنها لبوَة كما وصفها حسين بالضبط، هو واثق من ذلك، إن بريجيت فعلاً لبوَة...، لا شك في ذلك..،
لكن هل ستستطيع هذه اللبوَة مواجهة أحداث ربما لا تقوى دول كبيرة على مواجهتها...؟

في هذه الساعة التي شعر فيها بكآبة قاتمة تجثم على صدره، كم تمنى في هذه اللحظات لو أنه لم يُنجب إبنته كارول..!
رغم أنه كان متشوقاً جداً لأن يُصبح أباً، كما هو الحال مع عموم الناس، ورغم أنه كان فرحاً كثيراً بها عندما ولدت..، واليوم هو يراها أغلى ما لديه في هذا العالم..، لكنه بالتأكيد لم يكن من الناس الذين يفكرون مطلقاً في إنجاب أبناء لو أنه ظلّ يعيش في بلده السابق..، كان سيعتبر نفسه من المجانين وغير الشاعرين بالمسؤولية، لو أنه فكر

بذلك، لكنه عندما بلغ هذا البلد الجديد، الذي يعيش مواطنوه في ظلّ القانون.. ولا يمكن أن تُهضم فيه حقوق الناس، أو هكذا يُفترض، فقد تخطّى بإعتقاده حاجز الخوف، وإستجاب لرغبة زوجته في إنجاب طفل كانت هي كارول، طفلتهما الوحيدة، وكان ذلك بعد سنوات من زواجهما، وبعد أن إستطاعا أن يضمنا لهما عيشاً ومورداً مناسباً....،،
لقد تذكر الآن عندما دار حديث بينه وبين حسين في يوم ما بعدما ولدت له كارول، وكان فرحاً عندما أخبر حسين بولادتها، وكان تعليق حسين على ذلك بعد أن هنأه بمولودته بأن قال له ما معناه:

"مبروك لك ولادتها وأنك أصبحت اليوم أباً،،
ومبروك لك هذه المسؤولية الثقيلة..،،
التي ستحملها لآخر يوم في حياتك...!"

لم يهتم فرانك في ذلك الوقت كثيراً لمضمون تعليق حسين على ولادة كارول، فقد كانت الفرحة طاغية عليه ولم يعبأ بما عداها... لكنه الآن وبعد أكثر من تسع سنوات يسترجع فحوى كلامه والغرض منه...،،

"نعم لقد كان حسين محقاً في قوله، أنا الآن أشعر بهذه المسؤولية الكبيرة، كيف لا أشعر بها وأنا اليوم لا أعرف كيف سيمكنني أن أحميها، وإلى متى سأستطيع أن أحميها، سوف أعجز في يوم من الأيام وهي ربما ما تزال تحتاج لعون لها..،،"
"من سيظمن لي أنها ستجد من يعاملها معاملة حسنة..،،؟"
"هل ستستطيع الحكومة أن توفر لها ذلك...؟"
"كيف ستستطيع ذلك....؟ وهنالك الآلاف غيرها ممن سيكونون بدون معين أو سند، يقفون في صفوف ينتظرون من الدولة أن تحميهم وتوفر لهم الرعاية..!"

ثم تذكر أيضاً الوصف الذي ذكره حسين عن المخلوقات وكأنه فلم من أفلام الطبيعة، والذي لم ينسه لحد هذا اليوم، ولكنه تذكر تفاصيله الآن، فقد قال حسين في وقتها ما معناه:

"أن شيئاً ما يدفع هذه الكائنات الحية على أن تنتج ما يخلفها، حتى النباتات، والكائنات الحية كلها التي لا نراها، الكل يتسابق لإعادة إنتاج نفسه، حتى لو كان كائناً مكروهاً من قبل الجميع، وغير مفيد لا للطبيعة ولا للإنسان ولا للحيوان، بل إن من يؤذون أهم مخلوقات هذه الأرض هم الأكثر كفاءة في إعادة إنتاج أنفسهم...، فهل هنالك من يستطيع إنتاج نفسه بقدرة وقوة مثل ما تفعل البكتيريا والفايروسات القاتلة....؟"
"لكن الواضح والمشترك في جميع هذه المخلوقات، أنها عندما لا تستطيع أن توفر الرعاية لما تنتجه، فإنها تقوم بإنتاجه بأعداد كبيرة جداً بحيث يمكن لنسبة منه البقاء حتى لو تعرّض لما يهدد بقائه، فالحشرات والديدان تنتج بيوضها بالآلاف وتتركها لنصيبها في الفقس وفي قدرتها على البقاء، وهو نفسه ما تفعله النباتات...،

في حين أن من يحتاج لرعاية ما ينتجه، لا ينتج إلا عدداً محدوداً لكي يستطيع إلى درجة كبيرة توفير الرعاية والحماية له، وهذا هو دَيدَن كل المخلوقات، عدا الإنسان، فالإنسان البدائي التفكير وحده، هو الذي لا يفكر ولا يحسب حساباً لغير أنانيته عندما يفكر في إنتاج نفسه...،،"

صحيح إنه أمر مثير للإهتمام...،،
لماذا يفكر الناس في عصرنا الحالي في أن ينتجوا أنفسهم..،،؟
وهم لا يستطيعون أن يظمنوا سلامة أنفسهم...!

أليست هذه سخرية من سخريات عالمنا الإنساني..؟
بماذا يفكر هذا الإنسان عندما يُصرُّ على إنتاج نفسه...؟

هل يعتبر نفسه أنه يؤدي خدمة للبشرية بهذا العمل...؟
حتى قبل أن يعرف هل سيستفيد هذا العالم ممن سيخلفونه...؟
وهل خطر في بال الناس، كم من الأذى يمكن أن يأتوا به من يخلفونهم من أبنائهم في هذه الحياة....؟
أذى كبير ومُدمِّر لهذا العالم ولمن يعيشون فيه.....!

وتبقى أنانية هذا الإنسان هي المسيطر والمحرّك لكل ما يأتي منه من سلوك ومشاعر...،،

ويبقى الإنسان دوماً يضرب المثال تلو المثال... في تأرجحه بين حالة من الإيثار المتناهي ونكران الذات، والأنانية المقيتة التي تكتسح كل ما يقف أمامها...،،

فلو أن البشرية أرادت أن تُحصي كم هو عدد الناس الذين ولدوا لها عبر التأريخ.. من الذين تسببوا للبشرية في دمار ربّما مازالت تدفع ثمنه لليوم... وبأشكال مختلفة... عدا عن تلك العقود والقرون التي مرّت عليها من المعاناة، بسبب ما جلبوه من مساوئ عبر ما جاؤوا به من سلوك وأفكار... حلّت على البشرية بكوارث... لن يكون من السهولة إحصاء عددهم وتحديد من هم... لمعرفتهم...،،
ألم يكن من الحق والواجب محاكمة هؤلاء الذين أنجبوا أمثال أؤلئك الأشرار..؟ حتى ولو محاكمة متأخرة...،
ربّما لتكون رادعاً لمن يريد أن يتعطّف على البشرية من جديد بمولود شِرّير آخر...،

مولود مرشّح لأن يجلب كوارث جديدة على هذا العالم...،

هذا العالم الذي لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن الكوارث....!

*****

حديث على مائدة الطعام

وصل فرانك إلى البيت بعد أن مرّ بالمدرسة لكي يأخذ كارول، وإنتبه إلى أن مكتب التأجير لم يتصل به لطلب أجرة لسيارته، لكنه سرعان ما تذكر أنه كان قد أطفأ تلفونه قبل أن يصل إلى منزل حسين، لكي لا يتصل به أحد ويقطع عليه ما كان يريد أن يتحدث به معه، فأخرج تلفونه من جيبه ليفتحه، وبدأت إشارات الرسائل تنهال عليه، حيث كان المكتب على ما يبدو قد طلبه لأكثر من مرة خلال تلك الفترة....،

صَمَتَ فرانك للحظات مع نفسه ليصل إلى نتيجة مما حدث... وهي أنه قد خسر فعلاً ربما أكثر من أجرة كانت ستكفيهم لمعيشة يوم كامل أو أكثر، لكنه أيضاً ومن ناحية أخرى، قد توصل في تفكيره لما يمكن أن يكون فيه حلول لمشكلات حياة بأكملها، مازالت سنواتها قادمة...!

كانت بريجيت في إنتظار فرانك وكارول لتهيئة الطعام للوجبة الرئيسة التي يتناولونها في العادة معاً، وكانت في نفس الوقت متهيأة لإستغلال الفرصة، أي فرصة لكي تتحدث مع كارول عمّا قد قرّرت التحدث معها عنه، من الآن فصاعداً لمتابعة تطورات علاقتها مع صديقاتها...،

جلس الثلاثة على طاولة الطعام، وكانت بريجيت متأهبة وتتابع كارول بنظراتها... وتبتسم لها في كل نظرة وكأنها تحاول إستمالتها أكثر من العادة، لكي لا تبدأ كارول بالتذمر من كثرة أسئلة أمها وتوجيهاتها فيما بعد، وكانت كارول تستبشر فرحاً وتزداد إبتهاجاً بإبتسامة أمها، وربما هي بدورها قد بدأت في التهيؤ لطلب أشياء كانت مؤجلة، أو ربما طلبات جديدة.....،،

أما فرانك فإنه لم يكن معهم في تفكيره، بل كان مايزال شارد الذهن، ولم تنتبه له بريجيت فقد كانت مشغولة بما هو أهمّ من فرانك، وربما أهمّ حتى من نفسها...!

أثناء تناول الطعام، بدأت بريجيت أسئلتها بالتتابع، فسألت كارول عن صديقاتها واحدة تلو الأخرى، وكيف هي حالتهم بالمدرسة، وكيف يأتون بسيارة المدرسة، وهل يجلبون معهم (الساندويتشات) التي يعجبهم أكلها أم لا، وهل أنهم يعجبهم معرفة ماذا لدى أصدقائهم من طعام، كذلك سألتها كيف هو حالهم عندما يعودون لبيوتهم، ومن يكون موجوداً في البيت عندما يصلون، وهل هناك أحد من صديقاتها من يوصلها أهلها للمدرسة مثلما هي الحال مع كارول، وكانت إجابات كارول في بعض الأحيان سريعة... عندما يكون السؤال بسيطاً ولا يحتاج لتفكير، مثل إذا ما كان أهل أحدى صديقاتها يأتون لأخذها من المدرسة، ذلك لأن سيارة المدرسة لا تقدم خدمة التوصيل لمن يسكنون قريبين جداً من المدرسة أيضاً، مثلما هو الحال مع من يسكنون خارج نطاق خدماتها، وكانت إجابات كارول بطيئة ومتلكئة عندما يكون السؤال عمن يكون بإنتظار صديقاتها في بيوتهم عندما توصلهم سيارة المدرسة... وبعد أن تلقت كارول هذا الكم الكبير من الأسئلة من والدتها، بدأت هي تحاول أن تسأل والدتها بالمقابل عن أشياء مبعثرة... لا علاقة لها بما في ذهن والدتها من مخاوف وتصورات، فقد كانت

الطفلة تتصور أن أسئلة أمها هي من باب الحديث العام، وأن أمها متفرغة الآن ذهنياً وترحب بأي سؤال، فشعرت بريجيت بذلك، وأجابت كارول قدر الإمكان ثم تحولت نحو فرانك لتسأله كيف كان يومه، فأخبرها بأنه قضاه مع حسين في منزله حيث زاره لأنه كان متوعكاً، وتحدث معه بأمور عامة وأمور عن أوضاع اللاجئين الجدد القادمين للبلد، وأنه لم يأته اليوم غير طلب أجرة واحدة كانت للمطار، وتجنب أن يذكر لها أنه كان قد أطفأ التلفون معظم فترة الصباح... وكان سؤال بريجيت التالي له:

- وكيف هو حال حسين... أنا لم أره منذ مدة طويلة، أعتقد أنه أفضل من صادفناهم في حياتنا هنا، وأنا دائماً أودّ سماع آرائه وتعليقاته....،
- إنه غير مرتاح ممّا يدور هنا ولا ممّا يدور في العالم، لا تعجبه الأوضاع كلها، هنا بشكل خاص، إنه متشائم من عدّة أمور، عرفت البعض منها، وأخرى لم يكن واضحاً لي ماذا كان يقصد بها...،،
- مثل ماذا...؟ أنا أعتقد أننا مازلنا بحاجة لرؤيته وخبرته في الكثير من الأمور، إن خبرته في الحياة لا تُعوَّض..
- حسين يعتقد بأن الأمور هنا ستسوء إذا ما ظلّت السياسة وأهواء السياسيين تتلاعب بأوضاع الناس وأحوال البلد، فهو متشائم جداً، ربما لدرجة إعتقاده أننا قد نواجه مشكلات مستقبلية هنا...!
- وهل هذا بسبب زيادة أعداد اللاجئين في العالم، وأعني هنا أيضاً...؟
- هو كما تعرفين نفسه لاجئ أصلاً، ونحن كنا لاجئين، وغيرنا الآلاف من اللاجئين، لكننا عندما لجأنا لهذه البلدان كنا واقعيين، ولم نشترط عليها أن تقدم لنا ما يشترطه اليوم

الكثيرون من اللاجئين على ما يبدو، لدرجة أن البعض منهم يريدون قوانين خاصة بهم يحتكمون لها... في حين أن هذه البلدان لا تسمح بذلك الآن، والخوف، كل الخوف أن يبتكر السياسيون مستقبلاً منافذ تسمح بمثل هذه التغييرات، لكسب هؤلاء اللاجئين الملتزمين الجدد...،،
أنا لا أعرف الكثير مما قاله، أنا نفسي أصبحت متشائماً فليس هناك ما يدعو للتفاؤل، فهذا العالم كله يتحرك ويتوجه توجهاً لا نفهم منه شيئاً....،،
وكل المتناقضات أصبحت عناوين للأحداث في كل مكان....،،

هنا،، ظلّت بريجيت صامتة ولم تعلّق على ما قاله فرانك، بل يبدو أنها هي أيضاً قد ذهبت بعيداً بعض الشيئ في خيالها وتصوّراتها، وبالمقابل فإن فرانك بعد أن لاحظ صمتها، تذكر ما قد أوصاه حسين بأن لا يفتح معها موضوعاً من هذا النوع، وأن يترك لها الساحة مفتوحة لكي تجتهد من أجل معيشتهم ومستقبلهم، وأن لا يشغلها في مشاغل جانبية لا تفيدهم بشيئ، ولذلك فقد عاد يحاول أن يبعد عن فكرها سلبيات ما ذكره لها قبل قليل، فقال:

- أنا أعتقد أن حسين في الغالب أصبح غير قادر على أن يتجاوز أبسط الأمور... من تلك التي يبدو أنها ستثير مشكلة، وأنا أتصور أن هذه البلدان القوية تعرف مصالحها وتعرف ماذا تفعل، سواء تعاملت مع مواطنيها أو الغرباء، وليس هنالك داع أو مبرر للقلق...،،
- لكنك كنت متشائماً قبل قليل..!
- ربما بعض الشيئ، وقد يكون سبب تشاؤمي هو ما عشناه من المآسي في السابق..، والتي يبدو أننا لا نستطيع الهروب من ذكرياتها..،،

- ربما.....،،

ثم حاول فرانك أن يتخطى هذا الموضوع بأن أنهى تناول طعامه، وبدأ يحاول المساعدة في رفع البقايا من الطعام من فوق المائدة، ويتحدث مع كارول ممازحاً، لكن بريجيت ظلّت هادئة ولم تتكلم بشيئ وهي تقوم أيضاً برفع بقايا الطعام وتنظيف المائدة....،،

أدرك حينها فرانك بأنه قد إرتكب خطأ بإسترساله بالحديث، لكنه يأمل أن تنساه بريجيت مع مشاغلها ومرور الأيام.....،
ولكنه أيضاً أصبح الآن متيقناً... بأنه صحيح ما قصده حسين في نصيحته له، عندما أوصاه بأن لا يتحدث مع بريجيت بمثل هذا الموضوع، فها هي بريجيت بدت في رحلة إنشغال بالها بأمر ما قد تحدثا عنه قبل قليل، وفرانك لا يعرف ولن يعرف بماذا تفكر وكيف ستتعامل مع هذا القلق الجديد؟
إنه لم يستطع في يوم أن يتنبأ بماذا تفكر بريجيت، فهي عندما ينشغل بالها في شيئ معين، تصبح صعبة المزاج ولن يسهل الحديث معها، وستكون عصبية التعامل مع معظم الأشياء، ربما حتى مع كارول.. إبنتها الوحيدة...،،
إن هذا هو الذي تعتبره بريجيت (القلق الخلّاق والمفيد)... والذي من خلاله إعتادت أن تختطّ لنفسها ولعائلتها.. طريقاً وسط الأحداث والأيام الصعبة التي مرّوا بها، وبدون هذا القلق تعتقد بريجيت أنه كان من الممكن أن تفلت الأمور من بين يديها، وربما لم يكن حالهم ليكون مثل ما هو الآن في راحة وإطمئنان نسبي، بل إطمئنان كبير بكل المقاييس...،،
إنسحب فرانك من المطبخ ليذهب لغرفة المعيشة ويجلس على الأريكة ويُمَدّد رجليه على طولها، وشاهد على الطاولة الصغيرة الجريدة

العربية المحلية المجانية التي أخذها بالأمس من بقالة حسين عندما ذهب للإستفسار عنه، ووجد إبنه علي في البقالة... وكان له ذلك الحديث مع علي... والذي لن ينساه، فأخذ الجريدة لينشغل بها ريثما تنتهي بريجيت من وضع الصحون في الغسالة وتأتي لغرفة المعيشة...، وظلّ يقلّب صفحات الجريدة التي تعجّ بالكثير من الإعلانات التجارية، للنشاطات التي يقوم بها أبناء الجالية العربية في المدينة.. وحتى المدينة الكبيرة المجاورة...، إنهم يقومون بكلّ النشاطات التجارية التي يحتاجونها، من أعمال خدمات.. سماسرة بيع وشراء البيوت والعقارات المختلفة والسيارات، إلى خدمات التأمين والمطاعم، والصرافة وتحويل المبالغ المالية للبلدان العربية، والكثير غيرها من الخدمات، وهذا بالتأكيد شيئ جيد لكي تكتسب الجالية سمعة جيدة لدى الدولة، بأنها تقوم بالنشاطات التجارية والخدمية، وهو الذي تدعوا له الدولة وتحرص على إدامته، لأنه يساعد في إنشاء حالة إقتصادية أفضل، ويساهم في تعزيز الضرائب التي يدفعها العاملون للدولة...،،

لم يستدعِ إنتباه فرانك في الجريدة شيئ جديد لم يألفه من قبل، غير خبر أو مقالة صغيرة تتحدث عن سعي البعض من اللاجئين الجدد.. الذين وصلوا للبلد حديثاً لمحاولة إقناع الحكومة.. أن تنشئ لهم مدارس خاصة بهم، يتم فيها تدريس المناهج التي يعتبرونها تناسبهم، أو أنها من حقهم بإعتبارهم في بلد يحترم حرية الرأي، وفيه نظام ديمقراطي يحق فيه للإنسان أن يرفض ما لايعجبه..، ولا يحق للدولة أن تفرض عليه أن يعيش بالطريقة التي ترتأيها هي له...!

لم يستطع فرانك معرفة من يمكن أن يكون كاتب هذا المقال أو الخبر، غير أنه لابد أن هنالك من يساعد اللاجئين الجدد في هذه المحاولة، ومن المتوقع أنهم أناس ممن يعرفون جيداً المنافذ في قوانين الدولة

وحقوق المواطنين، وما يمكن أن يؤدي للنتيجة التي يحاولون الوصول إليها...!

ترك فرانك الجريدة جانباً، وذهب مع نفسه وبتفكيره محاولاً أن يستخلص شيئاً مما قد قرأه في الجريدة في هذا الخبر، وما سبقه عندما كان يمرّ بنظرات عابرة على الإعلانات التجارية، فهذان أمران يبدو أنهما هما اللذان يحكمان الإتجاهين المهمّين للمهاجرين واللاجئين في هذا البلد....

هذان الإتجاهان المتضادّان واللذان يبدو أنهما سيصلان يوماً قريباً إلى مرحلة المواجهة والصراع فيما بينهما، ولا يمكن الآن معرفة لمن ستكون الغلبة في حينها، فقد تنتقل الأوضاع والحال التي عاشها الناس من قبل في بلدانهم التي حكمتها الديكتاتوريات، لتتمكن ديكتاتورية من نوع جديد هنا وفي ظلّ مسمَّيات جديدة.. من مثل حكم الشريعة أو ماهو قريب من ذلك، والتي يمكن أن تحكم الناس وتطبق قبضتها عليهم... كلهم...، من يدري...؟!

كلّ ذلك يمكن أن يحدث في هذه البلدان، بفعل تجارب البعض من السياسيين الذين يطبقون نظرياتهم على مجتمعاتهم، تلك النظريات التي غالباً ما تكون مبنية على سذاجة في الفهم، وتفتقر للمعلومة الصحيحة الدقيقة، في ظلّ الديمقراطية التي تبيح لهم ذلك بمجرد أن يحققوا نصراً إنتخابياً...،،

أو ربما أن المهاجرين واللاجئين الذين يعيشون اليوم في هذا المجتمع، وهم منسجمون معه إلى درجات بعيدة حالياً، يمكن أن يتحولوا بين ليلة وأخرى، إلى مناصرة هؤلاء القادمون الجدد الذين يسعون للوصول إلى مآربهم، كما يقول حسين، وهم يندفعون من خلال من يمدّونهم بالتمويل والدعم، وهم يؤمنون بما يدفعهم لبذل ما يستطيعون لبلوغ غاياتهم....،،

نعم،، إن كلّ ما يقوله حسين يمكن أن يكون صحيحاً....!
إنه صحيح جداً، لا يمكن أن يخطئ حسين في بعد نظره هذا، إنه يفكر في هذا الموضوع بعمق...،
لابد أن شيئاً ما سيحدث....، شيئ لا نتوقعه.....،
أو ربما لا نتوقع مقدار قوته وسوء نتائجه وتأثيرها علينا... كلّنا.. بلا إستثناء...،،
ولكن متى سيكون ذلك.....،،؟
هل سيحدث بعد أن أصبح عجوزاً...؟
عندما لا أقوى على حماية نفسي وحماية كارول وبريجيت...؟
هل يمكن أن يكون ذلك...؟
هل يمكن أن أعود إلى وضعي السابق.....؟
في معايشة القلق والخوف.....! الخوف من المجهول...!
أي لعنة هذه التي كتبت علينا...؟
أي حياة هذه التي نحياها....؟

إنتهت بريجيت من ترتيب المطبخ بعد إنتهائهم من تناول العشاء، وجائت لتجلس مع فرانك في غرفة المعيشة، بينما ذهبت كارول لغرفتها، ولاحظ فرانك أن بريجيت لم تطلب من كارول أن تأتي للجلوس معهم في غرفة المعيشة، وهذا ما لا يحدث في العادة إذ أنها دائماً تحرص على أن تأتي كارول لتجلس معهم، وتتجاذب معها بريجيت الحديث عما حصل في المدرسة في ذلك اليوم...،،
جلست بريجيت على الأريكة المقابلة لتلك التي يجلس عليها فرانك مسترخياً وهو يمدّ رجليه على طول الأريكة، لم تقل شيئاً أول الأمر، بل جلست بينما يبدو عليها واضحاً أنها تتهيأ لفتح موضوع تريد التحدث به مع فرانك... وكان فرانك نفسه يتوقع منها أن تبدأ الكلام في

أي لحظة، إلّا أنها تأخرت أكثر بكثير من توقعاته، وهذا يعني له أنها مشحونة بموضوع ربّما هي نفسها لا تعرف كيف تبدأ الحديث به...!
وأخيراً جاءه سؤالها:

- هل تعتقد أن مخاوف حسين مما يمكن أن يحدث هنا، حقيقية أم أنه يبالغ فيها...؟
- .... أعتقد أن مخاوفه حقيقية ولكنها لن تكون بهذا الحجم، وأنا لا أتصور أن بلداً بهذه الكفاءة.. يمكن أن يقع فريسة لأناس يحاولون تغيير الأوضاع فيه، ولا أستطيع تصديق أن القائمين على البلد لا يعرفون نوايا الناس، كل الناس وليس هؤلاء الناس.... من القادمين الجدد فقط..،،
- ولكن مثل هؤلاء الناس قاموا بأعمال شغب وإرهاب في بلدان أخرى...، ولا يوجد ما يمنعهم أن يقوموا بنفس الأفعال هنا، أو ربما أشدّ منها...،،
- لا أعلم... ولا أستطيع التنبؤ بما يمكن أن يحدث، لكنني سأظلّ على إعتقادي بأن حالنا لن يكون سيئاً مثلما يتصوره حسين...، أو على أقل تقدير نحن هنا في حال أفضل بكثير مما كنا عليه في بلدنا الأول، رغم أننا الآن علينا أن نرعى كارول ونحميها من أي خطر يمكن أن يهددها ويهددنا... ونحن هنا نمتلك الحق في الدفاع عن أنفسنا على أقل تقدير...،،
وقد كنا في بلدنا الأول لا نمتلك حتى حق الدفاع عن النفس...!
بل أن نفوسنا كانت دوماً ملكاً لمن يحكمنا...!

كان واضحاً على بريجيت من خلال صمتها... أنها غير مقتنعة بما يقوله فرانك.. وإنما سكوتها هو دلالة على أنها تفضل أن تفكر لوحدها في موضوع كهذا... فهي تفضل أن لا تشركه في ما تفكر فيه من أمور تحتاج لإتخاذ قرارات صعبة... رغم أنها الآن مشغولة بما هو مهم جداً

لديها وهو موضوع صديقات كارول، إلّا أن هذا الموضوع ليس بأقل أهمّية من ذلك... بل إنه موضوع خطر ويحتاج لتفكير عميق... جداً..،

*****

علي

شخصية علي قد تبدو لكثير من الناس أنها لشاب إعتيادي، نشيط الهيئة وذو همّة عالية، حسن الخلق، مطيع لوالديه، يتمتع بخصال الشاب ذو الروح المرحة والذي يميل للنكته الهادفة، وليس النكتة التافهة التي لا تحمل معنى وليس لها قيمة في داخلها، ولقد ورث علي البعض من صفات أبيه بحكم الوراثة وبحكم معايشته له،، فهو لا يذكر أنه قد إفترق عن أبيه منذ أن فتح عينيه على الدنيا، عندما كان يشهد المعاناة في عيون أبيه وأمه قبل أن تغادر العائلة كلها بلدهم إلى بلد المهجر،، وكان رغم صغر سنه يشعر بأن عائلته تمرّ بأوقات صعبة، وغير عادية وهم يودّعون بلدهم مغادرين إلى المجهول، فلم يكن يوماً أثناء رحلة هجرتهم الطويلة بطيئ الفهم، ثقيل الإحساس بما حوله من وضع غير طبيعي، مثلما هو الحال مع معظم الأطفال من عمره، الذين يزيدون من معاناة أهلهم في الأوقات الصعبة، وقد كانت الأوضاع في تلك السنوات التي هاجروا فيها من بلدهم، أوضاعاً لا يؤتمن جانبها، وكان الناس يخافون من مجرد إعلان رغبتهم في الهجرة، خوفاً من الحكم القمعي الذي كان متسلطاً عليهم، وكانوا يحتاجون إلى الكثير من الحظ، لكي يتم قبولهم لاجئين من قبل واحدة من الدول المختلفة، ولم

يكن في ذلك الوقت غير القليل من الناس ممن يستطيعون أن يوفروا المبالغ الكبيرة... لكي يدفعونها لأناس إحترفوا مهنة تهريب اللاجئين إلى تلك الدول، ولم يكن المهربون متوفرين في تلك السنين كما حصل بعد ذلك عندما أصبحت أعدادهم كبيرة مع إزدياد عدد المندفعين للهجرة... فقد أصبح تهريب اللاجئين مهنة معروفة... حاولت الكثير من الدول محاربتها وإيقافها بشتى الوسائل، ولكنها لم تفلح إلا بعد أن غيَّرت كثير من الدول قوانينها، وأصبح وصول اللاجئ لبلد ما لا يضمن حصوله على حق اللجوء....،،

لقد عاش علي تلك المراحل التي مرّ بها أهله منذ ذلك الوقت، وأبقاها مخزونة داخل صدره وعقله وعواطفه، ولم يترك لها مجالاً لكي يظهر أثرها على سلوكه، فهو لا يتحدث عنها، بل لا يرغب مطلقاً في الحديث عن ذكرياته وهو صغير...، رغم أنها بالتأكيد كانت وما تزال تحزّ في نفسه، فهو لا يستطيع أن ينساها، رغم أنه لا يتذكرها كلها لصغر سنه.. لكنه وكما هو الحال مع كل ذكرى مؤلمة تظلّ رواسبها في نفس الطفل لسنين طويلة، ربما ليس كل طفل... ولكن علي كان طفلاً ممن يتذكرون الخيالات السوداء.. مما لا يمكن أن ينسونه مما قد مرّوا به.. فهو في معظم الحالات يشبه حسين.. والده.. لكنه يختلف عنه في أنه لا يتعلق بين وطن قديم ووطن جديد، ولا يعيش حالة التأرجح بين أي من الوطنين عليه أن يختار، كما هي الحال مع حسين، وهو يدرك أنه لا يمكنه ولن يستطيع حتى لو حاول، أن يعيش في وطن أبيه الأول، وذلك لأنه لم يعتد أن يعيش مقموعاً من قبل، لا من أناس آخرين، ولا من نظام حكم قمعيّ، ولا يمكنه أن يعيش بالقرب من قمع يأتيه من آيديولوجيات وطلاسم عفا عليها الزمن.....،،

علي يشبه أباه حسين كثيراً...

لكنه أكثر منه حزماً في المواقف الصعبة...،

وهو لا يلين أمام عواطفه... فقد أكسبته التجربة التي مرّ بها مع أهله قوة يفتقر لها والده حسين، ذلك لأن حسين عاش طفولة لم تكن فيها معاناة مثل تلك التي عايشها علي، رغم أن الفارق الزمني بينهما يقرب من أربعة عقود من الزمن، مما يعني أن الأب قد عاش حقبة زمنية أفضل وأكثر مروءة وإنسانية مما عاشها إبنه، وهذا ما يخالف المعتاد من كل النواحي والمقاييس.. كما أن الواقع الإجتماعي الذي نشأ فيه علي، جعل منه في الكثير من الأحوال، يعيش معتمداً على نفسه وقدراته الشخصية حتى وهو طفل في بداية دخوله المدرسة، ولم يكن يأتي للبيت لكي يشتكي مما يحدث له في المدرسة، عندما كان يتعرض لمضايقات الأطفال الآخرين، فقد كان يتصور أن الوضع الصعب الذي تمر به عائلته، مازال قائماً... وأن عليه أن يصبر حتى تنجلي الأمور أكثر، وتنقشع غمامة القهر والقمع عن أهله وعنه....،،

لقد كان يتسائل بينه وبين نفسه دوماً عن معظم ما يعترضه من أمور، وكان يحاول أن يجد جواباً أو أجوبة لكل سؤال أو أمر يستشكل عليه، وكان دوماً يختار الجواب الأصعب، الجواب الذي يحتاج منه أن يتعلم أكثر، ويصبر أكثر... ويعتمد على نفسه أكثر... ويعاني أكثر....،،!

لقد خلقت الحوادث والأيام والسنين من علي شخصية متفرّدة...، لا يشبه الشباب الكثيرين ممن هم في مرحلة عمره...،،

ولكنه يبقى شخصية تختزن الكثير مما لا يعرفه عنه حتى أهله، وهذا مما تعاني والدته منه، حيث أنها تحاول دوماً أن تفهم منه ما تستطيع عن حياته الخاصة، لكنه لا يعطيها إلا ما قلّ ودلّ، بالتأكيد لم يكن يعطيها إلّا ما قلّ..، ولكن لم يكن بالضرورة هذا القليل يدلّ على شيئ تفهمه والدته وترتاح لمعرفته، فكانت تلجأ لأبيه تطلب منه المساعدة، في معرفة أي شيئ عن حياة إبنها الخاصة، إلا أنها لا تصل إلى ما تطلبه من حسين، لأن حسين ببساطة لا يكترث لما تطلبه زينب من معلومات عن إبنها، وكان حسين يجيبها بأن يقول لها ما مضمونه: إذا

كنت تريدين أن تعرفي منه تفصيلات دقيقة عن حياته...، فربّما هو لا يريد الدخول في التفصيلات.. وهذه خصلة من شخصيته... أما إذا كان لديك شكّ في صدق ما يقوله لك...، فهذا أمر آخر... وعليك أن تواجهيه بذلك...،،

هل تتوقعين أن إبنك يكذب عندما يجيبك..؟

ولكن حسين في حقيقة الأمر، ليس بعيداً عن تفسير وضع علي الذي يصعب فهمه على أمّه رغم أنها دائمة التفكير به، فقد كان حسين يعرف عن معاناة علي من صدق الإحاسيس والنوايا التي يشتركان بها هو وإبنه، وفي نفس الوقت الخوف من أن لا تلقى هذه الإحاسيس وهذه النوايا الصادقة، التقييم في هذا البلد.....، هذا البلد الذي لا يستطيع علي إلّا أن يعتبر أنه قد فرض نفسه هو وعائلته عليه، عندما قرّروا أن يهاجروا ويتركوا بلدَهم الأول متوجهين نحو المجهول، حيث لم يكن لديهم خيار مفتوح إلى أي بلد يستطيعون أن يهاجروا له... لقد كانت تلك الرحلة ضبابيّة ومغلّفة بالمجهول، ويشعر فيها الإنسان بمنتهى الإذلال، وهو يرى نفسه يستجدي ما يمكن أن يُنعِمَ به عليه موظفون يعملون أجيرين لدى وكالات دولية، ليقوموا بإختيار مَن يستحق برأيهم أن يبدأ حياته من جديد، ومَن عليه أن يعود أدراجه من حيث أتى، لكي يظلّ ما تبقى له من عمر يتصارع مع الجبابرة والطغاة، أمام مرأى ومسمع العالم.... لم يكن علي يعرف تفاصيل ذلك عندما كان أهله يمرّون به لأنه كان صغير السن، لكنه عرفه عندما كبر، وبالرغم من أنه لم يمرّ بالكثير من المضايقات من الأطفال في المدرسة، ممّا له علاقة بكونه طفل ينتمي لبلد بعيد... قد جائت عائلته لتلجأ لهذا البلد وتحتمي به...، إلا أنه كان يعرف أكثر مما يجب عن هذا الأمر... بالقياس لطفل في عمره، وهذه ربّما حالة من الحالات التي يمكن التعليق عليها بأن جهل الأطفال فيها أفضل من علمهم بها....،،

علي يعاني من حالة حُبٍ عظيم في قوته وتأثيره في نفسه، بل إنه يعاني حالة من العشق التي لا يستطيع أن يُبديها لأحد، حتى لأمّه...، خوفاً من أنها لن تستطيع أن تتفهم التعقيد الشديد في هذه الحالة...،،

علي يحبّ هذا البلد الذي عاش فيه وتعلم، ورأى الحياة بأبهى صورها، ولم يشعر فيه بالخوف من أحد...،،

لكن هذا كلّه لم يوفّر له الشعور بالإطمئنان بأنه سيكون مقبولاً دوماً في هذا البلد.... وبدون منغّصات ومشاعر عزلة مؤلمة، فهو يعرف أن المستقبل ليس كلّه بيده، كما أنه غير متعلّق بجهوده.. وما سيحدث ليس بيده مطلقاً... بل أنه مرتبط بالكثير من العوامل الأخرى التي يتحكم بها الأقوياء..،،

ولن يستطيع علي أو من هو أقوى منه، تغيير الكثير مما هو في أيدي الأقوياء الذين يتحكمون في الأمور...،، بل إنهم يحكمون العالم...،،

إنه يدرك جيداً أن المستقبل لن يأتيه كما يشتهيه...،،

وهو يدرك أيضاً.. أنه مايزال في طورٍ وحالةٍ أشبه ما تكون بحالة القُرعَة... الصُدفة... أو الإختيار العشوائي، التي تتحكم في الكثير من الحالات في مصائر الناس، وهذه هي التي يمكن أن تخرجه من دائرة ما يستطيع السيطرة عليه... وترميه في لُجَج المستقبل....،،

المستقبل... الذي لايعرف له شكلاً....،،

إنه يعلم أن الإنتماء في مثل هذه الحالات لا يحدث نتيجة إختيار الناس أنفسهم، ولا يأتي من مجرد مشاعرهم الصادقة... بل إن الإنتماء يُورَث ومن ثمّ... يُوَرَّث...، وهذه واحدة من خفايا هذه الحياة الظالمة، فالناس لم يكونوا يوماً أحراراً في خياراتهم...،، بل إنهم في الغالب عبارة عن عصارة ونتيجة لما قد وقع من قبلهم...، حتى مما لا دخل لهم به...،،

ليس من السهل على من هو قريب من علي أن يعرف حقيقة موقفه من أهله ورأيه فيهم، فيما يخصّ عقليتهم وأسلوب حياتهم في بلدهم الجديد...،،

فهو لا يتذكر الكثير من التفاصيل عن أسلوب حياتهم في وطنهم الأول..،، ولا يعرف إن كان لمن عاش في الوطن الأول أسلوب خاص به في الحياة...؟

فلم يكن متاحاً للناس في ذلك البلد... غير الرعب والخوف من الواقع المعاش.. والمستقبل المجهول معاً...،،

ذلك الرعب والخوف الذي يشيع ويعمُّ بين الناس بلا إستثناء،، حتى بين من كانوا يعيشون في ظِلال السلطة ويحتمون بها...،،

لكن علي ظلّ لسنوات عمره يسمع من أهله عن تأريخ معاناتهم مما لم يشهده هو فعلياً، وكذلك الكثير مما لم تستطع ذاكرته الإحتفاظ به في السنوات الأولى لهم من وصولهم لبلدهم الجديد...،،

ظلّت تلك الأحداث تعيش في مخيلته وتصوراته...،

وظلّت توحي له بالرعب الذي لم يعشه هو فعلياً بل إنتقل له من خلال صلته بعائلته...،،

في كثير من الأحيان... يرى علي أن أهله أناس ليسوا راجحي العقل..! ويعتقد أنهم بحاجة لكي يعيدوا النظر بكل ما تعوّدوا عليه في حياتهم من قبل، وأن عليهم أن يعيشوا الواقع الحالي وأن يكونوا بمستوى ما تحتاجه حياتهم الجديدة من عقلية جديدة، وحتى سلوك جديد.. بل ربَّما حتى مشاعر وأحاسيس جديدة...،،

إنه يعني بذلك وبشكل خاص والده حسين بالدرجة الأولى، ووالدته زينب بالدرجة الثانية، وأنهم ربما يكونون مصابين بنوع خاص من الجنون، أو إختلال في العقل لا يصيب إلّا أمثالهم ممن عاشوا في بلدان العالم القديم، أو ربما حتى أؤلئك الذين يعيشون في العالم الجديد، ممن لا ثقة لهم بأنفسهم، ولا بقدراتهم في أنهم هم من يجب أن يخلقوا الأوضاع التي تحيط بهم، وليس العكس عندما يتركون الأوضاع المحيطة بهم تخلقهم، وتشكل شخصياتهم...!

عندما ينظر علي لأبيه حسين ويرى فيه تلك العاطفة لبلده الأول وللماضي من حياته، حتى مع علمه بأن والده ليس ممن يُمَجّدون الماضي، فإنه يرى فيه منتهى الضعف، لا بل الذلّ والهوان..، ليس أمام الآخرين، ولكن أمام النفس التي تستقي عزيمتها وقدرتها على الإبداع.. عندما تكون حرّة من كل قيد، سواء كان ذلك القيد من قيود الماضي المتمثلة بالقيم والإعتبارات، التي تختلف فيها الآراء والنظريات، أو قيود الحاضر التي تتمثل بالقيم الحديثة وما فيها من لَبسٍ وغشٍ وخداعٍ وزيف...،،

لا يستطيع علي أن يتصور كيف يمكن لأبيه أن يظلّ غير قادر على أن ينسى وطناً لم يكن يعيش فيه بحريته، بإنسانيته....،، ولم يشعر فيه يوماً بأنه... آمن على نفسه...،،

ذلك الوطن الذي كان يحيط مواطنيه بالخوف والترهيب في كل يوم..،،

وطن كان الناس فيه يُصبحون على تمجيد الحاكم... ويُمسون على كرهه والخوف منه....،،

وطن لم يكن يعرف أي من مواطنيه... إن كان سيقضي ليلته مع أهله أم في غياهب السجون...،،

وطن لا يعرف أبنائه من هو الذي يمكن أن يوشي بهم لدى الطاغية....،، ولا من يمكن أن يتحدثوا معه عما في نفوسهم...،،

وطن يُصبح الناس فيه على أخبار تهدم كلَّ ما تبقّى عندهم من آمال...، وما حلموا به في الليلة الماضية...!

ثم يُمسون على قرارت.. لا يعرفون إلى أي مدىً ستقلب حياتهم رأساً على عقب...،،

وطن يمتلكه الحاكم الأوحد،، وما عداه ليسوا غير رعاع مُلزَمون بالتصفيق والمديح والغناء له.....،،

ومن هنا كان قول علي لفرانك عندما جاءه للبقالة يسأل عن حسين، أن والده:

"لن يدّعي حدوث شيئ غريب عندما ينتهي إعتكافه"

ولكن فرانك لم يعرف في وقتها تفسيراً لما يقصده علي من كلامه عن أبيه، غير أنه من الواضح أنه كان يقصد أن حسين في سلوكه وهو يعتكف.. يشبه في الظاهر سلوك الكثيرين ممن أعلمنا التأريخ عنهم، أنهم كانوا يعتكفون أو ينعزلون عن الآخرين، ومن ثمّ إنتهى إنعزالهم بأن خرجوا للعالم بأمور كبيرة، لكن حسين لن يخرج للعالم بأمر من مثل هذه الأمور، أو حتى بأي أمر آخر....،،!

ذلك أن حسين رجل مسالم...،، رجل لم يعرف العدوانية يوماً في حياته...،، ولم يكن يوماً يريد أن يبلغ مكانة تؤهله لأن يتحكم بحياة الآخرين ولا بشؤونهم....،،

إنه رجل إمتلك القدرة الفطريّة على الملاحظة والتمييز، ولم يكن يسعى لمنفعة خاصة به من وراء ذلك...،،

فما كان من الأمر إلّا أن إنعكس بكل سلبيّاته عليه وأصبح يطارده ليلاً ونهاراً....،،

لا يستطيع الفكاك منه ولا الخلاص..،،

ربما يمكنه الخلاص منه... عند الخلاص من هذه الحياة....!

*****

حسين ولمحات من الماضي

في صباح اليوم التالي إستيقظ حسين متأخراً عمّا إعتاده، بعد أن كان قد تأخر ليلة البارحة، لسهره لما بعد منتصف الليل.. وبعد أن إنسحبت زينب من مجالسته.. تلك الجلسة التي تحدّثوا فيها عن أمور تخص حياتهم ومستقبلهم.. ومستقبل أبنائهم في بلدهم الجديد...،،

جلس حسين في مكانه المعتاد عند طاولة المطبخ الصغيرة، بانتظار الفطور الذي كانت زينب تقوم بإعداده... وكان على الطاولة كرّاس وقلم، يبدو أن زينب كانت تستخدمهما عندما تحتاج لتسجيل ما تريد تسوَّقه للمنزل...
سحبهما حسين بيده ووضع الكرّاس أمامه... وظلّ محدقاً به لثوانٍ، دون أن يكون في الصفحة الأولى من الكرّاس شيئ مكتوب... ثم أخذ القلم وبدأ يخط على الصفحة خطوطاً ليس فيها شيئ واضح... حتى جائته زينب بكأس الشاي الذي تعوَّد أن يبدأ فطوره به، وتعمَّدت أن تنظر ماذا يكتب على الصفحة، ورأته يرسم خطوطاً وكأنه يحاول أن يرسم حمامة... أو أنها هكذا توقعت على ما يبدو من معرفتها به.. وبحبه للحمام منذ صغره... فكان تعليقها على ذلك بقولها:

- كنت أحسب أنك سترسم صورتي...،،
أنا الحمامة التي طارت معك على طول طريق هذا العمر الشاق.. وكل ما واجهناه فيه من صعوبات...،،
- ..... أنت أكبر من أن أستطيع أن أرسمك.. هل تعتقدين أنني "دافنشي" حتى أستطيع ذلك..؟
- لا... ولكنني كنت أتمنى لو أنك تحسبني واحدة من الحمامات.. اللواتي مازلت تحب أن تتذكرهن... كلما سنحت لك الفرصة... وعصفت بك ذكريات الماضي..
- هل تعرفين يا زينب أنني لم أحب شيئاً في حياتي... مثل حبي للحمام.... طبعاً بإستثناء حبي لك وللأبناء...،
- مممممم.... الله يجبر بخاطرك....،
- إسخري من كلامي مثلما يعجبك... فأنا لا أستطيع أن أقول غير الحقيقة.. أعجبتك.. أو لم تعجبك.. ولن أخدعك رغم أنني قد خدعت الحمام عدّة مرّات في حياتي... وهذا ذنب أشعر به ولم أستطع لسنوات طويلة أن أغفره لنفسي... وقد حاولت لسنين مضت أن أقوم بما يمكن أن يكون إعتذاراً، عمّا بدر مني في الماضي.. لكنني كنت في كل مرّة أتراجع خوفاً من أن يتكرّر الماضي، وأضطرّ لخداع الحمام مرة أخرى....!
- هذه تبدو لي قصة جديدة لم أسمعها منك خلال سنوات عمرنا معاً.. أقصد طيراننا معاً.. ويبدو لي أن موضوعها يستحق التوقف عنده.. وكأنك جادّ فعلاً فيما تقوله...،،
حسين هل هناك شيئ ما تشعر به... هل أنت بخير...؟
ماذا حلّ بك...؟
بل ماذا حلّ بنا كلنا...؟؟

تسائلت زينب هذه التساؤلات بقلق واضح... بعد أن توقفت عن عمل الفطور... منتظرة من حسين أن يوضّح كلامه...،،

- لاشيئ... لا تخافي.. إنه الماضي وما إختلط فيه بين إحساس بالطمأنينة وإحساس بالخوف... بين اليأس والأمل... بين الوفاء والخداع والنكران...،
- لا.. أنا متأكدة أن في الأمر شيئ... أنا أعرف أنك تحب الحمام كثيراً... ولا يهمني إن كنت تحبه أكثر مني.. لأن هذا الأمر لم تعد له قيمة الآن.. ولكنني جادّة في أن أعرف ماهو الجديد..؟ هذا الذي يجعلك بهذه الحالة من الإحباط واليأس... ومن دون أن يحدث شيئ جديد لنا وفي حياتنا...،
- قلت لك لا شيئ... إنها فقط علامات النهاية...،

كل شيئ يبلغ نهايته... كل شيئ لابد أن ينتهي...

حلواً كان أو مرّاً... ليس في الحياة دوام.. ربما الظلم والغش والكذب والإدعاء... يمكن أن تبقى...،،

لكن لا يمكن لشيئ حَسَن أن يبقى...،،

كل شيئ حَسَن ومسالم لا يملك القدرة على البقاء.... إنه قانون الطبيعة...،،

- ليس في هذا جديد... لقد سمعته منك كثيراً.. وأصبحت أعرفه مثل الدرس اليومي... ولكن الجديد اليوم هو موضوع خداعك للحمام... وبودّي أن أعرف ما هذا..؟
- نعم... أنا أعرف بأنني قد أصبحت منذ سنوات أكرّر نفسي... ولكنني أكرّر أموراً تحتاج للتكرار... لماذا تعتقدين أن الأنبياء كانوا يتكرّرون... وكانوا كلهم يدعون لنفس الأمر... هل كان تكرارهم أمراً مملاً وغير ضروري برأيك.. أم ماذا...؟؟
- أنا لا أريد أن أخوض في هذا المجال.. إنه شيئ مخيف بالنسبة لي.. أنت لا أعرف من أين تأتيك الثقة والجرأة للحديث في

هذه المواضيع... وأعتقد أن إبنك علي سوف يسير على طريقك... والله يستر...!

- علي سوف يكون أقوى مني... ولن يقع تحت طائلة من يقمع حريته ويمسخ شخصيته... فلا تكرهي فيه أن يتّبع طريقي...!

.....هل ستنسين الفطور أم أنك أضربت اليوم عن الطعام.. وبدون سبب..؟

أنا مهموم وأحاول أن أنسى همومي الحالية.. بأن أتذكر هموماً من الماضي.. هموم لها طعم خاص...، طعم يشبه (الأبوذيّة العراقية)....،

هل تسمعيني لو قرأت لك (أبوذيّة) الآن...؟

هذه الأبوذية التي عاشت مع مراحل تأريخ هذا البلد..، وأعتقد أنه لا أحد يعرف متى ظهرت...،

أم تريدين أن تشاركينني ذكرياتي عن الحمام قبل أكثر من خمسين سنة...؟

- لا أعتقد أنني سأستأنس بالإستماع لأيٍّ منهما... ولكن ذكرياتك عن الحمام ربما تكون أرحم من سماع أبوذيّة... تعتصر قلبي.. وعلى الأقل ربّما أعرف كيف أنك خدعت الحمام...،،

- عندما أقول لك أنني خدعت الحمام، فإنني أعني ما أقوله.. وهذا قد حصل فعلاً.. وليس هذياناً أهذيه..، فأنا كنت أعامل الحمام معاملة أكثر من حسنة... وكنت أحصل على ثقة الحمام بي، لأنني أعرف أنه يقدّر ما يراه من إهتمامي به... ولكنني كنت عندما أدخل في مشكلة مع أبي... كان في كل مرّة يصبّ غضبه على الحمام... ويأمرني أمراً يجب تنفيذه خلال ساعات.. وهو أن أخرج الحمام من البيت... وللسرعة في تلبية أوامره كنت أضع الحمام في أي صندوق من الكرتون أو حتى في أكياس ورقية.. وأذهب به لأحد أصدقائي لكي يحتفظ به في

بيته إلى أن ينتهي غضب أبي، فأطلب من صديقي أن يطلق الحمام لكي يعود للبيت طيراناً... ولكن غضب أبي كان يدوم في بعض المرّات لمدة أطول مما يستطيع صديقي الإحتفاظ بالحمام في بيته، خصوصاً إذا كان هو لا يمتلك الحمام، ولا يعرف شيئاً عن تربيته، أو أن أهله لا يحبون وجود الحمام في البيت...، فكنت في مثل هذه الحال أضطر لبيع الحمام... وهنا كانت تواجهني نظرات الحمام وأنا أضعهم في الصندوق المتهرئ أو الأكياس الورقية، وهي نظرة كنت أقرأ فيها عتاباً لا أستطيع تصويره لأحد... ولن تستطيعي أنت ولا أحد غيرك أن يتصور، كم كانت تؤثر فيّ نظرة الحمام لي وأنا أقرّر بيعهم.. بعد أن خدعتهم عند وضعي لهم في الصندوق، لأنني كنت كثيراً ما أضعهم في الصندوق في الأيام الإعتيادية، وأذهب بعيداً عن البيت لمسافات، ثم أطلقهم لتدريبهم لكي يعودوا للبيت طيراناً.. وكنت أشهد فرحهم وهم ينطلقون من يدي، للطيران والدوران في السماء لعدة دورات.. يصفق معظمهم بأجنحته فرحاً وثقة بأنه سيعرف الطريق... طريق العودة للبيت... البيت الذي هو أعزّ شيئ عندهم... ثم يتوجهون نحو البيت ويصلون له قبل أن أصل أنا نفسي له... أو أتركهم وأتوجه نحو وجهة أخرى لأنني أثق بأنهم سيصلون بدون مشكلة....،

حتى حانت تلك المرّة الأخيرة عندما كان غضب أبي قوياً لدرجة أنه قرّر أن يهدم البرج الذي يأوي الحمام له... وأمرني كالعادة أن أخرج الحمام وللأبد... وكانت تلك أقسى مرّة... فقد شهد الحمام تخريب برجهم بأعينهم.. وأنا كنت واقفاً لم أستطع أن أفعل شيئاً.. والحمام طبعاً كان لا يعرف تفسيراً لما يحدث.. فقد كانت ثورة أبي عارمة.. إكتسحت كل ما يقف أمامها...

ومرّة أخرى وضعت الحمام في الصندوق.. وذهبت به للمرّة الأخيرة والنهائية...،،

ولكن بعد أيام تفاجأت بعودة بعض الحمامات لسطح المنزل... وشاهدت فرح البعض منهن في عيونهن... وكان يبدو عليهن أنهن غير مباليات بما حصل.. وأنهن سيبقين في البيت مهما كان حال البرج المهدّم... ولكن يبدو أن البعض الآخر منهن.. قد جئن لكي يتأكدن مما حصل.. وعندما شاهدن خراب البرج.. قد أصابهن الرعب مرة أخرى.. وتذكرن غضب أبي وقرّرن أن لا يخضن تجربة جديدة مع غضب بني الإنسان... فسارعن بالطيران للهرب بعيداً وللأبد... وكانت تلك أول مرّة أرى فيها الحمام يهرب من بيته بعد أن عاد له يدفعه شوقه وأمله....،،

- .... حسين... إن كلامك هذا مرعب ومخيف لي، أكثر من الرعب الذي سببه للحمام غضب والدك وتهديمه البرج...،،

حسين.. قل لي بصراحة.. هل تفكر بالعودة لبغــداد..؟

*****

فرانك والموقف الحاسم.....

ظلّ فرانك في دوامة تفكيره وإحساسه بأن وضعه مازال يفتقر للإحساس بالإطمئنان... الذي يحتاجه للشعور بالإرتياح في محاولته للإستمتاع بحياته، التي مازال يشعر بأنها ليست مثلما كان يتصور في السابق... عندما كان يتوقع أنه سيبلغ ذلك الشعور بالراحة بعد أن يستقر في حياته العائلية وفي عمله... والسبب في إحساسه هذا هو سبب واحد بلا شك... وهو يعرفه جيداً لكنه لا يعرف كيف يمكنه أن يتخذ موقفاً منه... لقد أصبح مسلوب الإرادة منذ أن إتّخذ قراره الصعب، عندما غَيَّر دينَه... ومن بعدها لم تعد له قدرة على أن يتطوع لمواجهة الأمور الصعبة... خصوصاً بعد إرتباطه بزوجته بريجيت وتركه لمعظم المسؤوليات الإجتماعية لها...

لقد أصبح هذا الموضوع يسيطر على فكره كلية.. وليس من السهل عليه أن يتخلّص من التفكير به... خصوصاً بعد اللقاءات الأخيرة مع حسين وما نتج منها من نقاشات ومواضيع إستجدت... والإيحاءات التي بدأت تراوده بشأن ما فعله في السنوات الأخيرة التي عاشها بعيداً عن وطنه الأول.. وأهله الذين تركهم ولم تعُد له قدرة ولا وسيلة

للتواصل معهم... فهو لا يستطيع زيارة بلده الأول.. العراق.. بعد أن أعلن عن تغيير دينه... رغم أن إعلانه هذا لم يعرف عنه إلا أؤلئك الناس القليلين المحيطين به.. في المدينة التي يعيش فيها في وطنه الجديد... ولا يوجد فيهم من يعرفه سابقاً من جنوب العراق.. ولا من يعرف أهله، وكانت هذه واحدة من الأمور التي يرتاح لها... لأنها توفر له الإطمئنان إلى أن أهله لا يعرفون شيئاً عن تطورات الأمور.. وماذا تغيّر في حياة إبنهم.. فلاح... الذي أصبح فرانك.. وغيّر أشياء أكثر جوهرية في نفسه.. منذ أن ودّعهم وغادر بلده...،،

بعد أيام من لقائه الأخير مع حسين في بيته..، وبعدما لم تتكرّر له الفرصة للإلتقاء به مرّة ثانية...، شعر فرانك برغبة قوية في أن يبذل محاولة جادّة لمعرفة أخبار أهله في جنوب العراق... في القرية التي ولد ونشأ فيها وعاش، في محافظة الناصرية... ليس بعيداً عن أقدم مدن الحضارة الإنسانية.. مدينة "أور"، أور التأريخ والحضارة والإنسانية.. لكنه لم يكن قادراً على معرفة كيف سيمكنه ذلك... فهو مازال يتردد حتى في التفكير بالذهاب إلى هناك بنفسه مباشرة، لأنه لا يعرف عواقب ذلك، وما يمكن أن يجلبه ذهابه بنفسه من مشكلات ربما لن يستطيع حلّها.. والتي بدورها ربما تجعله يندم على إتخاذ خطوة مثل تلك الخطوة... ولذلك فقد ركّز على محاولة معرفة من يمكن أن يساعده في معرفة طريقة للإتصال بهم... ربّما تلفونياً.. إنهم لابد وقد أصبحت لديهم تلفونات مثل كلّ... أو معظم الذين يعيشون في البلد.. حتى في قريتهم التي كانت تعيش أشدّ حالات الفقر والبؤس، وبعد طول التفكير، لم يوصله تفكيره إلى أحد أفضل من حميد صاحب مطعم الكباب، الذي يعرفه ويثق به.. ويعرف أنه من الممكن أن يساعده وبدون مقابل.. مساعدة بنفس كريمة لا ترتجي من ورائها منفعة خاصّة... ولذلك فقد قرّر الذهاب له اليوم في أقرب فرصة تسنح له...

وبالفعل فقد ذهب له في الفترة الصباحية قبل الظهيرة... حيث يتوقع أنه لا يكون مشغولاً جداً في ذلك الوقت.. ورأى أن لا تكون زيارته للمطعم بعنوان الإستفسار من حميد وطلب مساعدته فقط... بل أيضاً لطلب وجبة من الكباب الذي يمكن أن يحتفظوا به في البيت... في الثلاجة ليستخدموه متى شاؤوا.. وهو ما يفعلونه في العادة....،

وصل إلى المطعم، ورأى حميد موجوداً فيه كما كان يتمنى... وبعد أن سلّم عليه وطلب منه أن يعمل له وجبة الكباب... جاء دور سؤاله لحميد... كيف يمكنه معرفة من يستطيع مساعدته في تبليغ رسالة لأهله في قريتهم في الناصرية.. فكان جواب حميد أنه لا مشكلة في ذلك.. وأنه سيحاول مع الكثيرين الذين يعرفهم من أبناء الجالية... فإستبشر فرانك بذلك ثم أعطى لحميد إسم القرية وبعض معالمها وأسماء بعض الأشخاص.. يمكن لمن يعرفهم أو يصل إليهم أن يصل إلى معرفة أهله... فكتب حميد المعلومات في ورقة أخرجها من جيبه.. وأخبر فرانك بأن الأمر لن يكون صعباً أبداً.. مادامت الإتصالات التلفونية قد أصبحت مجاناً.. وأضاف لكلامه ما يشير إلى تضايقه من حالة الناس بقوله: أن الناس هناك كلهم اليوم يتحدثون بالتلفونات أكثر مما كانوا يتحدثون وهم يجلسون في المقاهي لا عمل لهم..! ومعظم أحاديثهم لا معنى ولا قيمة لها... وكلها قضاء للوقت الذي لا يعرفون كيف يتعاملون معه...؟ كما أن هذا الحال ليس مقتصراً على ما يحدث بين الناس هناك في العراق.. لأن الكثيرين ممن وصلوا إلى هنا.. قد نسوا أنهم عليهم أن يعملوا لكي يكسبوا قوتهم.. وذلك لأنهم قد علموا بأنواع الطرق التي تؤهلهم حسب القوانين الحكومية هنا.. إلى أن يتمتعوا براحتهم ولا يقومون بأي عمل عن طريق تحايلهم على الحكومة... وعندما يقنعوا جهات حكومية طبية أو غيرها بأنهم بحاجة للمعونة.. لأنهم قاصرون مثلاً أو عاجزون وغير مؤهلين للقيام باي عمل،،

وبعضهم وصل لدرجة الإدعاء والتحايل بأنه مجنون، أو مصاب بالكآبة لأنه لا يستطيع التأقلم مع المجتمع هنا.. والجهات الحكومية ترثي بسذاجة لحال هؤلاء وتتعاطف معهم.. ومن ثم تستمر في الإغداق عليهم بالمخصصات التي لا يستحقونها... وأنهى حميد كلامه بقوله:

- أنا والله لا أعرف كيف يتقبل الله هذا الحال...؟

ولا يقلبها عاليها سافلها على هؤلاء الناس.. وحتى لو تَطلّب الأمر أن يقلبها علينا جميعاً... إنه شيئ مُحَيِّر..!

خرج فرانك من مطعم حميد وكله أمل بأن شيئاً سيحدث، وسيستطيع أن يتصل بأهله ليعرف كيف هي أحوالهم... وسيعرف حال صحة أمه.. التي كانت تعاني من عدة أمراض، ولم يكن لديهم إمكانية على توفير العلاج لها...،،

كيف يمكن أن يكون حالها الآن..؟

وماذا عن والده الذي لم يكن بأحسن حالاً من أمه..؟

وإخوته وأخواته الذين لا يعرف أين قد حلّ بهم المقام...؟

عند عودته إلى البيت لم يجد زوجته بريجيت هناك، ولاحظ أنها قد تركت له ورقة على طاولة المطبخ.. تخبره بأنها قد ذهبت للسوق لكي تتسوق بعض الحاجات للبيت.. فوضع فرانك الكباب الذي إشتراه في الثلاجة.. بإنتظار أن تأتي بريجيت نفسها وستعرف أين تضعه..،

ثم جلس في المطبخ كعادته... وكانت على طاولة المطبخ الجريدة اليومية التي تصلهم للبيت.. فأخذها ليقلّب صفحاتها وبدون أي تركيز... إذ أنه يعتبر أن معظم ما فيها لا يعنيه بدرجة كبيرة.. أو بعبارة أدقّ لا يعنيه الآن وهو يمرّ بهذه الحالة من القلق والرغبة بمعرفة أخبار أهله في العراق...،،

هل سيسمع خبراً عنهم... قريباً..؟
وإذا ما جائه خبر منهم... كيف يمكن أن يكون وقع هذا الخبر عليه؟
وكيف يمكن أن يكون شكل الخبر أساساً...؟
فهو لم يتعوّد أن يسمع أخباراً مفرحة تأتيه من بلده الأول... منذ أن غادره.. ليس له هو فقط.. ولكن لمعظم الناس إن لم يكن جميعهم، ربما بإستثناء المرتبطين بتلك الطبقة المنتفعة الجديدة التي إستطاعت أن تتسلط على الحكم في العراق... تلك الطبقة التي هيأت لها قوى مختلفة أن تتمكن من الحكم هناك... فتنهب كل مقدرّات البلد.. ومن ثم لكي يزداد حال البلد سوءاً... ويستمر الناس في الهروب منه...!
ثم إنتقل بتفكيره إلى ماذا يمكن أن يكون رأي بريجيت فيما قام به من محاولته لمعرفة أخبار أهله؟
هل ستعتبر ذلك منه محاولة لإعادة إرتباطه بالماضي...؟
أم أنها ستنظر للأمر نظرة عابرة.. ولا تهتم به كثيراً..؟
لكنها لا يمكنها أن تغض النظر عن أهمية قيامه بهذه المحاولة وغرابتها في نفس الوقت...، ذلك لأنها لم يسبق لها أن سمعت منه غير أنه مرتاح كثيراً لإبتعاده عن كل ما كان يشكّل له مشكلة أزلية مع حياته هناك.. وعدم قدرته على التعامل مع الناس.. لكنه يعرف.. بل متأكد أنه سيكون لبريجيت رأي قد لا يخطر على باله الآن... وفي الغالب سيكون رأيها صاعقاً له كالعادة من حيث أنها تفكر في أمور لا تخطر على باله... وبالفعل فإن ما قد حصل هو عندما عادت بريجيت للبيت.. كان سؤالها المعتاد له عن كيف كان يومه... وهو يعلم أنها تقصد كم قد كسب في يومه من عمله....،،

- لم يكن جيداً اليوم... لقد كانت أجرة واحدة ولمسافة قصيرة...!
- وأين قضيت معظم الوقت...؟
- لقد ذهبت لمطعم حميد... وجلبت وجبة من الكباب تجديها في الثلاجة...،

- لكنك تعرف أننا مازال لدينا بقايا من الوجبة السابقة ولم نأكلها كلها... فلماذا جئت بوجبة جديدة...؟
هل هناك حصار سيحدث على البلد لكي نخزن المزيد من الطعام...؟
- لا... لن يحدث حصار... كما أن الوجبة هذه يمكن أن تبقى لأشهر حتى يأتي موعد الحاجة لها...،
- يعني أنك وضعت ما قد كسبته هذا الصباح في وجبة الكباب هذه.. هل هذا ما أفهمه مما قد حصل...،،
- نعم هذا صحيح... بل ربّما أنا دفعت للوجبة أكثر مما كسبته من الأجرة... هل هذا يرضيك الآن...؟
- ..... ولماذا أنت عصبي المزاج هكذا....؟
- أنت تحاكمينني على شيئ بدون أن تسأليني ما الدافع أساساً في ذهابي لمطعم حميد...؟ إنه بالتأكيد لم يكن بسبب رغبتي أن أشتري الكباب... بل كان سبباً آخر.. أكيد أنه لا يخطر على بالك...!
- لم تعد لدي القدرة على الدخول في عقلك.... ومعرفة ما تفكر به...،،
- وهل من الضروري أن تدخلي في عقلي...؟
أنا شخص مثل الصفحة البيضاء المفتوحة...، ولدت هكذا...، وعشت هكذا...، وسأبقى هكذا...، وكل مشكلاتي كانت بسبب ذلك... فأنا لا أستطيع أن أكون غير ذلك...!
لماذا إخترت أن ترتبطي بشخص بهذه الصفات؟ وأنت كنت تعرفينني.... هل كنت تفكرين أنك يمكنك أن تغيري مخلوقات الله كما يعجبك وكما تحبين أن يكونوا...؟
- ولماذا أنت عصبي هكذا اليوم..؟ هل حدث شيئ أثناء عملك أو ربّما عند ذهابك لمطعم الكباب..؟

- أنا آسف لعصبيتي هذه... ولكن إطمأني فلم يحدث لي شيئ لا في العمل ولا عند ذهابي لحميد... بل إنه ما يحدث هنا.. إنها محاسبتك الظالمة لي... وكأنني قد صرفت ما أكسبه على نفسي أو لعبت به قماراً وخسرته.. أنا لم أترك بلدي إلا للظلم الذي كان يشيع به.. ولكنني لم أتوقع أن أقضي حياتي مع حاكم ظالم... يشاركني حياتي وبيتي وأنا علي أن أقدم أوراقي وتقاريري يومياً.. بما فعلته ولماذا فعلت هذا ولم أفعل ذاك...، أنت تعيشين وهماً بأنك يمكنك أن تُسَيّري حياتنا بهذه الطريقة مسيرة صحيحة... وليكن معلوماً لديك أنك مخطئة في إعتقادك وتصورك هذا...،،

لقد كان شرائي للكباب حجّة لذهابي للمطعم لكي أطلب مساعدة من حميد... ولم أرغب أن أذهب له لطلب المساعدة فقط.. مع أنني متأكد أن الرجل لن يهتم لذلك سواء إشتريت منه الكباب أم لم أشترِ شيئاً... فهو رجل كما سمعت عنه سابقاً كريم النفس وعمله يسير بأحسن حال... وليس بحاجة لأن أشتري منه شيئاً...،

- .... وأنا أيضاً آسفة ربما لتسببي لك بهذا الإنزعاج... وسأحاول أن أنتبه لذلك في المرّات القادمة... عندما أعلق على الأمور التي تخصّك... رغم أني لا أعرف أين كان خطئي... ولكن هل يمكنني معرفة المساعدة التي طلبتها من حميد... وما الذي تحتاج منه أن يقدمه لك..؟
- غريب أمرك يا "فائزة"... يبدو أنك لن تستطيعي معرفة أين يكمن خطؤك... والآن كنت تقولين بأنك لن تعلّقي على الأمور التي تخصّني.. ثم بعدها مباشرة تسألينني عن نوع المساعدة التي طلبتها من حميد... ألا تجدين في هذا تناقضاً...؟

ثم لماذا في مثل هذه المواقف تفصلين بين ما يخصّني وما يخصّك..؟
منذ متى ونحن منفصلون فيما يخصّ كلّ منّا...؟
ما هذا المنطق الجديد الذي لا معنى ولا طعم له...؟

- دعنا من المنطق الذي لا معنى ولا طعم له... لن أطلب منك أن تخبرني بما طلبته من حميد... ولنترك الأمر ينتهي لهذا الحدّ....،،
- أنا لا أقصد أن أخفي عنك ما طلبته من حميد....

لأنني أعرف أنك عاجلاً أو آجلاً ستعرفينه... عندما يأتيني خبره... وأعرف مسبقاً أن مشكلة ستقع عند ذلك.. أو أن هذا ما أتوقع حدوثه...،
لقد طلبت من حميد أن يجد لي من يمكنه مساعدتي بالبحث عن وسيلة للإتصال بأمي وأبي...!
هل يعجبك هذا... أم أنني قد تجاوزت حدودي عندما طلبته...؟

ظلّت بريجيت صامتة عند سماعها ذلك الردّ غير المتوقع من فرانك... لكن علامات المفاجأة كانت بادية على وجهها الذي ينبئ بأنها لم تفرح للخبر.. فقد تغيّر لون وجهها ولم تعرف كيف تجيب... فإستمرّ الصمت بينهما لدقائق... لكنها لم تستطع الصبر على الصمت طويلاً.. فعادت لتسأله عمّا سيخبرهم إذا ما عرف كيف سيتصل بهم... وهل سيقول لهم أنه قد غيّر دينه.. وتزوج إمرأة من دين آخر.. وأن له منها إبنة تدين بدين أمها... ولم تتلق من فرانك أجوبة على هذه الأسئلة.. لأنه نفسه لا يعرف ماذا سيقول لهم عندما يعرف كيف يتصل بهم... ثم تابعت لتسأله سؤالاً آخر لم يكن يخطر على باله.. وذلك عندما قالت له:

- ألا تعتقد أنهم سيطلبون منك أن ترسل لهم مساعدة...؟

هل تعتقد أننا بإمكاننا أن نلبي ذلك...؟

لم يجبها فرانك على ما سألته... وصحيح أنه لم يخطر بباله هذا الأمر الأخير... من إحتمال أن والديه يمكن أن يكونا محتاجين لمساعدة ماديّة الآن... وبالتأكيد أنهما سيكونان هكذا لأنه عندما تركهما كانا يعيشان الفاقة... فكيف يمكن أن تكون حياتهما الآن بعد هذه السنوات العجاف التي مرّت بالبلد كله...!
لكنه في الوقت نفسه لم يعجبه ما تقدمت به بريجيت على أي أمر إنساني آخر... وهو تفكيرها بأنهما يمكن أن يطلبا من إبنهما مساعدة قبل أن يتم ويتحقق أي إتصال بهما... كيف تفكر هذا المرأة....؟
كيف يمكنها أن تفكر بهذه الطريقة الأنانية.. الوحشية.. التي تتفجر عن تفكير ملؤه اللؤم والبخل والضغينة الدفينة..؟
إنها لا تعرف والديه ولم يسبق لها أن رأتهما.. وهي لحد الآن... لا تستطيع أن تعتبر أن زوجها هو جزء منهما... كيف يمكنها أن تسبق الأحداث بهذا التوقع الخالي من كل إحساس إنساني..؟

في المساء بعد أن إنتهى فرانك من تناول الوجبة المسائية مع بريجيت وكارول... قرّر الخروج حتى من دون أن يأتيه طلب للسيارة، مدعيّاً بأنه سيذهب للوقوف في موقف سيارات الأجرة عند واحد من مراكز التسوق، لكنه في الحقيقة كان ينوي أن ينفرد بنفسه ويجلس لوحده، لأنه كان يعلم بأن الموضوع لم يبلغ نهايته بالنسبة لبريجيت.. وأنها ستظل راغبة فى معرفة ماهو أكثر مما قاله لها... رغم أنه لم يكن هنالك أكثر مما قاله، ذلك لأنه لم يعرف لحد الآن إذا ما كان سينجح بالإتصال بأهله أم لا...؟
وكان قصد فرانك أن يذهب لإحدى الحدائق العامة ليجلس لوحده.. رغم برودة الجو.. والرطوبة التي تصاحب الجلوس في الحديقة في الشتاء... وكانت هذه الحديقة تطلّ على البحيرة الكبيرة التي كانت أمواجها هادئة وكأنها ميّتة لا حركة فيها... جلس على إحدى المقاعد

الخشبية.. ولم يكن هنالك من جالسين معه.. غير أنه كان هنالك البعض ممن يقومون بالركض أو المشي من ممارسي الرياضة الشخصية... وآخرين من الشباب يلبسون الأحذية ذوات العجلات... وكلها بقصد الرياضة... فخطرت في باله خاطرة بعيدة جداً عما هو فيه من حالة وتفكير... ذلك أنه تسائل مع نفسه عن سبب إهتمام الناس بالرياضة لهذا الحد..؟

هل هو لأنهم يريدون أن يعيشوا حياة صحية أفضل... أم لأنهم يريدون أن يعيشوا عمراً أطول.. وهل هناك فرق بين الإثنين...؟

وهل أن الرياضيين هم من يعيشون حياة صحية أفضل.. أم أنهم يعيشون عمراً أطول..؟

إنه لا يعرف معلومات موثوقة عن هذا الأمر... لكنه من الأكيد أن الأمرين ليسا متلازمين... وليست الرياضة بالضرورة ضمان لحياة صحية أفضل... ولا لعمر أطول...!

ولكن هكذا تسير الأمور في هذا العالم... كثير منها مبني على خدعة أو خدع متعدّدة وكثيرة.... كثيرة جداً...!

أمّا هذه البحيرة... فإنه أيضاً لا يعرف لماذا يحب الناس السكن في مواجهتها... وهي بهذا الشكل الكئيب... وأي جمال فيها....؟

إنها تبدو وكأنها خزّان من الماء صامت بلا حس.. تنبعث منه في معظم الأحيان رائحة كريهة تشبه رائحة السمك...،،

إنها مملكة السمك التي يريد الإنسان أن يقتحمها ويغزوها.. دوماً....!

فأيّ جمال في هذه المملكة البائسة التي تدفن ما بداخلها من أحياء...،

وتلفظ كل من لا يستطيع أن يعيش كالأسماك...!

أي مقياس هذا الذي يعتمده البشر في ما يحبونه وما لا يحبونه..؟

غريب أمر هذا الإنسان... إنه لا يعرف ماذا يحب ولا كيف يحب...،

وربما يعرف كلّ ما عدا ذلك...!

في هذه اللحظة يرنّ جرس هاتف فرانك... وإذا بها مكالمة من حميد.. فسارع بالإجابة...:

- هالو... نعم حميد.. هل لديك خبر...؟
- نعم.. لديّ من سيستطيع مساعدتك... أنا أعلم أنه سيستطيع ذلك... لكنه يريد اللقاء بك لمعرفة معلومات أكثر.. معلومات من عندك أنت... أكثر مما أعطيتني... وهو سيكون موجود لدي هنا في الساعة السابعة مساء.. فحاول أن تأتي إلى هنا لكي تلتقي به... لكنني يجب أن أخبرك بأنه من الضروري إذا كنت تريده أن يبذل جهداً فعلاً لمساعدتك... أن يكون لك صبر على أسئلته وربّما ثقل دمه... ويجب أن لا تجزع ولا تفقد صبرك عندما تسمع أسئلته... من الضروري أن تطيل بالك وصبرك معه... أنا أعلم أنه ثقيل الدم.....،
لكن لا يوجد أفضل منه لهذه المهمة...،
- لا عليك... سأتحمله... ماذا يمكن أن يسألني...؟
ليسأل ما يشاء...،

وصل فرانك إلى المطعم قبل السابعة.. ولم يكن يتوقع أن يكون ذلك الشخص موجوداً قبله... وبعد أن سلّم على حميد.. أشار له حميد نحو ذلك الشخص قائلاً له:

- هذا هو "سعد" الذي كلمته عن موضوع حاجتك لمساعدته... ويبدو أنه يعرفك من إسمك... وربما أنت قد رأيته من قبل... أيضاً..،،

صافح فرانك سعد وجلسا على طاولة قريبة من طاولة الإستقبال، التي يجلس عليها حميد في مدخل المطعم.. وقال فرانك تعقيباً على ما قاله حميد:

- لا... أنا في الحقيقة لا أتذكر أننا قد إلتقينا سابقاً... وعلى كل حال أنا معارفي هنا قليلين جداً، لأن طبيعة عملي لا تسمح لي باللقاء مع الجالية كثيراً...،،

ثم جاء تعقيب سعد على كلام فرانك بقوله...:

- نعم ما تقوله صحيح... ولكنني أسمع عنك ولم ألتق بك من قبل... رغم أني أحضر معظم المناسبات التي تقوم الجالية بالإحتفال بها... وأعتقد أنني متفرغ أكثر منك.. فأنا مازلت أبحث عن عمل هنا...،،

أراد فرانك أن يتحدث أكثر مع سعد للمجاملة.. لكي لا يبدو أنه متحمس للقائه فقط لأنه سيؤدي له خدمة، أو هذا ما كان يرجوه، فسأله...:

- وأي نوع من العمل تحاول الحصول عليه..؟
- أنا أبحث عن عمل يكافئني بأجر جيد... ولا يستوجب مني الإستيقاض مبكراً... لأنني أحب السهر وحياة الليل.. وهذا يتعارض مع الإستيقاض المبكر... كما أنني أدخن كثيراً.. ولا أتحمل أكثر من عشرين دقيقة دون السيجارة... وهذه أيضاً لا تنفع مع معظم الوظائف.. لكن قل لي أنت كيف إهتديت للعمل سائق سيارة أجرة.... منذ أن جئت للبلد... وهل هو عمل جيد..؟
- أنا بعد أن حصلت على رخصة السياقة هنا... فكرت أن أستفيد منها.. وساعدتني هذه المهنة كثيراً في أن أكون قريباً من عائلتي وإلتزاماتي تجاهها...!
- وماذا عن الكنيسة....؟
- ..... ماذا عنها... وما علاقتها بعملي...؟ سواء كنت سائق أجرة أو أي عمل آخر...!

- لا... ولكنني كنت قد سمعت أنهم يدفعون راتباً للمساعدة... وهذا ما يقولونه هنا الكثير من أبناء الجالية... يقولون أن الكنيسة تدفع للناس المحتاجين.. وتساعدهم في مصاريف أبنائهم... أو ربما تبحث لهم عن عمل.. عمل جيد ومجزي...،
- .... أنا لا أستلم شيئاً من أحد... لا الكنيسة ولا حتى الحكومة... بل أنا أدفع ضريبة الدخل للحكومة، لأنني مسجل ظمن قائمة السوّاق لدى مكتب التأجير.. ويحاسبنا المكتب على نسبته... وكل شيئ نقدمه للمحاسب في ختام السنة.. ليس كل ما تسمعه صحيح.. والناس تذهب بهم أفكارهم وخيالهم بعيداً خصوصاً في مثل هذه الأمور...،

ولكن قل لي... كيف سيمكنك الإتصال بالمنطقة التي كنت أعيش فيها في الناصرية... لقد كانت منطقة نائية جداً... ولا أعرف كيف حالها الآن...؟

فقاطعه سعد بسؤال آخر... أغرب من جميع الأسئلة كلها...:

- هل تعني لو أنني ذهبت للكنيسة وقلت لهم أني أريد أن أصبح مسيحياً... لا يساعدونني في العثور على عمل.. أو مساعدتي مالياً ولو بمبلغ بسيط....؟!
- .... إن أسئلتك يا أخي سعد فعلاً محيّرة.. ولا أعرف كيف أجيبك عليها... ولا أعرف إن كنت أستطيع الإجابة عليها مطلقاً!

ثم نظر فرانك بإتجاه حميد الذي كان مشغولاً مع أحد الزبائن.. وتذكّر وصيته له بتحمل ثقل دم هذا الشخص.. سعد... الذي إستمر في أسئلته التي لا يعرف فرانك ماذا يرمي من خلالها... فعاد ليكمل جوابه له ممسكاً أعصابه..:

- عزيزي أخي سعد... إن مسألة إختياري أن أكون مسيحياً... مسألة لها الكثير من الجذور والأسباب.. ولا أعتقد أنني يمكنني أن أوضّحها لك هنا في لقائنا الأول هذا... لكن لا عليك فهي لا تحتوي أسراراً ولا شيئ مخفي فيها... غير شيئ واحد هو أنني جازفت بحياتي عندما قرّرت أن أغير ديني... وأنا شخصياً لا أعتقد أنك بحاجة لذلك.. لأنه لن ينفعك بشيئ.. خصوصاً المنفعة التي قد تتوقعها.....!

ثم إنتهى لقاء فرانك مع سعد... بعد أن كاد فرانك أن يفقد صبره.. لكنه ولحسن الحظ إستطاع السيطرة على إنفعاله.. وتمكن من أن يعطي له معلومات أكثر عن قريته والناس الذين يعرفون أهله... وغادر فرانك المطعم وكأن شيئاً ما يلومه على قيامه بهذه المحاولة.. لكن ماذا كان يمكنه أن يفعل وقد إنتظر سنيناً طويلة.. دون أن يعرف شيئاً عن أحوال والديه وأهله.. ولم يسمع عن أي منهم شيئاً منذ أن غادر العراق، وطنه المفقود...!

*****

حسين وزينب... والسؤال المفاجئ

بعد السؤال الذي فاجأت به زينب زوجها حسين.. عمّا إذا كان ينوي زيارة العراق... ساد السكون والصمت بينهما.. ولم يُجِب حسين بشيئ، بل أنه نفسه بدا عليه أنه قد فوجئ بأمرين مهمّين بالنسبة له...،
أوّلهما هو إدراكه أن ما يفكر به في داخله كان واضحاً من خلال ما تحدث به مع زينب... حديثه عن الحمام وعن إشتياقه له...،

وهذا يعني أنه لم يعد من السهل عليه أن يخفي أحاسيسه عندما يتكلم، حتى لو حاول ذلك... وهذه قد تكون واحدة من علامات الشيخوخة... ولن يكون من السهل عليه تقبّل هذا الوضع الجديد...،
وثانيهما أن زينب قد أصبحت تتوجس خوفاً مما يمكن أن يقرّره حسين...،
ومن هنا كان سؤالها له بهذه الصورة المفاجأة والطريقة المتخوّفة... وكان على حسين أن يكون هنا واضحاً فيما كان يرمي له من ذكرياته عن الحمام.. وبشكل خاص عما كان يحزّ في نفسه في هذا الموضوع... رغم أن السنين التي قضاها حسين في بلده الجديد.. لم يكن فيها يوماً قد فكّر بأن يعود لتربية الحمام... رغم إمكانيته على

القيام بذلك.. مما كان معناه أن الحمام لا يعني له كثيراً عندما يكون خارج وطنه الأول...،
وأن قيمة الحمام في نفسه طوال هذه السنين.. كانت تستند في أكثر جوانبها إلى حب الحمام لوطنه.... ومعها باقي الصفات التي يتميز بها هذا الطير الجميل الصفات....،

بماذا كان يمكن حسين أن يجيب زينب على سؤالها...؟
هل يقول لها أنه فعلاً يفكر في القيام بزيارة بغداد...؟

خصوصاً بعد أن ذهب علي بنفسه ولوحده.. لزيارة البلد الذي لم يكن يتذكر شيئاً عنه... وقضى أياماً معدودة هناك في بيت خاله... الذي إستضافه... ثم عاد علي من هناك أسرع مما كان قد تصوّر أنه سيستطيع البقاء...،
فقد عاد بمشاعر سلبيّة عن كل ما شاهده هناك.. ولم يستطع أن يرى شيئاً بعين ونظرة إيجابيّة...،
بل كان كل ما رآه عبارة عن حياة غريبة يعيشها الناس بطريقة مختلفة عن كل ما يمكنه تصوره...،

لقد شعر حسين ولأول مرّة... بأن الأوان قد آن لكي يتخذ هو نفسه موقفاً من وضع التمزق هذا الذي يعيشه...،
بين تصوراته وخياله عن الماضي... وواقعية الحاضر...،
وهو يؤمن بأن عليه أن يعيش الواقع... ولكنه لا يستطيع أن يعيشه مع خيالات الماضي وصوره الجميلة...،
تلك الصور الجميلة... رغم كل الخدوش التي تشوّه مساحات واسعة منها...،
نعم لابد له أن يفعل ذلك....،،

إنتهى حسين من تناوله الإفطار، وكانت زينب تجلس قبالته...،
تتناول هي أيضاً إفطارها ببطئ... وتنظر إليه بين لحظة وأخرى... نظرة قلق...،
ولكنه كان يرى نظراتها جيداً.. ويعرف أنها قلقة عليه...،
وظلّ يشرب الشاي في القدح الكبير...،
ونظر إلى زينب.. وإبتسم إبتسامة مجاملة... وسألها:

- هل تودّين مرافقتي إلى هناك...؟
سوف تسعدني رفقتك...،
وربما يكون في زيارتنا وضع الكثير من النقاط على الحروف...،
والإنتقال إلى التعامل مع الواقع... ونسيان الماضي وكأنه لم يكن يوماً...،
- .... وهل تعتقد أنك ستستطيع ذلك...؟
وأرجوا أن لا تقارن نفسك مع علي...،
فهو ليس له من ذكريات في العراق...،
غير الخوف الذي كان يراه في عيوننا...
- أنا أعرف أن ذلك لن يكون سهلاً... لكنني يجب أن أحاول، وسأكون أكثر قوة لو أنك معي...،
وأنا لا أدفعك لكي ترغبي في ذلك كما تعلمين.. لأنني أعرف أنك لا ترغبين في السفر إلى هناك بكل الأحوال...،
لكنها فقط رحلة على خط محطات العمر....،،
- ..... لن أستطيع أن أوافقك على ذلك... كما أنني لن أستطيع أن أتركك تذهب إلى المجهول لوحدك...،
لنترك الأمر الآن...،
ربّما تُغيّر أنت رأيك... أو أقتنع أنا بالسفر معك...،
أو أنني أذهب معك على مضَضّ....،،

- يالها من خيارات صعبة... وأنا كنت أعتقد أن تربيتي لكم لم تُجدِ نفعاً... والآن أعرف أنني كنت مخطئاً...،
ويااليت تربيتي لكم لم تُجدِ معكم نفعاً... أعانكم الله عليها...،

سوف لن أغفر ذلك لنفسي....أبداً....،،

*****

فرانك والإنتظار

مرّت أيام ثقيلة وطويلة إنتظر فيها فرانك أن يأتيه خبر عن أهله... وقد كان ينتظر مكالمة ويتوقعها كلّما رنّ جرس تلفونه.. مكالمة من سعد أو من حميد... أيّ منهما.. لكن ذلك لم يحدث.. حاول أن يشغل نفسه بالعمل... لكنه لا يمتلك بيده سيطرة على العمل.. فهو يعمل حسب الطلبات التي ترده من مكتب التأجير...،

حاول أن يشغل نفسه بأي شيئ... لكنه لم يجد شيئاً يمكن أن يهتم به وينشغل... ثم فكّر أن يقوم بزيارات لبقالة حسين كلما سنحت له الفرصة...،
لكنه في الفترة الأخيرة.. كان قد لاحظ أن حسين لا يتواجد في البقالة كما كان يفعل من قبل... وأن إبنه علي هو من يقف فيها معظم اليوم... وعلم من علي أن حسين لا يقف فيها أكثر من ساعات بسيطة في اليوم... ولم يعرف سبب هذا التغيّر...،
أو أنه في الحقيقة لم يهتم كثيراً لمعرفة السبب...،
فقد كانت حالة حسين في آخر مرّة إلتقى به في بيته حالة غير ما إعتادها منه... فقد كان التعب وعدم الإرتياح يبدوان واضحين عليه...

وإعتبر أن حسين في الغالب يأخذ وقتاً ينزوي فيه بعيداً عن الإلتقاء بالناس الذين يأتون إلى البقالة...،

كما أن فرانك لم يشعر بأن ما ينتج عن لقائه بحسين يناسبه ويتعلم منه مثلما كان قبل سنوات...، خصوصاً خلال هذه الفترة التي يمرّ بها فرانك نفسه...، فقد أصبح ما يخرج به من لقائه معه، ليس غير خليط من مشاعر القلق والخوف من المستقبل...،
وهذا ما كان فرانك دائماً يحاول أن يتخلص منه... منذ أن ترك بلده الأول وفارق أهله...،
وقد نجح ربما جزئياً ولكن بدرجة وفرت الراحة النسبية له للسنين الماضية... منذ أن وصل لهذا البلد...،،
وهو الآن يشعر بالحزن والأسى لحالة صديقه حسين، الذي لايبدو في حالة نفسية جيدة...، وهو يعرف أو يتوقع أن عائلته... وعلى وجه الخصوص إبنه علي.. يعرف عن هذا الأمر... وبالتأكيد أكثر مما يعرف فرانك عنه...،،

أي لعنة هذه التي تلاحق أبناء هذا البلد...؟
أينما يذهب أبناؤه.. تلاحقهم لعنة... قد تتمثل في كثير من الأحيان بالبعض من أبناء البلد أنفسهم...!

ثم فكّر أخيراً بأن يتصل تلفونياً بسعد.. لمعرفة ماذا يمكن أن يكون قد حصل منذ أن إلتقاه أول مرّة قبل أيام في مطعم حميد... لكنه تردّد في ذلك، لخوفه من أن يفتح معه موضوع الكنيسة وتبديل الديانة مرّة أخرى...،
وكم تمنى لو أنه لم يفتح على نفسه هذا الباب...،
فقد شعر بأنه قد تغيّر نفسياً منذ أن بدأ سعيه لمعرفة أخبار أهله...،

ولا يعرف متى سيسمع خبراً عنهم..؟
ولا كيف سيكون حاله عندما يصبح له إتصال بهم فيما بعد...؟
وكيف سيكون موقف بريجيت من كل ذلك...؟

يا إلهي... كم من الأمور لم نفكر بها وهي تحيط بنا وتعيش معنا..؟
كيف لم يكن يخطر في باله ماذا يمكن أن يكون موقف بريجيت منه..؟
هل سيستطيع أن يتعامل معها بعد الآن كما كان يتعامل معها سابقاً..؟
هل هنالك ما يمكنها أن تبرّر به موقفها من والديه.. الذين لم ترهما من قبل... ولا تعرف إن كانا فعلاً سيطلبان شيئاً منه...؟

كم يمكن أن ينحدر الإنسان في إحاسيسه ومشاعره و مواقفه...؟

وأخيراً قرّر أن يذهب إلى حميد لكي يسأله عن أخبار سعد... وإذا ما كان قد رآه منذ ذلك اليوم...،
وبالفعل ذهب للمطعم وإلتقى بحميد... وسأله إن كان قد إلتقى بسعد.. وكان جواب حميد أنه لم يسمع منه، وكان يتصور أن فرانك على إتصال معه... فكان جواب فرانك أنه لم يرغب في أن يُكثر من الإلحاح على سعد...، وفضّل أن يتركه لحين سماعه خبراً...،
ولكن حميد تناول تلفونه وإتصل بسعد... وتحدث معه... ثم سأله إذا ما كان لديه خبر عن موضوع أهل فرانك...؟
فكان جواب سعد أنه قد وصل لطرف الخيط... وأنه قد علم أن شخصاً من المنطقة يعرف أخبار أهله لكنه لم يحصل على رقمه بعد...،
وإذا ما رغب فرانك.. فإنه بإمكانه أن يعطيه رقم الصديق الذي يعرفه سعد والذي يعرف هذا الشخص، ويمكنه أن يتابع الموضوع معه، إلى أن يحصل على رقم ذلك الشخص الذي يعرفهم....،،

شعر فرانك وكأن سعد قد يكون فقد إهتمامه بالأمر... لأنه لم يحصل على مبتغاه الذي كان يتصور أنه يمكنه الوصول له من خلال فرانك... حول إمكانية الإستفادة من الكنيسة...،
أو أن هذا ما قد تصوره من إجابة سعد... ومع ذلك فقد رحَّب بحصوله على رقم صديقه في العراق...، لكي يواصل متابعة الموضوع بنفسه...،،

عاد فرانك للبيت وهو في حالة نفسيّة أفضل... أملاً في أن يصل إلى شيئ من مسعاه هذا... ويعرف بعد طول هذه السنين ماذا حلّ بوالديه وأهله بصورة عامة..،
ولكنه يعلم أن مشكلته مع بريجيت ستبقى وتظلّ قائمة...، فهذه المسألة لن يمكن تسويتها بسهولة...،
وقد بدأ يفكر هو نفسه بالعديد من جوانبها وماذا ستأتي به...،،

كيف ستكون علاقته مع والديه بعد أن يتصل بهما...؟
هل يمكن أن تبقى بمستوى مكالمات هاتفية... مجانية... أم ماذا..؟
وهل يُعقل أن والديه مكتفيان ماديّاً... ولن يحتاجا أن يرسل لهما مساعدات في الأيام القادمة...؟

ومرّة أخرى... كيف سيكون موقف بريجيت من كل ذلك....؟

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً.. ولفرق الوقت بين العراق وبلده الجديد.. لم يرغب فرانك في إجراء إتصال بالرقم الذي حصل عليه.. وترك الأمر ليوم الغد... ولكي يأخذ قسطاً من النوم كان بأمس الحاجة له.. فقد كانت الليالي الماضية متعبة له كثيراً... عاش فيها فترات من الأرق والتفكير في عدّة إتجاهات... وكان يعرف أنه بحاجة

لرؤيا ونصائح حسين... لكنه هذه المرّة قرّر أن يتولى أموره وإحتياجاته..... وحياته... بنفسه...،،

في صباح اليوم التالي وبعد أن أخذ كارول للمدرسة... ظلّ فرانك واقفاً بسيارته في موقف السيارات أمام المدرسة... ثم أخرج التلفون من جيبه... ونظر إليه.. ورأى فيه الأمل الكبير بأنه سيسمع أخبار أهله...
لا يهمّه الآن ماذا ستكون النتائج اللاحقة.. المهم أن يعرف كيف هي أحوالهم.. وسيساعدهم بكل ما يستطيع أن يقدمه من مساعدة...،
ولن توقفه بريجيت... نعم لن تستطيع أن توقفه هذا المرّة...،
إنهما والداه اللذان كانا يقومان على تربيته.. ويشفقان عليه من كلّ ما كان يؤذيه... مما يعرفونه...،

نعم إنهما لم يستطيعا أن يغيّرا شيئاً من قساوة المعلمين في المدرسة... ولا من قساوة الطبيعة.. البرد.. والحرّ... والمطر والطين... والجوع...

نعم الجوع الذي عانى منه وهو صغير ضعيف العود.. عندما كانت تمرّ ساعات طويلة عليه وهو يشعر بمغص في معدته من الجوع... ذلك الجوع الذي لم يعرف لماذا كان يصرّ على أن يؤلمه...، ويمزق معدته....،
هل هي عقوبة أخرى... وبأيّ ذنب...؟

ثم ضرب الرقم الذي حصل عليه من سعد... وظلّ ينتظر...،
كان التلفون يرنّ في الطرف الآخر ولكن لم يردّ عليه أحد...
هذه أول مرّة يكلم فيها رقماً خارج بلده الجديد... منذ أن بدأ يستعمل التلفون المتنقل... وكان قد سمع مراراً بأن خطوط الإتصال بالعراق،

غير سليمة وتعاني من مشكلات تقنية كثيرة... فقرّر أن ينتظر فترة قصيرة ثم يعاود الإتصال... وبالفعل عاد ليتصل بعد عشر دقائق وبعد أن أطفأ سيجارته الثانية وهو يجلس في السيارة... فأجابه شخص من الطرف الآخر...:

- نعم... ألو... تفضل...
- مرحباً... أنا إسمي فلاح... وقد حصلت على رقمك من الأخ سعد.....،

ثم إستمر بسرد ما يريد قوله لهذا الشخص للتعريف بنفسه.. ومن أين هو وماذا يحتاج منه لمساعدته في الإتصال بأهله... وكان الرجل في الطرف الآخر يستمع له من دون أن يُعَقب على كلامه.. إلى أن إنتهى فرانك من كلامه... فردّ عليه الرجل ردّاً ليس له علاقة واضحة بما يريده فرانك منه بقوله...:

- نعم يا أخي... نحن نعلم بصعوبات الإتصال بنا هنا.. ولكننا نعيش هنا من يوم ليوم آخر... لا نعرف إن كنا سنكون أحياء غداً أو نكون تحت التراب... وربّما أنت تسمع من الأخبار ومن الآخرين... أن الناس هنا قد أصابهم اليأس بأعلى درجاته.. فقد أصبحت الحياة والموت سواء لدينا.. والكثيرون منا يتمنون الموت على أن يعيشوا حياة مهينة لا طائل ورائها... وكلنا نقول أن من يموت يرتاح فعلاً من هذه الحياة....،،

ذُهِلَ فرانك من جواب الرجل الغريب له... ومع أنه يعرف الكثير عما يدور في بلده، من أمور وأحداث صعبة يواجهها الناس البسطاء والفقراء... إلّا أنه لم يكن يتوقع أن الرجل الذي تكلم معه ولأول مرّة بالتلفون.. يبادر بالحديث عن مثل هذه الأمور والصعوبات...!

هل أصبح الناس كلهم غير قادرين على التمييز بين ما يصحّ قوله مما لا يصحّ في أوقات معينة...؟
أم أن الرجل كان يرمي من كلامه لشيئ معين لم يستطع الإنتباه له..؟
وعلى كل حال فقد أشار عليه الرجل أخيراً بأن يتصل بشخص إسمه "عبدالكريم"... ويعتقد أن هذا الرجل يعرفه ويعرف أهله.. وهو من منطقتهم وأعطاه رقم تلفونه... وتمنى له أن يستطيع الحديث مع عبدالكريم بأقرب وقت... وأخبره بأن الرجل لديه مشكلة مع السمع..، وسيحتاج من فرانك أن يتكلم بصوت مرتفع لكي يسمعه جيداً...،،

وإنتهت مكالمة فرانك مع هذا الرجل.. لكنه بقي لا يعرف ما الذي جعل هذا الرجل يتحدث عن موضوع... لا علاقة له بالمساعدة التي يطلبها فرانك منه... إنه موضوع ليس من المهم الحديث عنه في مثل هذا الوقت... بينما فرانك كان يسأل عن طريقة للإتصال بأهله...!

ثم تحوَّل بتفكيره بعد ذلك ليحاول معرفة من هو هذا الرجل... عبدالكريم... الذي قيل له أنه يعرفه... إذ أنه من الأفضل له أن يحاول معرفته... لكي يعرف كيف يتكلم معه وعلى قدر معرفته به... حتى لا يتسبب ذلك بإشكال هو في غنى عنه...،،

إستمرَّ فرانك في تفكيره لفترة تجاوزت النصف ساعة.. لا يجرؤ على أن يتصل برقم تلفون عبدالكريم... قبل أن يعرف من يمكن أن يكون...؟
مرّت أمامه الكثير من الوجوه والأسماء التي يتذكرها من أبناء قريته... لكنه لم يتذكر أحداً بهذا الإسم...،،
ترى من يمكن أن يكون هذا الشخص.. عبدالكريم...،
الذي عرفه بمجرد معرفة إسمه... فلاح إبن عبدالزهرة...،

عبدالزهرة الذي كان يعمل في صيد السمك وبيعه في سوق القرية...،،

ثم خطر في باله فجأة... ذلك الشخص الذي كانت القرية كلها تعرفه...، إنه "كرّومي" أو "كريم" الذي كان شاباً وهو يؤدي خدمته الإلزامية جندياً في الجيش... أثناء الحرب بين العراق وإيران....، وكان حسب ما قد سمع عنه فرانك فيما بعد، أنه كان جندياً شجاعاً في المدفعية... وأنه فقد معظم سمعه أثناء الحرب، نتيجة أصوات المدافع والصواريخ التي كانوا يطلقونها على إيران... وتلك التي كانت تطلقها عليهم إيران... إلى أن تعرَّض لقذيفة مدفعية إيرانية فقد ساقه نتيجتها... فأصبح معوقاً... وتم تسريحه من الجيش بعد فقدانه لساقه...،
وكانت تلك في بدايات الثمانينات من القرن الماضي...،
عندما كان فرانك مايزال طفلاً صغيراً... لكنه سمع بالقصة فيما بعد عندما كبُر...،
فقد كانت القصص من مثل هذه وغيرها، هي معظم ما يتحدث عنه الناس... وكانت تشكل همومهم اليومية التي لا يعرف أيّ منهم متى يمكن أن تنتهي...؟
كما أنها كانت أيضاً تمثل ما يمكنهم أن يشغلوا أنفسهم به، وربما أنهم يستمتعون بتذكرها وإعادة الحديث عنها...!

نعم لابد أنه كرّومي.. أو كريم... وهو بالتأكيد يعرف فلاح ويعرف أباه عبدالزهرة أيضاً... بل يعرف عائلته كلها... وعن قرب..،،
نعم... وليس هناك ما يستوجب التأخر في الإتصال به...،،
لكنه سينتظر قليلاً... فالأفضل أن يراجع ما خطر في باله عن الرجل.. كرّومي والذي يجب أن يناديه الآن "عمّي كريم...أو عبدالكريم" لتأكيد الإحترام والتقدير له... فهو يكبره بما لا يقل عن 25 سنة... أي أنه بعمر يقارب عمر حسين... لكنه ليست له علاقة به كما هو مع حسين..

وعلى أي حال.. ليس هنالك ما يستدعي التأخر في الإتصال به.. ثم فتح فرانك تلفونه وضرب الرقم الذي كتبه وإنتظر قليلاً.. وجاءه الجواب:

- ألو.. ألو...مَن.. من حضرتك.. هل تتصل من خارج العراق..؟
- ألو... عمّي كريم... هل أنت عمّي عبدالكريم...؟
- ألو... أنا لا أسمع... إرفع صوتك... لا أسمعك...
- ألو.. عمّي كريم.. أنا فلاح إبن عبدالزهرة... هل عرفتني..؟
- من أنت...؟ .... فلاح... فلاح إبن مَن..؟
- أنا فلاح إبن عبدالزهرة.. عبدالزهرة السمّاك.. الذي تعرفه...،،
- ..... نعم.. نعم... أين أنت... هل رجعت للعراق...؟
- لا.... عمّي كريم.. أنا لم أرجع...

لكنني حصلت على رقم تلفونك من أصدقاء.. وإتصلت بك لكي أسأل عن أهلي... أمّي وأبي... كيف هي أحوالهم...؟

- من أين حصلت على رقمي...؟ أنا لا أسمعك جيداً...،،
- عمّي كريم... أنا أسألك عن أمّي وأبي.. كيف هي أحوالهم..؟
- .....،،
- عمّي كريم... هل تسمعني... كيف حال أمّي وأبي...؟
- .... أمّك وأبوك... أطلب لهم الرحمة يا إبني... لقد ذهبوا لدار حقهم.. لقد إستشهدوا...، ألم تسمع بذلك...؟
- .... يا ربّي... ماذا تقول... عمّي كريم... أيّ إستشهاد.. هل عرفتني حقيقة من أنا... أنا إبن عبدالزهرة الذي لم يعرف كيف يمسك السلاح في حياته...

أيّ حرب تتحدث عنها وأيّ إستشهاد..

وأمّي ماذا حلّ بها.. هل عرفت من هي أمّي.. أمّي لم تكن تستطيع المشي لخطوات لوحدها...،

ماذا تعني بأنها إستشهدت..؟

أين... وكيف...؟
ما هذا الذي تقوله..؟

وإستمر فرانك في الحديث من جانب واحد.. لكي يوضّح أكثر لكريم من هو... حتى لا يختلط الأمر على الرجل...،
ولكن يبدو أن كريم قد عرفه فعلاً.. وأنه يعرف ماذا يقول عن والديّ فلاح... فعاد كريم ليؤكد له ما قاله...:

- نعم... إبني أعرفك.. وأعرف أباك وأمّك.. وأنا تفاجأت عندما سألتني عنهم لأنني كنت أتوقع أنك تعرف... لقد أستشهدا قبل أربع سنوات.. وهما يسيران من القرية يقصدون كربلاء لزيارة الإمام وطلب (المُراد)... وتعرّضوا لقنبلة على الطريق إنفجرت بهم وإستشهد معهم عشرات آخرين غيرهم...،،
كلهم في الجنة إن شاء الله..!
لقد أستشهدوا... فداء للإمام....!!
- ومن هذا الغبيّ الذي أوحى لهما بالسير لزيارة الإمام...؟
وماذا يفعل الإمام بزيارة أناس فقراء عجزة... يسيرون على أقدامهم مئات الكيلومترات... لكي يفتدونه ويُقتلون...؟
إن أمّي لم تكن تقدر على السير لأمتار... كيف كان ذلك...؟
وماذا يحتاج الإمام من أمّي لكي تفتديه...؟
والإمام مقتول من قبل أكثر من ألف سنة...،
من قال أنه يحتاج من أمّي وأبي أن يزوروه...؟
- نعم إبني.. أمّك لا تستطيع السير.. لكنهم كانوا يدفعونها على عربة.. فهنا الكثير من الشباب يتطوعون لدفع العاجزين بالعربات..،،

لم يعرف فرانك بماذا يجيب كريم بعد سماعه هذا الخبر...،

كانت الكثير من الإنفعالات تتدافع وتتصادم داخل صدره...،،
من هم المسؤولون عن مقتل والديه العاجزين...؟
هل هم أولئك الذين يريدون إرهاب الناس.. من أتباع الأفكار الإرهابية الفاشيّة.. الذين لا يتحملون من لا يؤمن بما يؤمنون هم به...،،
أم أنهم الذين يستخدمون هؤلاء المساكين العجزة السذج لكي يسلّطوا الأضواء عليهم... ولكي يُظهروا أنفسهم بأنهم يُشكّلون نسبة عالية بين أبناء هذا الوسط الفقير... المستَغَلّ دوماً من قبل كل دعاة العقائد...،،
كلٌّ يسلب منه مفصلاً وقطعة.. حتى لم يتبقَ منه ما يمكن أن يمثل شيئاً يشار له بأنه شيئ ما...،،
أم أنها الحكومة الفاسدة التي نهبت موارد البلاد... وتبقى مصرّة على إحلال الفساد بكلّ أشكاله في البلد.. هذا البلد الذي يعيش حالة من إنعدام القانون... وإنعدام الأخلاق...!

لقد أصبحت هذه الطبقة الفقيرة تفتقر لأقل علامة يمكن أن تصفها...،
حتى صفة الفقر... لم تعد تكفي لوصفها أو تنطبق عليها...،،
وأصبح ضرورياً البحث عن علامات أو صفات أخرى... تناسبها...،،
ربما تناسبها علامة أو صفة.... العبودية العقائدية الأزلية....!

أنهى فرانك مكالمته مع عبدالكريم وقلبه يتقطع ألماً... وإعتبر أن لحظة نهاية المكالمة.. وكأنما هي إسدال الستار متأخراً... على الفصل الأول من حياته... ذلك الفصل الطويل الذي تَكَوَّن من عدة مشاهد... ربّما كان المشهد الأخير هو الأشدّ تأثيراً على ما سيأتي في حياته...،
لقد أحسّ فرانك إحساساً غريباً بعد أن سمع بخبر مقتل والديه... كلاهما معاً في حادثة تفجير واحدة...
فقد مرّ الخبر على مسامعه وكأنه كان متوقِعاً ذلك... ليس بالطريقة البشعة التي قتلا بها.. إذ أنه كان يتصور أنهما يمكن أن يموتا من

مرض.. أومن عدم توفر الدواء والرعاية الصحية الضرورية لهما...
لكن أن يُقتلا بعملية تفجير إرهابي.. هو ما لم يكن على باله...
ولم يستطع أن يتصور بشاعة ذلك...،،
إن هذا يضيف لأسباب موت الفقراء... سبباً جديداً....!
ماذا جنى أبي وأمّي... وأمثالهما من الحياة التي عاشوها....؟

بعد سماعه بخبر مقتل والديه.. لم يعرف فرانك أين يمكنه أن يذهب لكي ينزوي مع نفسه... لساعة من الهدوء لوحده...
لم يكن هنالك غير الحديقة العامة التي كان دائماً يلجأ لها.. كلما ضاقت عليه الأمور..،
وصل إلى هناك وجلس كعادته على إحدى المسطبات الخشبية... في مواجهة البحيرة...،
ودارت في فكره صوّر أمّه وأبيه جعلته يهتزّ.... ويشعر برغبة قوية في البكاء...،،
وكان بكاؤه أشدّ ممّا أمكنه أن يتصور أنه سيبكي يوماً هكذا...،،
فقد كان منذ سنوات يتصوّر أنه قد ودّع زمن البكاء...،
عندما كان كل شيئ حوله يبكي...،،
كل الناس تبكي...،،
كل الأحداث تستدعي وتستوجب البكاء....،،

إن من عرفهم في عالمه.. كانوا كلّهم أناس....

كأنهم إنما خُلقوا للبكاء..،،

*****

حسين... يتهيأ.... للسفر

كان هنالك الكثير من الشدّ والإنفعال في الأيام التي تلت الحديث والجدل الذي دار بين حسين وزينب.. حول ضرورة وأهمية زيارته لبغداد.. وإصراره على أن يقوم بهذه الزيارة... فقد قضى حسين تلك الأيام في إنشغال دائم بترتيب ما سيحتاجه لتلك الزيارة الأولى لبلده... العراق... الذي لم يغادره غير مرّة واحدة... والتي كانت عندما غادرها للهجرة النهائية... مغادرة طويلة الأمد... تجاوز مداها ربع قرن من الزمن... وبالرغم من علمه أن البلد لم يعد كما كان يعهده قبل ربع قرن... إلّا أنه كان يُصرّ على أنه لن يكون مختلفاً كثيراً عمّا كان عليه...،،

فكيف يمكن للشوارع أن تتغير...؟
وكيف يمكنها أن تفقد عبقها وعطرها...؟
وهل يُعقَل أن المقاهي التي تجاوز عمرها ربّما قرناً من الزمن... أن تختلف عما كانت عليه...؟
وهل سيكون في المقاهي... غير تلك الأرائك الخشبية التي ينبسط عليها بساط من الصوف الخشن الرخيص...؟

أم أنهم سيستخدمون الأباريق المعدنية حديثة الصنع...؟
مثل تلك التي تستخدمها زينب في البيت....!
وليكن ذلك.. وليتغير كل شيئ.....،
تتغير الشوارع والمقاهي.. من الممكن ذلك...،، لكن...
هل يمكن أن يتغير شارع المتنبي... شارع المكتبات وسوق السراي...؟
هل يمكن ذلك...؟
وإن أمكن ذلك... فهل يمكن أن يتغير سوق الغزل... بمنارته التي تجاوز عمرها إثني عشر قرناً....؟ وهواة الحمام والعصافير يأتون كل يوم جمعة... ليلتقوا مع معارفهم... يبيعون ويشترون الحمام....،،

كل تلك التساؤلات كان حسين يحاول قمعها ومنعها من أن تؤثر في قراره... وكان يحاول أن يقنع نفسه بالإجابة عليها بما يعزّز رغبته في السفر إلى... بغداد... مدينته الخالدة....،،

بغداد... التي ذبحها من لا يمتّون بصلة لها....،
ومن لم يعيشوا يوماً واحداً فيها قبل أن يحكموها...،،

الذين لم يعرفوا أنها "زهرة الصحراء" ولم يستمعوا يوماً... كيف كان يشدو عبدالغني السيد:

"يازهرة الصحـراء ردّي بهجـة الدنيـا وزيـدي..."

لكنه في داخل نفسه، كان حسين يعرف أن حلمه لم يكن أكثر من حلم...
ولم يعد بالإمكان تحقيقه... إنه يعرف حقيقة الأمر...،،
لا... بل إنه يدرك تماماً أن الإنسان هناك نفسه قد تغيّر...،
فقد أصبح إنساناً آخر.. إنساناً لا يمتلك جذوراً....
أصبح إنساناً غير متصالح مع الآخرين.. جميع الآخرين....،

لا، بل إنه غير متصالح حتى مع نفسه.....!
إن حسين يدرك ذلك جيداً...،
لكنه الآن يعيش حالة من التمزّق النفسي بين ما يعرفه كحقيقة...
وما يتمناه أن يكون في بلده...
والنتيجة كانت أنه يدفع من نفسه وصحته ثمناً كبيراً لتلك المعاناة...
إنه ثمن لا يستطيع حسين نفسه معرفة مدى قدرته على الإيفاء به....!

كان حسين قد إحتفظ بجيبه بتلك الورقة التي رسم عليها خطوطاً لصورة حمامة... فقد أراد أن يبقيها معه عندما يذهب إلى بغداد... لكي يرى كم ستتطابق الخطوط التي خطّها في بلده الجديد مع ما سيخطه في بلده الأول... سوف يرسم خطوطاً أخرى لحمامة وهو في أحضان بغداد...،،

تُرى هل ستَسعد بغداد عند رؤيته....؟
وقبل ذلك... هل سيَسعد هو عند رؤيته لها....؟
إنه يحاول أن تمرَّ الأيام سريعاً لكي يبدأ رحلته إلى بغداد...،،
وهو لا يعرف لحد الساعة كم سيحتاج للبقاء هناك...؟
هل سيكفيه شهر أم شهران... أم ربما سيحتاج أكثر من ذلك...؟
لكن... من الأفضل أن يترك هذا الأمر الآن...
حتى يحين وقته وما سيراه في بغداد... التي لم ينساها...،
لم ينس عبقها وعطرها...،،
رغم ما قد مرّت به من سنوات كانت كلّها خوف ورعب...،
خوف من الواقع الذي يعيشه... ورعب وكوابيس من الخيال...،،

قرّر حسين هذا اليوم أن يذهب للنوم مبكّراً...
لكي يشطب على يوم آخر.. ويقترب أكثر من لقائه بحبيبته بغداد....

دخل غرفة نومه.. وهو لايشعر حقيقة بالحاجة للنوم...،
ظلّ جالساً على سريره.. قلق ومضطرب كعادته...،
وجائته فكرة أن يكتب شيئاً ليراجعه أثناء سفره...،،
ولكي يعرف هل ستتغير فعلاً نظرته للأمور ولما يشغل باله...؟
بعد أن يصل إلى بغداد.....،،
لكنه لم يعرف بماذا يبدأ...؟
وأي موضوع يمكن أن يكتبه وتكون له قيمة خلال سفره...؟
أو هناك عند وصوله... وإلى مَن يجب أن يوجه كلامه...؟
ظلّ متردداً لدقائق... إلى أن سحبت يده القلم من جيب قميصه...،
وبدأ يسطر على ورقة من كرّاس كان يضعه على طاولة الأدراج...،
وكانت بدايته....:

إلى رفيقة دربي الطويل زينب....،
إلى بناتي العزيزات ليلى وسعاد...،
إلى إبني علي... الذي أرجوا أن يعرف قيمة هذا البلد الذي أوصلته له المعاناة... ومتطلبات الحياة التي لا تعرف الرحمة.. ولا العدالة...،
وإلى صديقي وأخي الصغير... فلاح.. الذي إخترق جدران الخوف..،
والذي لطالما تمنيّت أن تكون لدي شجاعته....،،

إنّ الحياة التي تعيشونها... لا عدالة فيها..
ولم تكن فيها من قبل... ولن تكون في المستقبل...
وكلّ من يعتقد خلاف ذلك.. واهم...
ولكن الذي تستطيعون قوله هو ما يقوله معظم الناس...
الضعفاء والأقوياء... على حدّ سواء...:
"ليس في الإمكان أفضل مما كان..."

لكنني لن أقول ذلك معكم... بل لن أستطيع قول ذلك...،
فإسمحوا لي أن أحتفظ بما عندي لنفسي...،
فقد علمت أنني قد حمَّلتكم ما لا طاقة لكم به... فإعذروني...،
سيظلّ العالم يتصوّر تصوّرات ليس لها من الحقيقة نصيب...،
وسيظلّ يسير في طريق صعب ولا يعرف الصواب...،
وسيظلّ الإنسان يأكل أخيه الإنسان...!
وشعاره.... لماذا لا يأكل أخيه الإنسان...؟
أليس هو الحيوان الأقوى الذي يحكم مملكة الحيوان هذه...؟
أليس هو الذي أباح لنفسه كلّ شيئ...؟
وجعل من نفسه ملكاً على ما لا يملكه...،،
ألَمْ يصبح ديناصوراً جديداً لهذا العصر....؟
الديناصور الذي لا يطاله الإنقراض....؟
أليس هو من يريد للكون من حوله أن لا يتغير إلا حسب ما يعجبه...؟
أليس هو من لا يريد للطبيعة أن تتغير أو أن تغضب...؟
أليس هو من لا يريد أن تنقرض وتختفي الحشرات....؟
الذباب والبعوض وكل المخلوقات المؤذية.... المقرفة....،
أليس هو هذا ما يسعى له...؟
أن يحافظ اليوم على الحشرات من الإنقراض...،
ولا يعنيه أمرُ أقوام أبيدت... وإنقرضت... وأقوام سُلبت حقوقها....،،

لكن الزنابق ستظلّ تزهر فوق المستنقعات.....،،

ولن يوقفها الإنسان....،،
نعم... إنه هو هذا الإنسان المنافق الذي ينحني للقوة...،،
متمثلاً بالشجرة التي تنحني للريح...،
ويحسبها إنما تنحني لأنها.... لأنها تتعامل مع الريح بحكمة...،

وهو يدرك تماماً أن الريح يمكنها أن تكسر الشجرة وماهو أكبر منها..،
عندما تعصف بغضب.... غضب ربما لم يره الكثيرون...،
إنه غضب الطغاة....،،
غضب الطغاة... الغضب الذي أريدَ للبعض من البشر أن يعايشوه...،
وأريد لآخرين أن يمثلوا دور الطغاة فيه...،
ثم أريدَ لآخرين أن يشهدوه ويوثّقوه... متى ما أعجبتهم فكرة التوثيق...،

ظلّ حسين يكتب بوعيّ مرّة... وبدون وعيّ مرة أخرى...،
ولم يكن يشعر بمعنى واضح للكثير مما يكتبه...،
لقد كانت الأفكار وما يريد توثيقه في هذه الورقة الصغيرة...،
تتضارب في رأسه... حتى شعر بالتعب... والنعاس...،
ودارت جدران الغرفة به...، ثم إنسلّ القلم من بين يديه...،
وتمدّد على سريره منهكاً...،،

وذهب في نوم عميق.... عميق جداً....،،

*****

فرانك... ويوم الأحد

في صباح يوم الأحد... وكالمعتاد تهيأت بريجيت للذهاب للكنيسة.. وجهّزت إبنتها كارول كذلك... مثل كل مرّة في أيام الأحد... فهي تحرص كثيراً أن لا تعمل صباح يوم الأحد في مناوبة في المستشفى.. وتحاول دوماً أن تختار أي وقت آخر بالترتيب مع زميلاتها...،،

واليوم لاحظت بريجيت أن فرانك قد تهيأ أيضاً.. حسب ما يبدو عليه.. للذهاب معهم إلى الكنيسة... وكان سؤال بريجيت له للتأكد فيما إذا كان سيرافقهم اليوم أم أن لديه مشروع آخر... فكان جوابه أنه سيأخذهم بسيارته للكنيسة وسيبقى معهم... هذا اليوم هناك...،،

عند وصولهم للكنيسة، إختار فرانك أن يذهب للصفوف الأمامية هذه المرّة.. خلافاً لما إعتاده حيث كان يفضل الجلوس في أحد الصفوف المتأخرة.. بينما إنشغلت بريجيت بالسلام على البعض من معارفها الذين كانوا يأتون لتحيتها... وعندما إنتهت من الحديث معهم توجهت وبصحبتها كارول لتجلس في أحد الصفوف الخلفية... ولكنها لم تجد

فرانك حتى أشارت لها كارول بقولها إن أبي يجلس في الصفوف الأمامية... فإستغربت من ذلك بريجيت ولم تعرف السبب... ،،

لماذا فرانك متحمس هذا اليوم للجلوس في الصفوف الأمامية...؟

لم ترتح بريجيت لهذا التغير.. لأنها تعرف أنه في العادة، لا يريد أن يكون موضع نظر الكثيرين من رواد الكنيسة... فلماذا اليوم تغير رأيه وإختياره... لابد أن في الأمر شيئ..!

كانت المقاعد المجاورة لمقعد فرانك خالية... ولذا فقد تقدمت بريجيت ومعها كارول لكي تجلسا بجانبه... وظلّت بريجيت لا تعرف مالذي دفع فرانك هذه المرّة ليجلس في المقاعد الأمامية...؟

وعندما بدأ القدّاس... لم يكن يبدو على فرانك أنه يتفاعل مع ما يجري من حوله... فلم يكن يردّد مع المصلّين.. وكان واضحاً عليه أنه يفكر في أمر آخر.... بعيد جداً عما يدور حوله...،

وبعد أن إنتهى القدّاس وقبل أن يبدأ الناس بمغادرة قاعة الصلاة... نهض فرانك من مقعده.. وتكلم بصوت مرتفع ومسموع من قبل كل الحاضرين.. وطلب منهم أن يتريثوا وينتظروا قليلاً قبل أن يخرجوا.. ثم طلب من القسيس أن يسمح له بتوجيه كلمة للحاضرين... ثم إستدار نحو الصفوف الخلفية حيث وقف الحاضرون بعد أن كانوا في طريقهم للخروج.. وكانوا ينظرون إليه وينتظرون ماذا لديه ليقوله لهم... ويبدو أن أغلبهم كانوا يتصوّرون أنه بحاجة لمساعدتهم في أمر ما... لكنه عاد ليطلب من القسيس أن يسمح له بأن يخرج من صف المقاعد لكي

يستطيع مواجهة الناس كلهم وهو يتحدث معهم... فأجابه القسيس إلى ذلك وأشار له بأن يتحدث لهم بحريته...

لقد كان القسيس في سلوكه هذا وكأنه يعرف ماذا يريد فرانك أن يقوله... فقد كان تصرفه في منتهى الحكمة وبعد النظر... وكأنه كان يعلم ما بنفس فرانك.. لكن معظم الحاضرين تصوروا ذلك وكأنه تأكيد بأن فرانك سيطلب مساعدة ما... وبدأ فرانك كلامه بقوله:

- أشكركم على سماحكم لي بالتحدث إليكم..
وربما لأول مرة مع الكثيرين منكم..
وأشكر الأب القسيس "سليمان" لسماحه لي بالتحدث إليكم في هذا اليوم...
كلكم تعرفون أنني جئت لهذا البلد.. ودخلت له وأنا على دين السيد المسيح.. بعد أن كنت أصلاً أدين بدين آخر في بلدي الأول العراق... وقد كان إيماني بتعاليم السيد المسيح والسماحة التي تميّز بها ما جعلني أتّبع ديانته... ولم يكن لشيئ آخر... وأنا أفتخر بأنني كانت لي الشجاعة في أن أختار ديانتي بنفسي ولم أرثها من آبائي.. لأن أبائي لو كانوا يعلمون بأنني قد غيّرت ديانتي كانوا سيهدرون دمي... وأنتم تعلمون ماذا يعني ذلك... فأنا عند الربّ قد ضحيّت من أجل أن أتّبع ديانة السيد المسيح وسماحته وتعاليمه... ولست هنا أطلب أن أحصل على ميزة ولا مكانة أفضل لإختياري ديانتي.. التي إقتنعت بها وغيّرت حياتي كلها وقاطعت أهلي من أجلها....،

لقد فارقت بلدي الذي ينحدر منه معظمكم... ولم أعد له منذ ما يزيد عن خمسة عشر عاماً... وتركت أهلي... أمّي وأبي ولم

أسمع خبراً عنهم منذ أن غادرت العراق... وعشت هنا بينكم وأنا أحاول أن يتقبّلني الجميع ممّن يحضرون إلى الكنيسة لأداء الصلاة للرب.. لأنكم أنتم من بقيّ لي في عالمي هذا.. أنتم... الذين كنت أرجوا منهم أن يحيطونني بما يشعرني بأنني لن أعيش غريباً في هذا العالم...
ولكن الأمور لم تسر كما كنت أتمنى... فقد إستمرّ البعض.. وربما الكثير منكم من يرفض حتى إعتباري تابعاً ومؤمناً بالسيد المسيح.. وكأنما هم أوصياء على تعاليم الرّب... وأنهم هم من يحدّدون من هو المؤمن بالرّب.. ومن هو المتطفل على مملكة الرّب...ولكنني لا أنسى أن الرّب قد أنعم علي بالقسيس سليمان الذي أحاطني برعايته.. لأنه كان يعرف منذ البداية مدى إيماني... ومدى معرفتي بتعاليم السيد المسيح... وسأبقى مديناً له مدى الحياة...،،
قبل يومين فقط... علمت بأن أمّي وأبي... قد قُتلا في حادثة من حوادث التفجير في العراق.....!

هنا شهقت بريجيت عندما سمعته يقول ذلك... لأنه لم يقل لها من قبل شيئاً عن هذا الحدث.. ومالت على جنبها لتحتضن إبنتها كارول.. التي لم تدرك في البداية ماذا يقول والدها.. ولم تعرف عن ماذا كان يتكلم... فلقد كانت تحلم دوماً بأن تلتقي بجَدّها وجَدَّتها.. كما هو حال معظم صديقاتها اللواتي يعشن قريباً من أجدادهم... بكت بريجيت عند سماعها ما قاله فرانك... ويبدو أنها قد شعرت بالخجل... الآن فقط.. لأنها تجادلت معه جدلاً عقيماً لم يكن له مبرّر.. عندما أخبرها أنه يحاول الإتصال بالعراق لمعرفة أخبار والديه... وكم من الأمور والتعقيدات التي أدخلتها في هذا الموضوع... الذي لم يكن يستحق كلّ تلك الضجة التي إفتعلتها...،

وبعد أن توقف فرانك عن الكلام لدقيقة... وبكى... كان بكاؤه مدعاة لبكاء الكثيرين من الحاضرين.. خصوصاً من كانوا يتعاملون معه معاملة جيدة وبطيبة نفس... أما القسيس سليمان نفسه.. فقد صلّى لوحده بأن رسم شارة الصليب على صدره عند سماعه ما قاله فرانك عن مقتل والديه... وظلّ حانياً رأسه.. وتابع فرانك كلامه:

- اليوم وصلت لمعرفة أن الربّ...
لا يحتاج أن يُعبَد أو يُطاع في أي مكان على الأرض...
قبل أن يُعبَد من القلب وفي القلب...
وأنا بعد تجربتي هذه.. والتي لا أعتقد أن كثيرين قد مرّوا بها..
أعتقد أنني قد عرفت الربّ حقّ المعرفة... ولم أعد بحاجة لمن يدلّني على طريقة لمعرفته ولعبادته....
إن الربّ موجود في كل مكان.. وهو موجود لكلّ الناس ...
ولا يختص بأحد.. لا بقوم.. ولا بلون...،،

ثم توجه نحو القسيس سليمان.. للسلام عليه.. وقبّل يده وشكره لإتاحته الفرصة له للتحدث عما كان في نفسه... وشكر الحاضرين وتوجه نحو باب القاعة للخروج... فأحاط به كثير من الحاضرين يسلّمون عليه ويقدّمون له التعازي بسماع خبر مقتل والديه...
وبقيت بريجيت تجلس في مكانها حانية رأسها.. وبجانبها كارول... فتقدم نحوها الأب القسيس سليمان... ليقول لها...:

- لا عليك... إن زوجك صاحب قلب كبير.. وهو مؤمن... ولن يكون من الصعب عليه أن ينظر للمستقبل وينسى الماضي...
إن طيبته تسع الكثيرين منا... وأنا أدعوا له بكل الخير...

أجابته بريجيت:

- أدع لنا يا أبانا.... نحن بحاجة لرحمة الربّ....،،

عندما وصل فرانك وبريجيت وكارول للبيت... طلب فرانك منهما أن ينزلا من السيارة إذ أن لديه زيارة عليه أن يقوم بها لصديق.. وأدركت بريجيت حينها أنه يقصد صديقه حسين... ولم تعلق بشيئ على ذلك.. بل إنها حتى لم تتكلم بشيئ طوال الطريق من الكنيسة للبيت.. ربما لأنها لم ترغب في أن تتحدث أمام كارول... بالرغم من أن كارول وعلى صغر سنها.. كانت لا تستطيع أن تتمالك نفسها من البكاء بهدوء وصمت... وبحُرقة... وتمسح دموعها بيديها... بعد أن سمعت ما ذكره فرانك عن مقتل والديه... لقد حاولت قدر ما إستطاعت أن تكبت حزنها ودموعها... لقد إنتهى كل أمل لها بأن ترى جدّيها...
ولطالما كانت تحلم بأنها يمكن في يوم من الأيام أن تزورهما... بعد أن سمعت بأنهما يعيشان في قرية وبالقرب من الطبيعة والحيوانات...
لقد إنتهت أحلام طفولة بريئة وبأبشع صورة...،،
وهي لا تعرف ولا تفهم من الذي قتلهما...؟
ولا... ما السبب في قتلهما...؟
وربما أنها لن تستطيع أن تفهم ذلك حتى لو عاشت سنين طويلة...،

إن قتل الأبرياء أمر لا يقوى عليه... غير القليلين...،
إنهم أولئك الذين يؤمنون بأنهم هم وحدهم...،
من يعرفون... سرّ الخلق والحياة....!

ثم توجه فرانك صوب بقالة حسين... وعندما وصلها وأوقف سيارته في موقف السيارات، إنتبه إلى أن البقالة تبدو غير مضاءة...،
أليس هذا شيئ غريب...؟
وترجّل من السيارة وتوجه نحو البقالة ليتأكد بأنها فعلاً كانت مغلقة... نعم إنها مغلقة... وتوقف عند الباب ليسأل من يمرّ أمام البقالة ربّما يعرف شيئاً... لكن لم يمرّ أحد من أمامها... فذهب إلى أحد المحلات

المجاورة وهو محل غسيل ملابس.. وسأل صاحبه وعلم منه أن البقالة مغلقة منذ ثلاثة أيام ولا يعلمون السبب في عدم فتحها... فأسرع للإتصال بحسين تلفونياً... لكن التلفون كان مغلقاً... وهو لا يتذكر رقم تلفون علي لكي يتصل به... فعاد إلى سيارته وتوجّه صوب بيت حسين... وعند وصوله... لم يفتح له أحد الباب.. بعد أن ضرب جرس الباب أكثر من مرة.. ثم صادف أن خرجت من البيت المجاور إمرأة... فسارع بسؤالها عن بيت حسين وماذا تعرف عنهم... فسألته:

- هل أنت صديقهم... وهل لا تعرف ماذا حدث.....؟

لقد توفي حسين..... قبل ثلاثة أيام...!
مسكين حسين...!

كان وقع كلام المرأة أكثر من صاعقة تحلّ على كيان فرانك بأكمله... لم يتمكن من إسناد نفسه والوقوف على رجليه... فهوى نحو الأرض بجذعه أولاً.. وإنهار ثمّ تلقى الأرض بيديه... ومال على جنبه الأيمن.. ليستند على مرفقه وليجلس على الأرض... وإلتفت إلى المرأة ليقول لها والدموع تنهمر من عينيه وهو يبكي وينحب بصوت مرتفع... متألم...:

- **لماذا كلّكم أعلنتم الحرب عليّ... أنا لم أفعل شيئاً يؤذي أحداً... مالذي فعلته لكي تُقتل أمّي ويُقتل أبي...،،**
ولكي يموت حسين...،،

أنا أعلم من قتل والديّ....
لكنني... لا أعلم من هذا الذي قتل حسين.....؟
مالذي فعلته لكي أستحق غضبك... يا..... اللّـــــــه ....

لم يشعر فرانك بما حدث له بعد سماعه خبر موت حسين، وإنهياره على الأرض... إلّا بعد أن ركضت نحوه المرأة نفسها.. مشفقة عليه لكي تسنده ليقف على رجليه... وقد تصوّرت أنها كانت السبب في إنهياره.. لأنها قالت له الخبر بسرعة وبدون مقدمات... لكنها لم تكن تعرف أو تتصور ماذا كان يعني حسين بالنسبة له... فهي لا تتوقعه أن يكون من أقاربه... وظلّت متحيّرة.. ولم تعرف أن تقول شيئاً غير أن تبدي أسفها المتكرّر له... حتى إستفاق فرانك من صدمته وهو مذهول.. ولكنه كان مازال يجلس على الأرض ينحب نحيباً...
وكأن موعد سداد ديون البكاء على كل ما حدث في الماضي قد حان الآن... كلّه... قد حان ليبكى عليه فلاح ساعة علمه بموت حسين...،

تذكّر كلّ ألَمٍ مُهمٍّ قد مَرّ به...، تذكرها كلّها...،
لكن يبقى ألم موت حسين أهمها....،،

كيف ستكون حياته بدون حسين....؟
الذي كان يلجأ له في كل ما يواجهه من مشكلات وأمور...،
تلك الأمور التي كان فيها يحتاج للعقل الراجح... لكي يسنده...،،

لماذا قرّرت أن تموت الآن يا حسين....؟

لماذا ضعفت أمام الحياة الآن... لماذا لم تقاوم...؟
أنت تعلم أنني لن أقدر على اللحاق بك... كنت أتمنى ذلك...
لكن... من سيقوم على رعاية كارول...؟
أنا لم أعد أثق بأحد... ليس لي أحد...
أنت من كنت أشكو له همومي....

أنا أعلم أنك كنت تعاني... ولكن ألم يكن ممكناً أن تؤجل ذلك...؟

كنت أتصور أنك ستعيش طويلاً....

كنت أراك هامة عالية.... يخجل منها الموت....،،

كم بشع أنت..... أيها الموت...!

*****

مشاهد الرواية:

- صباح جديد
- لمحات من الوطن..... الأول
- في الطريق إلى المدرسة
- زيارة لصديق
- علي إبن حسين... وزواجه
- حسين وحديث مع النفس
- أجرة المطار
- فرانك وبريجيت... وحديث عابر
- المدينة الكبيرة
- حسين معتكفاً
- في البيت
- جلسة الشاي
- فرانك... وصباح يوم جديد
- في بيت حسين
- المهاجرون الجدد والحزب الحاكم
- بريجيت وكارول
- فرانك وحسين.... والشاي
- فرانك في طريقه للمدرسة
- حديث على مائدة الطعام
- علي
- حسين ولمحات من الماضي
- فرانك والموقف الحاسم.....
- حسين وزينب... والسؤال المفاجئ
- فرانك والإنتظار
- حسين يتهيأ..... للسفر
- فرانك... ويوم الأحد